بسم الله الرحمن الرحيم

رسائل عشق

فتحية محمد القلا

إهداء.

"أنك لن تهدي من أحببت لكن الله يهدي من يشاء"

"لو شاء الله لهدى الناس جميعا"

صدق الله العظيم

هل عشت تجربة ورود رسالة من السماء اليك فعصفت بحياتك؟

هل نقلتك من والى تغير شامل كامل، سكنته برضا. تقبلته بامتنان. صار نهج حياة. وصرت أنت. أنت؟

نعم. أنا عشت تلك التجربة الفريدة ذات يوم. نعم. وعصفت الرسالة التي وصلت لقلبي بحياتي. نقلتني نقلة عجيبة. فصرت أنا. أنا.

الأعجب. لم يلحظ أحد من حولي بتلك النقلة. ولا ذلك التحول في نمط حياتي. لم يشعر أحد بذلك الانقلاب الكبير والخطير الذي أدهشني. كأني خلقت هكذا، وعشت أتعامل مع الدنيا والناس هكذا. لذا تفهمت لم اخترت لمثل هذا الحدث غير العادي؟ لعلي كنت كلمة بلا تنقيط فحملت الرسالة نقطها. لعلي كنت تائها فوضعتها في مكانها الصحيح ففهمت نفسي وعرفتها.

أكلمكم عن مشاعر عشتها لا لبس فيها ولا تخمين، بل حقيقية. حملت في طياتها هويتي اسمي معتقدي. حالة فريدة، حالة عجيبة، حيرتني غيرتني. إنسان آخر صرت. إنسان حقيقي بلا رتوش. بلا ألوان، بلا زيف.

عن ثقة أحكي. عن رسالة حب، حقيقية، أتت على غير ميعاد. بطريقة غريبة مذهلة. تلقيتها بخشوع ورضوخ. بهمس، حمدت وشكرت وصمتّ. عيناي ضارعة. روحي هائمة، خائفة، مؤمنة. ورحمة شملتني. يا لهذا التغيير شفّت نفسي، عفت، نظفت، وتواصلت. قبل قرأت رسائل حب وشوق تتبادلها البشر. مكتوبة بأنامل مرتجفة. تلتقطها يد لهفى، كادت تيأس من طول الانتظار. من خيبة الرجاء. تقرأها عيون تتلألأ بدموع أمل. لكن في حالتي تلك، كنت على يقين بأنني لن أخذل لن اقصى لن يغلق بوجهي باب. احدثكم عن حدث

غريب ليست قصة حب قرأناها او سمعناها. فرق كبير بين ان تقرأ وتسمع وانت انسان عادي قصص، لها عمر. لها حالات. إعراض وتجاذب، نفور وهيام. وبين ان تعيشها وانت ذلك العارف المتذوق العاشق لمهندس لكون العظيم. الأخرى قد تموت وهي في ذروتها وتألقها بالحياة. بعضها تفاجئك بتوهج شديد ثم تنتهي الى رماد. تتوه في فراغ عمى القلوب.

قصص سأرويها وأنا عارف طريق القلوب وأحوالها وسمات العشق الحقيقي من زيفه. قد يدهشكم كم أثارت اهتمامي ولهفتي. كم منحتني سعة افق ورحابة صدر وقلب. يحس بكل شاك باك من ظلم الحياة يودي بحياة الكثير من الناس. طبعا لا أعني انهم يموتون حقا ويدفنون، بل احياء موتى يهدرون قيمة حياتهم بالأسى والتشكي. متناسين ان مولانا العظيم وصفها محفوفة بالمكاره.

بصفتي طبيب نفسي عيادتي مريحة لكل مريض. يفتح قلبه على الغارب. أرى القصص التي يرويها على حقيقتها. بلا مبالغة كما يحسها راويها. بلا تضليل. قصص ضلت طريقها في قلوب او عقول بشر أغيار فتأثرت بهم.

مشاعر قلوب متيمة مغرمة، تكابد الحيرة والنأي والهجران سجلتها في عيادتي. همسات قلب شكا وانّ وباح. وآخر فرح لكنه ملتاع خائف يبكي لا يعرف ان كان ما يعيشه نعمة أو نقمة. عالجتها بأكسير الحب الذي امتلأ به قلبي وعشت بانتظاره. فيه الفرح كما فيه العذاب فيه الراحة كما فيه القلق. لم أشك ولم أبك. بل طالبت بالمزيد. الحمد لله، لم تكن النعمة سحابة صيف بل خيرات متجددة. خيرات لا تعد ولا تحصى. سنوات بعد سنوات والتوهج بجماله الساحر مستمر في روحي ونفسي وحياتي وحياة من أحب.

بكل هذا الزخم قررت حملت ما أملك واسرتي الصغيرة وعدت من غربتي الى وطني. الى حيث طفولتي ومراهقتي. زالت أسباب هجرتي وتحرر الوطن. ظننته بحسن طويتي يعيش افراح ورخاء ممارسة الحريات. فرحة الخلاص من القيد من البطش والإرهاب قررت العودة لأشارك وآخذ نصيبي.

لكن. ودائما هناك لكن. فالأيام لا تهادن. بقدرتي غير العادية قرأت كلاما بين السطور لم يقرأ أو لم يشأ أي منهم قراءته. رأيت ظلال الاستعباد الطويل متروكاً في العيون، في رعشة اليدين، في الكلام المسموع وغير المسموع. رحلوا الغزاة. صحيح. لكنهم تركوا أهل البلاد الأصليين في قاع الحياة. رحلوا. لكنهم بقوا إدانة مثل وشم قديم فوق الجلود السمراء الملوحة بشمس الشرق.

قلت هذه بلادي سأعيش فيها كما أنا. لن أكون شيخا يصرخ طوال خطبته دون ان يصل معنى لمن يستمع. ولن أكون محاضرا اشغل بال تلامذتي عن دراستهم التي هي السبب الحقيقي لوجودهم في مدرجات محاضراتي بمجادلات عقيمة. ولن أكون بوقا يزعق لمصلحة أحد. ولا صحفيا يكتب على هواه او اهواء الآخرين. سأكون كما أراد لي ربي قدوة، مثال يحتذى لطلبتي ولمرضاي لأصدقائي ولكل من اتعامل معهم.

تزامن رجوعي عام الثامنة والخمسين بعد عشر سنوات على نكبة فلسطين وبداية همً جديد. لم استغرب فنحن الشعوب الغنية الثرية تعشعش بذاكرة الأقوياء القراصنة. تناسوا بأننا أصحاب حضارة عظيمة وتذكروا أنها منهكة من شيخوخة طبيعية. التقطوا الفكرة وحالا صارت مشروعا جديدا لدول فتية متحضرة حسب السلم الاجتماعي الجديد. لا أعرف لما وصفوه بالجديد مع انه

بدا ومنذ الوهلة الأولى أسوأ من عالمنا الذي وصفوه بالقديم. لعله سمي بالجديد مجازا. بقوا كما كانوا، يشتهون كل ما بعالمنا، مقدراتنا، ثرواتنا. بقوا كما نشأوا قراصنة محترفين يسطون على ما ليس لهم بوضع كما في العهود السابقة.

نحن ايضاً ما زلنا كما كنا قليلو الحيلة. نفكر بقلوبنا وعقولنا تقتات على الفتات. شيء محزن حقا. كأن حرقة القلوب واوجاعها كل تلك السنوات الماضية. كأن الجهل والفقر والمرض، كأن مخلفات مستعمر بعد آخر. عقود بعد عقود، سنوات بعد سنوات، ننهش وندمر. ليست كافية. فزادوا الطين بلة، أهدوا قلب عالمنا لقمة سائغة لفم غاشم جديد آفاق شرس يشبههم. أكل لحومنا نيئة. تحت سمع العالم المتمدن المتحضر الذي ملأ حياتنا ودنيانا زعيقا " لا ظلم بعد اليوم" "عالم واحد ومجتمع واحد" "واسرة واحدة" وبغفلة منا. نحن صدقنا ما قيل وما يقال. كنا نمني أنفسنا بانفراج قريب. وتنفس هواء خال من عواطفهم الميتة. اشهروا بوجهنا غضب وغلّ واتهمونا بالتخلف والرجعية ونحن الذين ملأنا الدنيا حضارة عشق وحب وتسامح وسلام.

هذا الحدث العجيب حصل في وقت قالوا انه زمن الحريات والتكتلات. بوحشية وبغفلة، بيوت دمرت فوق رؤوس أصحابها وهم نيام. يجب ان يكونوا نياماً. فالخفافيش لا تطيق النور. بالظلمة وفي الظلمة تبث خبثها. اقنعت العالم بأن أصحاب البلاد الأصليين ما كانوا هناك يوماً من الايام. الارض خاوية وهبت لمشردين مساكين متعطشين للاستقرار والعمل والبناء وإنشاء دولة. بأيديهم اخضرت وربت وانبتت. باكتمال هذا المشروع أعلن بداية استعمار جديد، أسلوب جديد. يتناسب مع عالمهم الجديد. ظاهره تحضر وابداع وحقيقته زيف مقيت. اختراعات مذهله لفناء أصحاب الحق ووضعهم خارج النص.

لم أقل ما قلته بهدوء أعصاب. وببرود الإنكليز التي احمل جنسيتهم. بل بوجع يفتت الكبد. لا أعرف تفسيراً له سوى حساسيتي المفرطة تجاه الأوطان والاغتراب. الأرض الوطن التحرر. ذكرى لا تمحى تعشش في عقلي وقلبي وفي شراييني. بسبب استعمار بلادي الطويل صار الاغتراب قدري. لكنه أيضا قراري. ليس هروبا، ولا ابعاد. كان اختيارا. انا اخترت، انا هاجرت، انا رحلت.

لا تسألوني لماذا؟ لا جواب شاف عندي في ذلك الوقت. من هناك حيث كنت أعيش رأيت من ذلك العلّ عالمنا العربي المخرب. من فوق اكتاف الجنود الفرنسيين والانكليز المحتلين. برتبهم ونياشينهم المبهرة، وجرأتهم اللامتناهية. يدوسون على رقاب المواطنين. أهل البلد الأصليين. أهل بلدي أهلي. لم أر وقتها كيف عاثوا في الدنيا فساداً. كذلك لم أتفهم معنى استكانة شعوبنا بهذا الاذلال.

وأنا في قمة سعادتي بقرار عودتي وترك بلاد صارت تشيء الانسان وتقدس الآلة. لم تعد تتمتع بحس الانسان نحو الانسان. لا أنكر افضال غربتي الكثيرة. علم غزير. اعتداد بالنفس كبير، ثقة تامة للوصول الى ما أصبو اليه، نجاح تلو نجاح. صرت ايقونة في مجالي. أعمل معظم ساعات يومي بلا كلل، بحب، برضا، بإقبال. واثق بأنني ابني صرحاً لأجيال بعد أجيال. كل هذا ولم تشبعني عاطفيا، أنا ابن الشرق العاطفي.

بملء ارادتي تركت غير آسف. رجعت الى وطني، لما تبقى لي من ابي وأمي. الى بيتي الكبير الجميل، ميراثي. كان أبي يعرف مدى عشقي للبيت وبتفاصيله الكثيرة. لم يكن بيتا بل كان قصرا متوارثا أجيال بعد أجيال لأسرتي الميسورة

استوطنت البلد القديم منذ سنوات طويلة. تركه لي ابي ارثا واثقا من حرصي على صيانته من الزمن كما رأيته يفعل.

قصر الأجنحة الطائرة هكذا أطلق عليه. أجنحة البناء مفرودة على اتساعها كطيور النورس حين تطير زرافات فوق الماء. كانت تمتد مع بداية الشارع المسمى باسمنا حتى نهايته. تزدان واجهته بأحجار بيضاء منسقة كل واحد يحتضن الذي يليه. التقاء كل حجر مع الحجر الآخر بخطوط هندسية، مرسومة بإتقان، بلون البحر الفيروزي كان متعة للنظر. طبقاته محاطة بشرفات مستندة على أعمدة منحوتة بجمال تزدان حوافها بنقوش مطلية بلون الفيروز ذاته تغريك بالابتسام المرح.

كان طابقه الأرضي يحتوي على عيادة ابي. بضع غرف متراصة بالقرب من العيادة خصصت للمرضى المحتاجين لرعاية خاصة ليوم او يومين. مخازن للأدوية مطابخ غرف للممرضات والممرضين. غرف للغسيل والكي وللخدم. تتمدد يافطة طويلة على طول جدراه الأمامي كبيرة تحمل اسم أبي الدكتور عمانويل جبري. وقد أطلق الاسم على الشارع كله. تناسى الناس الاسم القديم. شارع الأرمن.

وقفت متأملاً ومتذكرا ساكنيه القدامى. كنت ذات يوم واحد منهم ورحلوا عن الحياة وأنا بعيد منفي بقرار مني. تأملت البناء، الشرفات، النوافذ، والأبواب. الحديقة المحيطة بالبيت. كله كما عهدته رغم السنين. يمثل امامي خيال أبي وأمي رحمهما الله.

الآن عائلة أخرى غيرنا تقيم في البيت. أطفالهم يلعبون بين الأشجار حيث لعبنا. على الشرفات صبايا وشباب يتنادرون ويتضاحكون بمرح كما كنا في شبابنا خاليي البال من هموم الدنيا.

كانت عائلة كبيرة هاجرت من بلادها. نكبة أجبرتهم على الفرار من بيوتهم الى المجهول. إذ ذاك استقبلتهم أمي برحابة صدرها وقلبها الكبير. منحتهم المأوى. تركت لهم البيت وعاشت بقية عمرها في القبو الذي حبسني به ابي سنه كامله. لم أخرج منه الا بعد استشهاده وأخي. كانا مع ثوار مقاومين للمحتل الفرنسي.

ساكني البيت وصلوا لبيتنا إثر معاناتهم من محتل آخر استعمرهم. كان من نصيبهم الاستعمار الإنكليزي. حسب تقسيم الكعكة الطازجة بعد الحرب أطبقوا بأفواههم الشرهة على حصصهم بعد القسمة. وبدورهم قدم الإنكليز فلسطين هدية لليهود المشردين في بقاع الأرض بأمر الرب الذين عصوه. ادعوا انها ارض الميعاد. بكوا وناحوا من طول حرمانهم من ارض وعودوا بها. اغتصبوها وشردوا أهلها، رموهم لقدرهم. بعد قتل من قتل. وصلوا منهكين بشكل محزن من طول السير على الاقدام حفاة عراة جياع. فروا تاركين كل ما يملكوه لغاز بربري. قطّع أوصال. حفر اخاديد. مثلوا بالأجساد بقر بطون الحوامل. وسكنوها مرتاحي البال والضمير فقد حققوا مشيئة الرب وعادوا لأرض الميعاد وعاثوا فيها. ابحرت سفينة نوح جديدة عبر رمال وصحاري حاملة الناجين وهم يبكون الغرق في دمائهم.

في تلك الأثناء كنت أعيش باغتراب كامل، سنين وسنين. لم أعدها ولا دخلت باب الحساب. ما اتذكره تماما، أنني رغم السنوات الطويلة، لم أتمكن من

الوصول الى قلوب أهل البلد الذي اخترته لغربتي. تمنيت لو أحبهم ويحبونني. لهثت وراء مشاعرهم التي كنت اراها مبعثرة هنا وهناك. بلا قيمة بلا حرارة. المشاعر التي أعنيها، ذات طعم خاص، لا يغني عنها شيء.

هناك تعاملنا العاطفي مع بعضنا البعض بالمقايضة. شيء بشيء. خذ وهات. ببرود يشبه بردها وثلوجها وصقيع مناخها. بياض متكدس على هضابها وجبالها وشوارعها وأشجارها وأعصاب أهلها. لا تمتزج بألوان الحياة ولا بريقها الا ما ندر.

لذلك. بوصولي الى بلادي، ألقيت بروحي المتعبة بحضنها الدافئ الحنون بفرح. بعجالة المشتاق. الملم المشاعر، عن الوجوه وعن القلوب وعن الطرقات. انتشيت، وتشبثت بتلك الحميمية التي أعرفها، والعلاقات الجميلة بلا حساب. امتلأت روحي بشيم راقية من بالتعايش والتسامح التي أعرفها منذ صباي ومطلع شبابي، لكن دون إدراك دون تفهم. الآن اراها تشع في العيون اللهفى. في الأكف المتصافحة. في عناق حميم بلقاء أو وداع. لعل عواطفنا المتاحة والمباحة سبب طمع الغزاة فينا عصور بعد عصور.

سكان البيت أعني جيراني أصبحوا بعد فترة وجيزة حبلي السري أعيش عليه، ما أجملها من حياة. تضج بقصصهم. هجرتهم، تشريدهم، حبهم، حزنهم. فرحهم. قصص حب بريئة، تلمع في وجوه الصبايا والشباب. يتحكم بها الحرام والعيب. قصص حب فصمت وهي بالكاد بدأت. قصص شبّ فيها الحب مثل نار في هشيم ثم خمد وترمد. وفعلت فعلها اختلست تألق ونضارة وجمال وجوه أصحابها وابدلتها بمرض العصر الحديث الاكتئاب. بعضهم دخلوا حياتي كطبيب

وآخرون اقحمت نفسي بحياتهم مقتنعاً بحسن الظن المتأصل فينا فالمتّهم بريء حتى تثبت إدانته.

ما هذا الارتواء. ما هذا الزخم الذي ملأ حياتي. كنت عطشاً سنوات غربتي كلها. عشت مع وجوه جامدة لا تشيء بشيء. وحتى لا أكون مجحفا اعترف بأننا ما ان نتلاقى وجها لوجه يحيوننا بأدب جم، بهزة الرؤوس، او بتحريك الشفاه بصباح او مساء. فلا يسعك الا ان تتلقاها وتعيدها بالبرودة ذاتها. تعجبت وهي تمر بخيالي كيف تحملت ذاك الجفاف سنوات طوال.

قال العم جاكوب:

: بني. عليّ اخبارك بأن والدتك، يرحمها الله، تركتني راعيا لأملاكك في غيابك. سمحت رحمة الله عليها للمهاجرين بالسكنى في بيتك. من واجبي ان أوضح لك بعض الأمور. تلقيت عروضاً ممن يهمهم الأمر. امامك عدة خيارات للتصرف بأملاكك وخاصة البيت الكبير. اولاً. الدولة طلبت شراؤه بالثمن الذي تريده. سيجعلون منه تراثاً قيما في البلاد. آخرون من رجال الأعمال الأثرياء فضلوا ان يهدموا جزء منه ويقيمون عليه عمارات متفرقة لدوائر حكومية حديثة. كذلك هناك من رغبوا بشراء البيت والأرض. سيحولنها لسوق تجاري كبير، ومقاهي، ودور سينما، ومطاعم. يرحبون بمشاركتك إذا اردت. فأنت كما تراه مهدم من الإهمال.

: سأفكر بالأمر. الآن كل ما يخطر ببالي ترميم البناء وهذا ما تتقنه الدكتورة ندى زوجتي. لقد وضعت خططا لتعيده الى سابق جماله كما أحبه أبي.

: ماذا عن العائلة التي سكنته. لا تلم الوالدة. فقد تفهمت ظروفهم آنذاك. لا يخفى عليك انهم أتوا الينا بعد توطين الإنكليز لليهود بفلسطين آنذاك.

: أكيد من ينسى أكبر قرصنة في تاريخ الشعوب.

علق جاكوب:

: شعوب كثر تعرضوا لحرب إبادة من غزاة طمعوا في بلادهم. نحن الأرمن مثلا والهنود الحمر. يبدو ان كلما تطور العالم صار انسانه أكثر وحشية. لسنا وحدنا، ولن نكون آخر المتضررين.

مساكين أهل فلسطين. مساكين قولا وفعلا. ما زلت أتذكر ليلة وصولهم يا دكتور مينا. متعبين جائعين خائفين. شكلهم يغني عن الكلام. يتتابعون باندفاع غريب يحكون للست الوالدة ليلة سقوط مدينتهم وهم يبكون. يرون بقلوب مفطورة كيف انقضوا عليهم بشراسة لا تصدق، انهال الرصاص والقذائف والجميع نائمون، شيوخ وأطفال ونساء في قبو بيتهم آمنين مطمئنين. فوجئوا بالقصف العنيف العشوائي المتواصل. استيقظوا فزعين ليهربوا قبل سقوط المدينة. لكن الى اين؟ لم يكن برأسهم فكرة معينه هاموا بلا تخطيط قطعوا مسافات طويلة مشيا على الأقدام. وإذ بهم مندفعين نحو طريق واحد متاح وآمن. أطفال وشيوخ وعجائز وشباب. بعد ليلة ونهار كانوا على مشارف الحدود اللبنانية. الصدفة وحدها هيأت لهم شاحنة أيوب. أقرب المقربين للمرحوم ابيك. حملهم وأنزلهم ببيتكم طالبا من الوالدة ايواءهم. فتفضلت بذلك براحبة صدر وهي تمسح دموعها من منظر الأطفال المذهولين. بالمناسبة أخبرتهم بعودتك وأنك ربما تحتاج بيتك.

انصرف الضيوف. جلستنا المسائية بعد العشاء سألت ندى بقلق:

: هل ستطلب منهم ترك بيوتهم التي لمت شملهم بعد الشتات؟

: لم اقل شيئا كهذا. على الأقل عرفنا مدى حاجة البيت للإصلاح. كيف خطر ببالك شيء كهذا يا ندى ونحن تعاهدنا ان لا نرد سائلا او محتاجا. تنهدت ببطء. وسمعت كلمة الحمد لله، ترن بأذني. أدركت بعدها اننا ما زلنا على الطريق مؤمنون لا نبغي أي غاية دنيوية. قالت ندى:

: ينظرون الينا كأننا مخلوقات من كوكب آخر. اشكالنا الواننا ملابسنا كلامنا لا يصدقون اننا نتكلم العربية وبطلاقه مثلهم. سنبدأ أعمال الصيانة والتحديث للبناء. أمرت العمال نصب أعمدة مغطاة بقماش خاص لتحمي المارة من سقوط بعض الحجارة او الاسمنت. كل من يمر من ذلك المكان يسأل عن سبب تغطية البناء وهل نحن بصدد هدمه حين نجيب بالنفي بأننا فقط سنرممه ونستصلحه. يمضون بدهشتهم ودون تعليق.

قلت لها ضاحكاً:

: كأنهم لم يصدقوا ما قلنا. يتخوفون من التشرد حين يهدم البيت. سيأتون مساء لزيارتنا اعتقد يريدون التأكد من نوايانا. كأن الكذب والتلاعب بالألفاظ والمعاني هو السائد.

ضحكت وقالت:

: اليس هذا سمة هذه الأيام. يبدأها الكبار السياسيون ثم يقلدهم العامة على أساس إذا كان رب البيت للرق ضاربا فشيمة أهل البيت الرقص.

جاء في المساء بعض رجال الحي برفقة السكان المقيمين في بيتنا لزيارتي. دخلوا كأنهم كتيبة استطلاع. توجس وقلق باد على وجوههم. تخوف من تشرد جديد بعد سنوات استقرار. ربما كما قال أحدهم لم تكن استقرارا بقدر ما كانت ترقب بلهفة، انتظار موجع، للعودة الى البلاد. بذلت جهدا مضاعفا ليستأنسوا بابتسامتي المتفهمة تماما لما عانوه وعاشوه. وان بقوا صامتين بانتظار مبادرتي بالحديث لكنني لم افعل. قال أحدهم بصوت متردد:

: الحمد لله على السلامة دكتور مينا. أجمل ما في الحياة العودة الى الديار. العقبى لنا ان شاء الله. لا شيء يعوض الإنسان عن وطنه وبيته. نحن يا أخي على استعداد، لترك البيت، او دفع إيجاراً مضاعفا او أي شيء تطلبه دون نقاش. لكن رجاء نريد فترة أطول من تلك التي حددها وكيل اعمالك.

قلت مبتسما:

: ما ادراكم ربما سأبقي الوضع على ما هو عليه. البيت كبير. يتسع لنا كلنا. قد تطرأ عليه تغيرات ضرورية لكنها لن تؤثر على حياتكم. الجزء الشاغر حاليا كان عيادة ابي ومشفاه سيكون لعيادتي. آخر بجانبه لسكني. الجزء البعيد عنكم والمطل على لشارع العام لزوجتي ستقيم عليه مشغلها.

ردوا جميعا بصوت قد دبت في الحياة فجأة:

: الرأي لك. تحت امرك وطلباتك.

صمتوا ثم عادوا لمحاولة بث الألفة وكسر حاجز الصمت:

: لقد عرفنا الكثير عنك من وكيل اعمالك وهو الذي أخبرنا بقرب عودتك وقال ربما كنت تريد منا إخلاء البيت وهذا ظلم. نريد فرصة لنشرح لك ظروفنا.

: هذا تخويف ام ترغيب. ماذا عرفتم؟ هل قيل لكم كل اسراري؟

ضحك كبيرهم وعدل جلسته وقال:

: لا هذا ولا ذاك هو استئناس لتزول الكلفة بيننا. قيل بأنك غادرت البلاد شابا يافعا الى إنكلترا. سعياً وراء تحقيق رغبتك باكتساب العلم والمعرفة الذي عشقته منذ الصغر. تفرغت للعلم ونجحت ونسيت. تأقلمت تزوجت وانجبت. لذا فالجميع دهش وتفاجأ بعودتك. ذكروا لنا مقولتك المشهورة في بداية شبابك لأهلك. أنك كرهت العيش في بلد، يزحف نحو الحضارة مثل سلحفاة. اريد ان أعيش في بلاد متحضرة. تجمح مثل الصاروخ وراء تقدم وتحضر وتوسع مهما كانت الوسائل. لا ندري ان كنت تذمها او تمتدحها.

: كل ما قيل صحيح. لكنني عدت. أتمنى ان يكون العود أحمد. لا تتخوفوا، لن يتضرر أحد. لم أكره بلادي بل أحببتها بقدر ما كرهت مستعمريه الرابضين فوق انوفنا ورقابنا. أحببت بلادي بقدر ما كرهت الخوف والرضوخ الذي اراه في وجوه شعوبنا. أكاد أجن، كنت صغيرا جداً لأتفهم سبب خوف الشعوب وارتعادهم امام مستعمريهم كأنهم أسيادهم والذين يعاملونهم كأجراء.

تفهمت كل هذا بعد ان كبرت. فترة مراهقتي كانت قاسية جداً. اتسمت بالتمرد على كل شيء. أرى الحياة من اضيق زواياها. مثلا: كنت فرحا بالاحتلال، رأيته فرصة للتحضر والرقي والانطلاق، للانفلات من جحورنا.

للانفلات من التقوقع. الانفلات من لجام اسمه جهل وفقر ومرض، صحي واجتماعي. وقتها لم أكن أعرف بأن ذلك ما هو الا مخلفات استعمار إثر آخر.

سأبوح لكم بسر حياتي. لم أكره أهل بلدي ولم أرحب بالطغاة. لكنني دون سبب مفهوم كنت اساعد المحتل لقمع المقاومة. بإرشادهم لمقر شباب المقاومة الشرفاء، أماكن اختبائهم ومخازن أسلحتهم ومؤنتهم. عرف ابي بجريمتي فعاقبني. حبسي في قبو البيت شهورا طويلة لا يراني ولا يكلمني. سمعتم بهذا أم لا.

بعد استشهاد ابي وأخي الكبير أخرجتني أمي من سجني. قالت. ان اهل بلادنا لن يغفروا لك ما الحقته بأولادهم المناضلين من الأذى بتعاملك مع العدو. خيرتني البلد التي أريد الذهاب اليها والعيش فيها ريثما يقضي الله امرا. اخترت لندن منفى ووطن بديل. استقر بي المقام بإحدى جامعاتها لتلقي العلم. فرحت برحيلي وابتداء اول خطوة من رحلة الألف ميل كما يقولون. مزودا بمال ورجاء الا أعود قبل استقلال البلاد. وميراثي محفوظ لحين عودتي.

ماتت أمي. وتحرر الوطن باستجابة المحتل للمقاومة الباسلة. تخلى الفك المفترس الفرنسي عن نهشنا، سحب انيابه المغروسة بلحمنا المر. رحل وترك آثار إجرامه بحاجه لسنوات وسنوات لتعود الحياة الحقيقية الى بلادنا الممزقة الجريحة. للأسف بقيتم أنتم بفم الإنكليز. لقمة مضغوها حتى الملل. ثم بصقوها بفم محتل جديد. يهود، وصفهم ربهم أن قلوبهم كالحجارة او أشد قسوة.

قال كبيرهم:

: من نسمعه يتكلم بتلك الروح العالية والنبيلة، مقيما قوم نالنا من قسوتهم الكثير. يلغون بالدماء المهدورة وبتدمير الحياة. اكاد لا أصدق الجزء الأول من حكايتك. بانك كنت في شبابك ضد مقاومي شعبك.

: دائما يا عزيزي، هناك باب مفتوح على آخره للحظة ضعف، للغواية. تسحبك لمستنقع مياهه آسنة فترة من حياتك. الا يوجد بينكم ـ كفلسطينيين من ساعد اليهود وتعامل معه مع يقينه انه عدو ولص ودنيء؟

: كثر يا سيدي. لكنه شيء بشع والدم ما يزال يغلي بالعروق الغاضبة. كان أمامنا وقت طويل نحلم ونقاتل. نقتل أو نقتل. هذا كان قبل كشف الوجوه. قبل سقوط الأقنعة ووضوح الرؤية. بعدها سكننا اليأس. رأينا بعيوننا وسمعناه بآذاننا. انا لا ابرره. الحقيقة لا تبرير له اطلاقاً. حتى وان كان ردا على التشرد والجوع. بشع كالعمى الذي أصاب غالبية الشعوب العظمى.

الوقت المبكر الذي اعنيه حين كنا في غفلة حس ظننا فشقينا. اقصد حين كنا نفهم معنى الشجاعة، الحمية والعزة، الغيرة على بلادنا. نقاتل من أجل انتهاكهم شرفها امام اعيننا. قبل ان نفطن الى تعويم قوانين العالم الجديد. ودفن قيم تربينا عليها. قبل تلون البشر. الآن نعرف انه في الحرب كل شيء مباح. كل شيء مقبول. كل شيء قابل للمساومة. والكثرة تغلب الشجاعة؟ زهق الحق، والباطل يندفع راكبا عجلات تكنلوجيا خارقة.

: جاري العزيز. أحقا تؤمن بهذا وانت المجني عليه بل المقتول؟

: نعم وبالوقت ذاته لا. صدقني يا أخي، ما زلنا نكذب على أنفسنا باننا لم نيأس، وأن هناك امل. بصيص من امل، يلوح بالعين ذاتها التي تقاوم المخرز.

والا. كيف سنعيش؟ كيف سنستمر بالعيش؟ كيف لا نأمل بنصر وتحرر ارضنا شبرا بعد شبر. كيف سنكسر أسهم المقامرين الذين يلعبون بمصيرنا في ملعبنا المقدس دون خجل؟ كيف نتقبل خسارة إثر خسارة؟ أترى اجتماع الضدين.

كانت زوجتي وابنتي قد فرغتا من أعداد العشاء قمنا لتناوله. قلت باسم الله. اول لقمة معا على ما قسمه الله. لتزداد أواصر علاقتنا.

ونحن على العشاء سألني الشاب اليافع الوحيد بينهم:

: دكتور مينا. عفوا لتطفلي بسؤال قد تراه وقحاً. أنا شخصيا رفضته. وسأبقى ارفضه. ليقيني بأنه الشيء الذي تتكئ عليه الدول المعادية لبث الفرقة بيننا.

: أظنني فهمت. تريد ان تسأل عن ديانتي. فالجميع في الحارة حائرون. عادة كل واحد يعرف كل شيء عن الآخر. ما كنت لأجيبك لولا أنك بدأت حديثك بالاعتراف أنها أفكار مرفوضة. يجب محاربتها حتى تنقرض من حياتنا. الدين لله والوطن للجميع. أجيبك: حقيقة كنت شابا رافضا الانتماء لدين او جنسية او عرق. كوني عشت في لندن بالذات فترة طويلة من حياتي دارسا. عزز عندي هذا الرفض. كنت مولعا بالعلم والمعرفة ومؤمنا بأنها سيقودان حتما نحو التطوير والتقدم. العلم سيد الدنيا. يزيل الفروق ويذيب الاختلافات ويعم الأمن والسلام في جميع البلاد. اريد ان اتعلم، أريد ان اعرف. تركت نفسي على سجيتها. وجدتها أكثر من نفس. أكثر من حياة. درست عدة تخصصات ابتداء بالطب الى تخصصي بالأمراض النفسية. الى دراسة اللغة العربية، الى الاهتمام بدراسة الأديان. صرت موسوعة متنقلة. هل مللتم؟

لم اتلق جوابا. لكن، رأيت عيوناً ملآى بالدهشة والرغبة في المعرفة. أعرف هذه النظرة، عشتها وما زلت. لم يكن فضولاً سمجا بل هو حب المعرفة. أكملت:

ذات صباح لندني ندي منعش. استيقظت باكراً لأبدأ يومي كعادتي منذ صرت مسئولا عن نفسي ووقتي وصحتي. ابدأ برياضة الجري ثم اعود، استحم، واتناول فطورا جيداً. لا اتناول غيره قبل فروغي من كل اعمالي. ربما في الثالثة، او الخامسة، او أي وقت متأخر من اليوم.

كنت في بداية لحلقة الرابعة من عمري. انهيت دراستي وتخصصاتي. وبدأت حياتي العملية كطبيب منذ زمن باندفاع. واصلت الاندفاع في المعرفة. بالوقت ذاته أقوم بأكثر من عمل. حققت رغبتي ولهفتي بتوصيل المعرفة لأجيال قادمة. المعرفة والمعرفة فقط، أقول المعرفة وليس التعليم ربما تعني الثقافة، الوعي بأمور الحياة التي تجعل البشر يتخلى عن العنف والاستئثار ويمنح الخير للجميع.

ذاك الصباح وجدت دكتورة من تلامذتي متخصصة بعلاج اعوجاج السلوك عند بعض الناس. تهوى المعرفة مثلي. ذات ذكاء خارق جادة وصبورة. فرنسية الجنسية من اب جزائري وأم فرنسية. أشرفت على إنجاز شهادتها في ماجستير باللغة العربية. لم اسمع منها تذمرا او اعتراضا مهما ابديت من ملاحظات. وإن نسفت لها كل ما كتبته في رسالتها من أساسها او من منتصفها. وإن كنت قد عطيتها موافقي سابقا. أو أضيف مرجعاً لم يخطر على بالها.

كانت على درجات بيتي الخارجية مستغرقة في نوم عجيب. الفتاة ندى تلميذتي. تأملتها وهي غارقة في نومها. تلف رأسها بخمار أخضر لم يستطع منع تمرد بعض خصلات شعرها الأسود فتركته متهدلاً على وجهها كأنه يحميه من برد

الصباح. ترتدي روباً طويلاً من الصوف الأخضر، ملتفة بشال صوفي منقوش حول رقبتها بألوان الطيف تتداخل بتناغم فاتن.

ما هذا الجمال. بشرة صافيه محمرة الخدين من شدة البرودة. عيناها مغمضتان بأهداب طويلة. محتضنة قرآن كانت تتابع فيه مواضيع دراستها في الشريعة الإسلامية. لامست كتفها فانتفضت وقفت ووقف معها جمالها الهادئ الخجول يحيي الدنيا بتحية صباح مفعمة بشبابها الغض. ارتفعت الاهداب السوداء عن عينيها الخضراوين. ندية رطبة كمروج لندن لكنهما مليئتان بخوف وفزع.

رفعت يديها بالقرآن المفتوح على سورة الحج. نقلت بصري بينها وبين ما تحمله عدة مرات علّي استشف سبب حضورها المبكر. فالشمس بخيلة في تلك البلاد قلما تشرق في الصيف فكيف ونحن في أواخر الشتاء. كأنها لم تنم ليلة أمس. لاحظت دهشتي همست:

: دكتور مينا هل تؤمن بوجود الله؟ هل تؤمن بالجنة والنار؟

زادت دهشتي. السؤال بحد ذاته غريب، لم اطرحه على نفسي يوما أجبت:

: لا أعرف. ماذا عنك؟

: لست مقتنعة بما اعتنقه تماماً. شيء ما ينقصني. ابحث عنه سنوات طويلة.

: لماذا تشغلين بالك بأمور غير دراستك تربكين نفسك بها؟

: منذ طفولتي وانا ابحث عن شيء افتقده. أمس فقط اعتقد بأني وجدته. اتيت اليك من فوري. لا اعرف لماذا انت؟ لا اعرف لماذا لم انتظر الصباح؟

لا اعرف كيف اشرح لك الشعور الذي ملأ قلبي. عبء ليس عندي طاقة على حمله وحدي.

ارتج عقلي، ذلك الجبل الممتلئ بحقائق ونظريات علمية مدعمه بقناعات، ازيح من مكانه. تجاهلت حالتي متذكرا استاذيتي فقلت دون تفكير:

: اسمعي يا فتاة. توصلت بعد جهد ووقت طويل، ودراسات وقراءات الى نظرية ثابته لن تتغير. الأديان السماوية قوانين لضبط سلوكيات البشر، بينها وبين ربها، بينها وبين نفسها، بينها وبي بقية البشر. اتباع سننها تجعل الحياة أيسر. كل يعرف ماله وما عليه. أعني التزام الشخص بقوانين الدين. يعني الايمان بمشرّعها والايمان بمشروعيتها. سلوكيات طبيعية ضرورية تحمي نفسك والآخرين من انفلات الحياة من نواميسها وقوانينها. ما العقاب والثواب الذي يطرحه الدين في منهجه إلا ليلتزم الانسان بتلك القوانين. عن رغبة او رهبة إيثارا للسلامة. مع الوقت تصبح عادة، تصبح سلوكاً، مبدأ. أخلاق، تصبح نظام حياة. قوانين حياة.

: تفهمت ما تعنيه دكتور مينا. أرجوك أنصت لما سأقرأه عليك.

رفعت القرآن بيديها وقرأت بلغتها العربية السليمة. بسم الله الرحمن الرحيم: يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت. وتضع كل ذات حمل حملها. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. صدق الله العظيم.

خضة أخرى. أعنف وأقوى. جارفة شملتني من قمة رأسي الى قدمي. صمت رهيب. لحظة مروعة، حتى الآن ما زلت لا اعيها. ما زلت لا اعرف ما اعتراني.

لست قادرا حتى اليوم على تحديدها، ولا ما جرى بعدها. نظرت الى ندى بعمق، وقعت في عمق عينين صافتين صادقتين. فيهما شيء أجفلني، ألجم لساني. لم أكن مؤمنا قبل تلك اللحظة. لم ينشغل تفكيري بهذه الشأن. سمعت همسها:

: هل من المعقول أن نؤمن خوفاً؟

شيء اخرسني مرة أخرى. أخذت القرآن من بين يديها ووضعه بكثير من الإجلال على المائدة في مدخل البيت. امسكت يدها بيدي بقوة واندفعنا الى الحدائق الخضراء الواسعة التي تلف بيتي من جميع الجهات. ظللنا نركض ونركض ونركض حتى قطع منا النفس. ارتمينا على الحشائش الخضراء الندية. لا هثين تائهين. مغمضة عيوننا. لا أدري هل نمنا او أغمي علينا. بدأ الليل يزحف. ما زالت اصابعنا متشابكة. انطلقنا نركض من جديد. توقفنا عند بداية الشارع الذي اسكنه ودخلنا اول مطعم صادفناه. جلسنا بصمت، سحبت يدها من يدي. بكت وبكيت. لم نأكل ولم نشعر بمن حولنا ولا بنظراتهم.

عدنا معاً الى بيتي. تحركت ندى فيه ببساطة، بحرية، كأنها أنا. استغربت. إنها المرة الأولى التي تدخل بيتي. اقتربت مني. ظننتها ستسألني عن مكان شيئا تحتاجه وقد بدأت بتحضير الشاي وإذ بها تسألني وكأنه تحصيل حاصل:

: هل ستغير اسمك.

: طبعاً لا. تفكرين بالخطوة التالية. تذكري. أنا أكبر منك بأكثر من عشر سنوات تقريبا؟

: لا أعرف. هل ارتبطنا بدين؟ هل سنبقى معا. هل سيتفهمنا من حولنا؟

: ما يشغلني الآن إيجاد تسمية لهذا الدين. لن أكون مسلما.

انسحبت تركني أفكر. استحضرت كل ثقافتي الدينية فاجأتني نفسي تقول:

: قال الله للمنافقين "لا تقولوا آمنا بل قولوا أسلمنا" فأي الفريقين نحن؟

: إذا صح هذا العزم فنحن آمنا.

: إذا آمنا حقا فلنحتفظ به لنفسينا. لا يهم أحدا غيرنا. سنرتبط كمؤمنين محتفظين باسمينا. من حقك ان تعرفي إذا تم الأمر بأنه نداك. بعض منك.

: نرتبط؟ تعني الزواج؟ لم أفكر بهذا ما زلت في بداية مشواري العلمي.

: لا عليك. لم أطرح فكرة الزواج بعد. انما أفكر بصوت عال. خذي وقتك. أخبريني حين تكوني جاهزة. لا تبتعدي كثيرا عن المنطق وتسلسل الأحداث. المنطق أن تتساءلي: لماذا اتيت الي وأنا المسيحي ولا ديني؟ أهي رسالة، لي، لك لنا؟ ما الذي أشرق فينا وازدهر وفجأة؟

أخيراً وبعد تخبط. قبول ورفض. جهد بعد جهد. وقت طويل، شهور طويلة. وسرنا مدفون بداخلنا. لم نحك قصة ايماننا لأحد ابداً. ذات يوم ونحن جالسان في مكان قريب من بيتي في متنزه عام وقد بدأت الغروب باكرا كعادة تلك البلاد في بداية شتاء ضبابي. وقد صرنا نلتقي كثيرا للتباحث بالفكرة التي ولدت كبيرة وفرضت نفسها على أحاديثنا ولقاءاتنا. كنت أحدثها عن اعجابي بجمالها وكيف لم ألاحظه سنوات. كانت تجيب بغرور فتاة جميله عادية لكن بالوقت نفسه كانت تلك المملوءة علما ومعرفة وسعة افق. تسمع إطراء لجمالها

تبتهج بحياء ملأ الجو المحبط بنا عبقا فاتناً آخاذاً. توقفنا عن الكلام فجأة. صمتنا طويلاً. التفت لأسألها ماذا قررت وإذ بها تقول قبل ان أتكلم. نعم أوافق.

لم نحتج لكثير وقت. في اليوم نفسه ذهبنا الى سفارتنا هناك لنسأل عن كيفية توثيق زواجنا. ضحك المسئول وبارك لنا وقال سنقوم بكل ما يلزم فقط عليكما تحديد اليوم والساعة والأشياء المتعارف عليها. قلنا بصوت واحد اليوم.

تزوجنا بذلك اليوم نفسه صديقاي واقفان يشهدان أغرب زواج تم أمامها. فقد انحنيت أمام عروسي المرتدية ثوبا ورديا وتتوشح بشال من الدانتيل الوردي المحاط بورود زهرية وبيضاء مربوطة بخيط من الحرير سحبته وربطته حول عنقي وقالت بدلال:

: هل ترضى بعبودية كاملة لحياة زوجية مشتركه بيننا لا يفصمها الا الموت؟

: نعم أرضى.

البستني خاتمها والبستها خاتمي.

بدخولنا سفارة بلدي كان بانتظارنا شيخ انحنيت امامه ونطقت بالشهادتين بصوت عال وبلغتي الأصيلة وتلوت بعض آيات من القران تلك التي تقدس العلاقة الزوجية. تقدمت ندى ونطقت بالشهادتين همست نعم انا مسلمة لكنه يسعدني ان أعلنه لأمامكم لأنه السبب الذي ربطني بأستاذ جليل الى الأبد.

بدأت حياة كل منا تختلف كليا عما كانت قبل الارتباط. تقبلناها بشغف وبسرعة. دون شعور بالغرابة، بان هناك شخص سيشاركك حياتك، بيتك، غرفة نومك، كأننا خلقنا معاً. اكتفى كل منا بالآخر.

لا أنكر أنني أصبحت فضولياً أفتش بقلوب الأشخاص قبل هيئتهم سواء كان شابا ام شابة. مجتهد او متسكع. طالبا العلم لأجل العلم وليس مجرد علامات ونجاح ورسوب. وانغمسنا بالحياة من جديد لكن دون رتابة دون ملل نبحث ونتقصى ونستوضح عن أمور ديننا الذي شغلنا. ونحصل على ترقيات وجوائز وحوافز ونجاحات تلو نجاحات. بانتهاء دراسات ندى رزقنا الله ابننا الأول تقي الدين وابنتنا عائشة.

سنوات حلوة عشناها معاً في لندن، هادئة مثمرة. همنا مواصلة البحث في الموضوع الذي جمع بيننا. آية قرآنية اشعلت كياننا. وآية أخرى فعلت فعلها. وأخرى لخصت معنى وجودنا حياتنا وموتنا. الأهم. لماذا نحن؟ انا وهي؟ هل اجتبانا خالقنا، اصطفانا، اختارنا؟ هل وجدنا كفء لحمل الأمانة؟ قلت لندى:

: هل قرأت عن طرق وصول معتقد ما، خاصة الدين واليقين؟

هزت رأسها وقلبت شفتيها نافيه. فقلت:

: يتم ذلك عن طريق النقل من الرواة، عن طريق قراءة موروث اسلافنا. أو هداية سماوية كحالنا.

هزت رأسها موافقة بسعادة غير عادية كأنها تقرأ افكاري وتحبها. آخر ليلة نمت في بيتي ملحدا، وعازبا، وعازما على قضاء بقية عمري غارقا في الأبحاث والدراسات، أمهر توقيعي على رسالات انجزها طالب جديد لحمل لقب دكتور. في اليوم التالي ملأ نفسي مشروع إيمان كبير.

: كيف تفسر ما جرى يا استاذي؟

: هل هناك تفسير أكثر من أنني استجبت بسرعة الصاروخ بنظرتي لعمق عينيك. هل يمكنني ان أقول رأيت الله فيهما منتظرا ردة فعلي؟ لماذا هربت من الموقف الحميم بيني وبين الله وانطلقت ممسكا بكف انسانة لم يكن بيني وبينها أي ود؟ بل كنت لا تطيقين الاقتراب مني. نقلوا لي مرات رأيك فيّ كأستاذ صعب وشرس. لا يقدر انه مشرف على رسالة طالبة علم حقيقية ويتذكر اسمها وملامحها وملاحتها. أوف مني كنت فعلا صعب وشرس. لكن حين ارسلك الله الي برسالته رأيت كم أحظى بثقتك لتأتمنيني على سرك واشاركك في ضجيج قلبك. بعد انطلاق شرارة بمعاني آية جليلة استقرت في عمقك. فهمت أن ما اعتراني اعتراك. تيار كهربائي مس منا الروح. ليس خوفا ولا ضعفا بل كان اعتزازا لا مزيد عليه. سنوات وأنا أجاهد لأتفهم معنى لهذا الحدث العظيم. كلما طرأ سؤال على خيالي أكبّته، الجمه. اريد وقتا أطول لأتعلمه وادعو به بأمانة.

سؤال تزعم كل الأسئلة" كيف تحمّل الرسل التكليف" خنقت السؤال. ما أدراني انه تكليف. أ أكلف بأمر جلل كهذا وأنا ابعد ما أكون عنه؟

امسكت بيدك لأطمئنك، فاذا بي بحاجة للاطمئنان أكثر منك. حلقنا سويا بين ارض وسماء. احتفلنا بمولودنا بإرهاق بدننا حتى ارتمينا على ارض الله الرحبة. منهكي القوى. لم نعرف ان كان هروبنا من او هروبنا الى. صبغة الله.

: لا تنسى يا مينا أول ليلة في بيتنا كيف صلينا أول فرض بحياتنا بعد زواجنا كانت صلاة العشاء. لا أذكر انني تعلمت أصول الصلاة من أحد، نعم قرأت عنها، نعم رأيت مصلين. اريدها كامله متقنة. وقفنا بخشوع بين يدي الخالق. لا أذكر أننا نوينا الصلاة وقتها دخلنا بها مباشرة وكأن معنا مرشد. ركعنا، سجدنا،

بالفاتحة فقط. دعونا، شكرنا، بكينا. رفعنا جسدينا من سجودهما وأقعينا على أصابع اقدامنا وتشهدنا. حلقت روحينا. نظر كل منا لآخر بذهول. سألنا بعضنا السؤال ذاته في اللحظة ذاتها:

: هل كنت تعرف صلاة الإسلام؟

هززت رأسي بالنفي وأنت كذلك. شهقت وبكت وضحكت وطال الوقت لم أعد أعرف ان كان ضحكا أم بكاء أم استجارة. اختلط دموعنا بضحكنا. وقفت. درت حول نفسك جذلاً ذكرتني بالحال الذي يصل اليه الدراويش. ارتمت بجانبي بسعادة طاغية سرعان ما انتقلت إليّ.

لا يستدعي الأمر شرح كيف كانت حياتنا بعد هذا الحدث. لم نختلف مرة إلا والقرآن الحكم بيننا. في جلساتنا التي خصصناها لحفظ القران، كنا أستاذ وتلميذة. تحاول ان تسعدني باستسلامها وإنصاتها. كانت تعرف انها أكثر مني دراية بالدين كونها مسلمة انشغلنا معا بتعلم الفروض وحفظ سريع لبعض السور القصيرة للصلاة. في الصلاة تتراجعين خطوتين للورا فرحة. ابدأ الصلاة يا امام.

هل كل من عرف الله عاش مثلما عشنا؟ هل أحس كل مؤمن بما نحسه؟ هل تغمره فرحة غامرة كلما قام بفريضة؟ كنا من قبل ذلك نعرف ان لكل مجتهد نصيب اما الآن فصرنا متأكديّن من ذلك نراه ونحسه ونعيشه.

بتجاوز تقي الدين وعائشة مرحلة الطفولة ومرحلة الدراسة الابتدائية قررنا العودة لموطننا الأصلي. لنتيح لهما فرصة التعرف على عاداتنا وبلادنا وعلى من هم مثلنا، أعني ممن يؤمنون بما نؤمن. واثقين أننا سنعيش بحريتنا الكاملة. نمارس حياتنا وسلوكياتنا بقناعاتنا الجديدة.

كلما اجتمعنا بأغراب يسألوننا السؤال ذاته. لماذا تحولتما عن دينكما. لا شعوريا نبحث في الوجوه التي تجالسنا وتسألنا، عن شيء من نور الهداية. أو البشارة. أو الشرارة التي خصصنا بها الله. نبحث عن تنعم نفوسهم واستقرار قلوبهم وتأنس روحهم. كنا على ثقة مطلقة انهم المفروض هم في رعاية وكفالة رب العزة الكبير المتعال فلا نرى غير فضول مقيت لا يستحق منا الشرح والتعليل. ما زالت الشهادة في قلبينا رغم مرور السنين.

أول حوار دار بيننا وبين ابننا واخته كان رائعا ومجدياً. سألني لماذا ازجره إذا تقاعس عن الصلاة في وقتها. أحيانا يصل بي الأمر حد الغضب. جلسنا نشرح ونرد على السؤال الصعب. كنا نعرف احساسنا ومشاعرنا والتزامنا، لكن كيف نحوله لكلمات مقنعة لشبابنا ليحترموا معنى الالتزام. قالت ندى:

: هل هناك شك بنوايانا بأننا نبغي لكما كل خير؟

: ابدا ولا لثانية واحدة.

: نحن نختار لكما الأفضل تماما كما يفعل كل آباء الدنيا منذ وجدتما بيننا.

: أكيد انتما والدان رائعان.

قلت بدوري:

: لكنك لم تسألنا لماذا أرسلناكما الى أفضل المدارس للتعلم.

: أردتما لنا ان نتعلم ونحصن بالعلم لمواجهة الحياة بكل ما فيها. بحكمة وتبصر.

: هناك يا بني حياة أخرى ستنتهي حياتنا الأولى اليها. حياة تحاسب وتعاقب وتجازي على كل اعمالنا في الدنيا، هل تتخيلان أننا سنترككما تدخلانها وتتقدمان لامتحاناتها وهي الأكثر أهمية دون تحصينكما بالعلم والمعرفة.

: هل يفعل ذلك كل الآباء.

قلت:

: لا أعرف تماما. اعتقد ان كل أم واب يعطي أولادهم الأفضل ليكونوا صالحين. في هذه الدنيا والدنيا الثانية. لكن كل على قدر معرفته وقدراته.

قالت ندى:

: إذا كانا مؤمنين ويعرفون تماما أن عليهم تزويد أولادهم بكل ما يدرأ عنهم الشر والأذى. نحن لم يعلماننا والدينا الا ما كانا يعتقدان أنه الأفضل، فمنّ الله علينا بنعمة هل نحبسها عنكما.

صمتا ولم يحرا جواباً. قلت يا تقي الدين:

: مسرور أن مثل هذه الأسئلة تدور بعقلك هذا يعني ان هناك صراع بين ما هو متعارف عليه وما هو مستجد، وهذا طبيعي لأولادنا أنا وندى. اعتقد اننا أخذنا شيئا من والدينا. غرسوا فينا غرسة خير. أتاح الله لها تربة خصبة فأينعت وربت. يقولون الإناء ينضح بما فيه. علينا بدورنا زرع في قلبيكما مثل تلك الغرسة وستزهر وتربو بإذن الله.

ابتدأ عهدا جديدا وقد افضينا الى ولدينا الغاليين بما علينا تعليمه لهما بالحماس ذاته بالإيمان ذاته. بتعهدنا ذاته. لكن غيرهما لا. لن نكره أحد ممن سنتعامل معهم

على ما حبانا به الله. لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي. يترجم لفعل لإخلاص. لرحمة. نتشارك ونقدر ظروف مريض او محزون او محروم. ملتزمين بقول الله تعالى لرسوله "لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" لعل ومنذ بداية حياتنا كانت تصرفاتنا وطرق معيشتنا كانت تحمل سمات دين. لقد كنا صفحة متوجسة في كتاب الكون طويت. فتحت أخرى الى يوم الدين.

سألنا شاب فطن من الجالسين:

: الم تجدوا صعوبة بالاحتفاظ لأنفسكم بمثل هذه الهداية بين مسلمين ومسيحيين؟ الم ترونها تستحق توصيلها لغيركم؟

: ولماذا نفعل؟ الرب موجود وباق. لماذا والدين اتى قبلنا وسيبقى بعدنا؟ وهو القائل لوشاء ربك لأنزل عليهم آية ظلت أعناقهم لها شاخصة. أو لو شاء لأجعلكم امة واحدة. أنك لا تهتدي من أحببت لكن الله يهدي من يشاء. بداية لا ننكر ان صعوبات جمة تدفقت على حياتنا الهادئة المطمئنة حين تعاملنا مع المسلمين. آسف جدا لما أقول فقد اوجع قلبينا ما سأقوله الآن. الومض الذي اخترق جلودنا. واستقر بعمقنا بقلبينا بعقلنا. وجدناه باهتاً كأنه لم يلامس جلودهم. أو لعله لامسها وفتر، ام خرج مثلما دخل. لم يعط بحق قيمته العظيمة لتعديل التفكير والسلوك. الشكر لله على التكريم.

كنا أحيانا نتساءل متى سنجد من تذوق معنى الدين المحمدي الحقيقي؟ هل أحسوا بعظمة كلام الكتاب الكريم؟ أيحسونها طازجة بين صفحاته. تنتظر لحظة فريدة لتخترق القلاع والسدود والجلد الحي. لا ننكر مدى احترامهم واجلالهم للكتاب الكريم. يحرصون على اقتنائه نعم. يتباركون بوجوده الضروري

في بيوتهم نعم. اكاد اظلمهم إذا عممت. تمنيت لو تعلموه وتفهموه هم اهله وبلغتهم. تمنينا أن نجد صدوراً رحبة ملآى به. تلاميذ نجباء، لرسول خلقه القرآن.

ندى ردت كما ترد دائما على تساؤلاتي حتى ولو لم ابح بها:

: قال سبحانه في كتابه الكريم. بوضوح وبلا تضليل "ولن تجد اكثرهم مؤمنين" الدنيا دنيا. والجنة ثواب. فليجدّ كل منا وان كان الجمع لاه.

مع تداول الأيام التي صارت سنوات آن لي أن أدخل بروايتي عن اشخاص بعينهم. عدت للبداية.

استقر بنا المقام. ودورة الحياة تأخذ مجراها بيننا وبين من حولنا والاستغراق بأعمالنا. رحل معظمهم عن البيت وبقي معنا نضال عبيدي واسرته. مرت سنوات منذ التقينا فصرنا أسرة واحدة. احتلوا مكانا كبيرا في قلوبنا تبادلنا محبة بمحبة واحتراما باحترام.

لأعرفكم على ابطال قصتي. نضال الاب. كان يقاربني في العمر. مر بمرحلة الكهولة بسرعة خاطفة مذهله حتى صار يبدو يكبرني بعدة سنوات. رجل شهم بمعنى الكلمة. له نصيب كبير من اسمه. كان مناضلا في بداية شبابه ضد الإنكليز المستعمرين لبلاده. هدته سنوات الهجرة والحزن على ما ضاع. ينهك نفسه بعمل شاق ليعيل اسرته مما عجّل بانتهاء فترة كهولته وبدا شيخاً مطفأ الروح، كليل. زوجته الست مريم زوجة رائعة وأم حكيمة. بناته الثلاث صرن صبايا على وشك الزواج. رشاد ابنه الأصغر والوحيد في الثانوية.

يعيش معهم خالهم كريم الشاب الواعي المثقف وأمه واخته. لم يكن اقل من زوج شقيقته نبلا وتضحية. استحق تقديرنا ومحبتنا. كان في بداية مرحلته الجامعية. الشيء الملحوظ لكل من عاشر شعب فلسطين المغتصبة أن التعليم عند معظمهم صار أساسا وهدف. ربما ضحوا بلقمتهم في سبيل تعليم أبنائهم. كان كريم يحلم بعد أنهاء دراسته الجامعية الذهاب الى إنكلترا ليكمل تعليمة العالي.

هذا الانسان الجميل كان مفتونا بأولاد أخته وخاصة أكبرهم علياء. يحبها ويحترمها ولا يفتر بالحديث عنها. يسميها الملاك. إذا لاح في عينيك تساؤل ما

يقول: لا تستغرب. هذه الانسانة الرائعة ضحت بتتمة تعليمها مكتفية بالتعليم الابتدائي. تعلمت مهنة الخياطة عند جارتهم لمساعدة والدها، أدركت رغم صغر سنها، معنى ان الانسان المهّجر عليه البدء من تحت الصفر. كانت الأقرب والأعز لخالها. يأتيها بالكتب والجرائد والمجلات. دائما يردد جملته. اتركي فسحة من يومك للقراءة. تابعي اخبار العالم لتعرفي اخبار بلادك. تابعي اخبار المهجّرين أمثالك. لا تنسي ابدا من انت. ولا اين كنت. ولا اين أصبحت. الماضي جزء من مستقبلك. تهز راسها المرفوع بشموخ بوعد كالقسم. لن تنسى.

عرفتم أن بيتهم بيتنا القديم. بيت طفولتي ومطلع شبابي. عاد له رونقه وجماله بعد حملة الترميم التي قامت بها ندى أرجعت بهجته التي كان عليها قبل ستة عقود. صار عروس الشارع من جديد في الحارة القديمة في أقدم عاصمة تاريخيا.

عشقت ندى المكان بمجرد ان وطئت قدماها أرضه. تنقلت بالبناء الشامخ من مكان لآخر، من طابق الى آخر. وضعت الخطط لإعادة تأهيله للسكنى بحماس غريب. شهور وجعلت منه شيئا جديدا. هدمت ما هدمت وأضافت ما اضافت ولونت الجدران كما شاءت. كونها فنانة حرصت بكل امانه على المظهر الخارجي للبيت الممتد حتى نهاية الحارة. حرصت على الاحتفاظ بشكله العام، اجنحة طيور نوارس متلاصقة متلاحقة.

خصصت لكل من تقي الدين وعائشة غرف مع ملحقاتها. جددت عيادة أبي ومشفاه الصغير. غيرت الأسرة في جناح الإقامة المؤقتة لحالات الطوارئ لقضاء يوم أو ليله للرعاية التامة. جزء آخر انتقته الأقرب الى الطريق العام وجعلته مشغلا لإبداعاتها الفنية في تصميم الأزياء الأنيقة للسيدات. بدت طفرة

غريبة أن تهتم بملايس السيدات الراقيات دكتوره متخصصة في إعادة تأهيل سلوكيات الناس المنحرفة عن جادة الصواب لظروف قهرية. شتان ما بين اختصاصين. طب وفن. حاسة رائعة وإبداع ملابس مترفة تلفت الانتباه.

أخذت امورنا شيئا فشيئا في الاستقرار. البيت أخذ زينته ورونقه من جديد. بثت فيه شيء من روحها الحلوة. عاد كما كان أيام ابي وأمي. شامخا بأحجاره البارزة من الخارج والداخل كأنه أحد بيوت العبادة، يتحدى الزمان.

اقامت ندى حفل صغير لتعريف المجتمع الجديد بنا. انا كطبيب نفسي متخصص. عرفت عيادتي اقبالاً ممتازا وأنا الذي كنت اظن ان الذهاب الى طبيب نفسي في بلادنا، شيء غير مألوف لأنهم يخلطون بينه وبين الأمراض العقلية. تعلمنا في غربتنا ان هذا شيئا عادي في البلاد المتحضرة. من الضروري ان يكون لكل بيت مستشار نفسي وقانوني. شاركتني ندى العيادة كمرشدة العلاج النفسي. ربما كانت السبب لرواج العيادة. استمرت بأبحاثها في اللغة العربية وآدابها والفقه الإسلامي.

ندى لم ترتد الحجاب لأنها في العادة كانت حريصة على ارتداء ثياباً محتشمة. تليق بمعتقداتها ومكانتها الاجتماعية. هكذا هي منذ عرفتها طالبة جامعية. تتقن لغات عديدة متحمسة للمرأة بأنها كفء لأي عمل ولأي منصب ولأي مسئولية. لم تكن بحاجة للتزين فجمالها ساحر طبيعي زاده الايمان رونقاً وبهاء. رغم جمالها وعلمها وعلو قامتها متواضعة رصينة. من حسن حظنا أحبنا سكان المنطقة بكاملها. تردد معارف ابي على بيتنا للزيارة ربما الجيل الثاني او الثالث. مرحبين وفرحين بعودتنا دون معرفة شخصية سابقة. يكفي انتي الدكتور مينا ابن

الدكتور عمانوئيل وأقيم في المكان الذي كان يسكنه وبالعيادة ذاتها. كانت جلستنا الأولى مع بعض منهم متنوعي الثقافات والأعمار والانتماء ممتعة. جيراني لم يتخلوا عن توجسهم من احتمال ان اطلب منهم المغادرة بعد أن أصبح البيت قصرا جميلا يباهي المنطقة كلها. في احدى جلساتنا قال كبيرهم.

: دكتور مينا انت خير من يراعي ظروفنا. ويقدّر وضعنا. فقد اصابكم ما اصابنا من ترويع وتهجير وفرار قسري. فلنتكلم بصراحة. لم نسمع منك خبراً لا خير ا ولا شر وقد بدأتم بالترميم دون الرجوع الينا. وانهيتموها دون سؤالنا ان كنت قادرين على المشاركة بتكلفة إعمار جديد. في السابق قامت كل عائلة بالإصلاحات اللازمة للجزء الذي تسكنه، ليصبح صالحا للسكن.

: ما هذا الكلام يا أخي طبعا أنتم مرحب بكم هذا بيتكم كما هو بيتنا. لن نطالبكم بالمشاركة المادية. بل نطالبكم بالتمتع بما قمنا به صار اجمل واكثر راحة وهذا ما كان البيت يحتاجه منذ عقود.

قال أحدهم وقد كانت متوسط العمر:

: عفوا. هذا الجزء من البيت مختلف عن بقية الأجنحة. التجديدات الجديدة غيرت معالمه التي كان عليها. الركن هناك يشبه مسجد صار بيت مسلم.

: الحمد لله نحن مؤمنون بدين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

انفرجت أساريرهم، وارتياح طل من عيونهم أكملت مازحا:

: ألا تعتقدون انه من الأفضل إذا بدلناه بعمارة تتسع للجميع وتكونوا مستأجرين او مالكين؟

رأيت رؤوسهم ترتمي فوق صدورهم وهمّ سكن عيونهم. قال الكبير:

: نحن هنا منذ أكثر من عشر سنوات، كبر أولادنا هنا، ومات شيوخنا هنا. تزوج من تزوج. عاش هنا من أصيب بعاهة خلفها له الحرب. صدق يا رجل بالله. لقد امتلأ قلبي حزنا يشبه ما عشناه بعد هجرتنا. ودخل رأسي كثير من الشكوك والتساؤل بعد بدء إجراءاتكم للإصلاح قامت بها الدكتورة. هل سنشرد من جديد، نهاجر من جديد. قضيتنا عالقة بين يدي مؤسسات ولجان ومجالس المفروض انها تعنى بهموم الانسان المتضرر امثالنا. والله يا أخي لا نعول عليهم أي خير بل نتشكك بنزاهتها، لا تعطي سوى وعود. لكن وكما يقولون في الامثال، لن يموت حق وراءه مطالب. لن نرضى البقاء هكذا في العراء. هكذا غربا وهكذا تعساء.

ربت على كتفه قائلاً:

: لا تقلق يا أخي كنت امازحكم. وصلتم للمكان الصح وللشخص الصح، ثقوا أنكم في فكري وقلبي وانسوا الموضوع.

بتنا انا وندى نفكر. ليس بطرق لاستعادة بيت العائلة بالاستفادة منه ماديا كما شرح لنا وكيل أملاكي. شيء مثل هذا قد يغري كثيرين من أصحاب الضمائر المغيبة. هم من قيل فيهم "يحبون المال حبا جماً"

لأول مرة نتعانق أنا وندى إثر رفع رؤوسنا من سجود وجمينا عن الأرض بحمد وشكر لمن وهبنا نعمة الإيمان. وجمعنا على الهدى والحب الذي ملأ كل ما حولنا. ولدانا مجتهدان. جادان بطلب العلم. نرى رؤية العين يد الله الحامية لهما من عبث الدنيا المجنون. وجشع الجشعون التي لا تعرف الله. طاف السؤال

القديم الجديد عن هؤلاء إذا كانوا لا يحبون الله وهو الرحيم. فكيف لا يخافوه وهو القهار العظيم.

بتنا ليلتنا نتهامس. متلاصقان لا نعرف من يتكلم. انا ام تلك المحبوبة. جلابة الخير لحياتي. اعترفنا بأننا لا بد وسنمتحن. وهذا البيت امتحاننا الأول. سنكون على مستوى تعاليم ديننا وايماننا. ما زرعه الله في قلبينا ما زال يشع كجوهرة نادره. لم يعتريه ملل او اعتياد أو دنس بشك. همست حبيبتي هو ذاك يا مينا. سنوات تمر بنا وامورنا الحياتية تسير بمجراها الطبيعي نعيش في الحارة مع عائلة نضال الذين أصبحوا بمنزلة أهلي.

سنوات مضت كعادتها ونحن ايضاً كعادتنا ننسى كل ما هو حلو ونتذكر المرار. ذات ليلة طرق بابنا الرجل المسن أبو عبد الله جار نضال بلباسه التقليدي، كوفيته على رأسه تتدلى بلا عناية كأنما ارتداها على عجل. وبرفقته علياء كبرى بنات نضال، تبكي بحرقة. تحتضن بكفيها وجهها المشتعل. رغم احمرار وجنتيها كان فزع الموت واضحا عليها. **كبت** على يدي قائلة:

: ارجوك يا دكتور تعال معي. يجب ان تقول للجميع ان ابي لم يمت. ستعالجه ويقوم من رقدته. هناك في بيتنا يقولون ابي مات. لا تصدقهم. ابي لن يتركني. لن يترك أولاده المهجرين يتامى. ابي يعرف انه ليس لنا في الدنيا سواه. أمي قالت لي بأنني قتلته بكلامي الذي قلته وانا ما قصدت سوى طمأنته بأننا سنكون بخير. هيا اتوسل اليك أسرع قبل ان يأخذوه الى المشفى ولا يعود.

لفت نظري شبابها المتفتح لأول مرة. عشر سنوات مرت وأنا أراها تلك الطفلة التي كانت يوم تعرفنا عليهم من عشر سنين مضت. كبرت؟ متى كبرت؟ متى صارت بهذه العزيمة والقوة؟ قلت رافعا وجهها ناظرا اليها بحنو وعطف:

: عليا اهدأي يا ابنتي سنذهب حالا. ماذا قلت له؟

: فرغنا من تناول الغداء من أكلة أبي المفضلة ولم يأكل منها لقمة واحدة. وزع الطعام علينا فردا فردا سألته امي لماذا لم تأكل يا أبا رشاد الم تعجبك؟ تكلف ابتسامة بل وضحكة من وراء القلب المجهد. أشار الى صحوننا الفارغة نحن أولاده. كل هذا يا مريم ولم آكل. انسحب بهدوء ومضى الى غرفته ليستريح. لم يطمئن قلبي بقيت على باب الغرفة انتظره لأحضر له القهوة. بعد الغروب بقليل صحا وجلس يحتسي قهوته بصمت وشرود سألته مرارا عن حاله لم يرد. بعد قليل نظر الي وقال:

: عليا ابنتي. لقد قدمت استقالتي صباح اليوم للمسئولين. بناء على نصيحة مديري المباشر. فهذه الطريقة الوحيدة التي يستطيع تأمين معاش التقاعد لي. فأنا كما تعلمين لم أصل الى السن التي يقال فيها الموظف للتقاعد ليستحق المعاش. اليهود لم يهجرونا فقط بل كسروا أيضاً عظامنا. ألم ظهري ورجلي جعلاني غير قادر على العمل. الشهر القادم سنعيش على راتبك.

احتضنته واكدت ان الله لن يخذلنا. وسأجد عملا أسدد المورد المقطوع.

كانت تتكلم بسرعة وتشدني من يدي. ساحبة بكل قواها جسدي المتراكض خلف صباها. بالكاد امهلتني حتى اتناول من ندى شنطة الطوارئ والروب لأحتمي به من برد الليل وانطلقنا الى البيت الكبير.

أول مرة ادخل الى غرف النوم في البيت، حيث كنت اجول به متى اشاء بالنهار والليل وانا شابا مراهقا يتحدى العالم. ها أنا أسير في اروقته الطويلة مرتجفا خائفا ان يكون الرجل الذي احببته من كل قلبي قد مات فعلا. أو يحتضر. استقبلنا لفيف من نساء بهيئات غريبة يشوحن ويندبن والرجل مدد امامهن ملقى على وجهه بوشاح ابيض. سمعت صوت أبا عبد الله يقول:

: آسفين على ازعاجك دكتور.

تبسمت مشجعا لأهون عليهم المصاب. فالطبيب بطريقته في مواجهة المصاب يبث الصبر لتحمل الحدث الجلل بإيمان كبير. الحدث فعلاً جلل. هزنا من الأعماق كما هز الأسرة الصديقة. وعليا الصبية على وجه الخصوص. ترنو نحوي بعينين زائغتين كمن ينتظر النطق بحكم بالإعدام. نظرت الى الرجل المدد على الأرض، دفعت النساء للوراء، رفعت إحداهن الغطاء عن الوجه الجامد المصفر فأدركت الحقيقة ارتجفت. حزن قطّع أنفاسي. طلبت من الواقف امامي ان يرسل عليا الى بيتي. رفضت صارخة لن اترك ابي. سحبت يدها. واندفعت فوق ابيها وتشبثت برقبته. رفعت رأسها نحوي وهي تنوح ابي متجمد من البرد. سأحضر له قربة ماء ساخن ليدفأ جسده. طلبت استدعاء ندى فلبت وتقدمت للمساعدة. احتوتنا جميعا. همست لعليا وأمها صدقوني المصاب مصابنا كلنا. وصفه ربنا انه مصيبة. لا نملك امامها الا الصبر والتسلح بالإيمان. ذهب. لبى نداء ربه. علينا قبول مشيئة الله. لا حول ولا قوة الا بالله.

لازمنا الأسرة حتى انتهينا من المراسم. كان اصعبها خروج الجثة من البيت وعلياء متشبثة به. لم يجرؤ أحد الاقتراب منها لكنني استطعت مع ندى ابعادها.

صوت عويلها يملأ المكان. يصل الى الشارع الهادئ فالناس **صامته واجمه.** الجميع يعرف شدة تعلق عليا بأبيها. كانوا يبكون من عويلها، كلامها موجع. تنوح وتندب تقدم الرجل المسن وبأدب استأذن ان يكلمها فهو العم الذي يقدره الجميع. كان دون الجميع رابط القلب هادئ صابر عارف. دخل معه خالها كريم مرددين لا حول ولا قوة الا بالله، ان لله وانا اليه راجعون.

صراخ علياء ملأ وجودي. كاد يقتلني. مات. ابي مات. ابي مات. لماذا لم تنقذه يا دكتور. اخترقت الجمع. ارتمت على صدري. بخوار موجع تهمس لن ادعه يروح ويتركني. سأذهب معه. لماذا تركته يموت. لن أحبك ابدا بعد اليوم يا دكتور مينا. هل صدقت ان كلماتي قتلته. قل لي أخبرني. لم أكن الابنة البارة بأبي فاحتقرتني.

: اهدأي حبيتي. هذه ساعة القلوب المؤمنة بالله وبمشيئته. تحلى بالصبر يا عليا. أصيب بسكته دماغية مفاجأة بسبب ارتفاع مفاجئ لضغط الدم لن ينقذه أحد.

احطت كتفها بذراعي ضممتها الى صدري وهمست:

: انها ساعته يا حبيبتي. لن تتأخر ساعة ولم تتقدم. لك ان تفخري بهذا الأب العظيم الذي كافح ليعيل اسرته ليومه الأخير. استقال في الصباح ومات بالليل. كم عانى. أنا انحني اجلالا واكبار له.

هدأت ولاذت بحضني تشنج بصمت يائس. قالت الأم:

: منذ شهرين وهو متعب يمشي بصعوبة لكنه كابر. يذهب للعمل ويعود منه في الوقت المحدد. غير عابئ بالألم بظهره ولا في الساق المصابة. يرتمي بمجرد وصوله كالخرقة. لا يشتهي الأكل ولا يستطيع النوم ومع ذلك في صباح اليوم التالي يستعد من جديد ويعود للعمل.

بضعة أسابيع انطوت، ما زال المعارف والأقارب تتردد على البيت. لم افهم معنى لهذا الكم من الزائرين، بهذه الزيارات المتكررة، تفيد اهل الميت ام تنكأ جراحهم. أنا شخصيا حين استقبل جماعة منهم وأودع جماعة كان قلبي ينفطر من حرارة الكلمات التي يهمسون بها. تمنيت لو تركوهم يواسون بعضهم البعض بطريقتهم الخاصة فكل أدرى بكيفية حماية نفسه من الألم. سألت لترطيب الجو:

: لماذا لم تعالج الساق كل هذه السنوات الطوال؟

أجاب الخال:

: لأنه لم يتوفر له علاج مبكر مثل معظم الجرحى آنذاك.

: أين. أعني متى كان ذلك؟

: كان ذلك أيام النكبة. في آخر أيام مقاومتنا لليهود. كل المؤشرات كانت تؤكد ان مدينتنا سقطت بأيدي المعتدين. ولم يعد بالإمكان عمل شيء سوى الانسحاب. كان ذلك منتصف شهر أيار من سنة النكبة. يوم الهزيمة الكبرى يوم البيع والشراء. باعونا وأعلن قيام الدولة اليهودية. اكتظت شوارع مدينتنا بالفارين. يركضون بملابس نومهم نحو المجهول مذعورين، فزعين خائفين. تصطدم أكتافهم بأكتاف المبتهجين بإعلان دولتهم الهجينة على ارض غريبة لا تعرفهم ولا

تعرف لماذا هم هنا يرقصون على أغاني غريبة، لا تفهم لغتهم ولا معنى أغاني تغور في أعماق التربة وتدفن هناك.

كان نضال كان يقف على تلة الجبل يناوش المجندين المدججين بالسلاح. أصيب بعدة طلقات وبقي صامدا في مكانه يحمي جموع الفارين النازفة دماؤهم فتلمه الأرض مثل أم مكلومة.

كان يراهم من عل وهم يتجهون نحو الخيار المتاح لهم لم يفهم لماذا اغلقوا كل الطرق وتركوا هذا الذي لم يكن يعرف الى اين يؤدي طريق حدده اليهود للفارين. أدرك أنهم لا يريدون قتلهم بل اجبارهم على الفرار، فقد قتلوا الكثيرين فالجثث مترامية بكل الجهات.

ظل أبو رشاد واقفا مكانه يشاغل المهاجمين. ناديته انتهى الأمر. لم يرد، استمر مكانه حتى القوا القبض عليه وحجزوه أيام طويله. بدأ جرحه بالتقيح، وارتفعت ودرجة حرارته وفقد الوعي، حملوه الى مشارف اول بلدة لبنانية وتركوه مغمى عليه ليموت هناك. أنقذه أحد رعيان بنت جبيل. وجدوه بلا حراك والذباب تنهش الجرح فتزيده بلاء فوق البلاء. عالجوه بطريقتهم. خسر ساقه.

: حكمة الله. لله في خلقه شؤون. انه شهيد مثل ابي.

قالت عليا بأسى:

: مات ابي. ونحن هكذا نتنفس ونتحدث، نأكل وننام ونقوم. كأن شيئا لم يكن. هو كان لا يأكل قبل ان نأكل لا ينام قبل ان ننام. لم يتركني اعاني من الشلل وانا صغيرة. امي فعلت. أمي يئست. استسلمت لعدم جدوى وصفات

الجيران. لكن أبي لم يسكت لم ييأس. ظل يبحث. علم بطبيب متخصص بمثل حالتي فأخذني اليه في القدس وفعلا تعافيت. مشيتي تشي بما حصل في طفولتي لكنني امشي. لم يتركني مقعدة. حين عاد يعرج سألته بطفولة:

: ابي لماذا لم تذهب الى القدس عند الطبيب الذي عالجني؟

أجابني بقلب مفطور فهمته:

: الطبيب الذي عالجك كان فلسطينيا يهوديا، لكنه الآن يهودي صهيوني. فكيف يعالجني وهو واحد من الذين يريدون قتلي.

لا أحد يعرف اين غرست تلك العبارة من نفسي ولا كيف. انا نفسي ظننت أنني نسيتها. واذ بها باقية تسري بدمي، وبعقلي، منذ سمعتها. بذرة صغيرة زرعت وصارت تكبر كلما كبرت. وتجيب إذا ما تساءلت. العجيب انني كلما قصصت فروعها المتشابكة بغية تحجيمها ليخف المها تغافلني وتزداد كثافة. بقيت عصية على التفسير، على المعنى، على التصنيف. لا تدخل تحت أي بند مما عرفنا وتعلمنا. والله لا أعرف لها مكان. كأنها تحت جلدي، تحت بند الظلم والعدوان. الدم والفداء. التضحيات والفشل. صارت عنوانا لما قبلناه من فواجع الحياة.

كأنها صارت جزء من تكويني. كلما رأيت بلاء جديدا تتوضح. كلما سمعت عن مصاعب اشعر بها أصعب. اسمع وأقرأ أشياء لا تصدق مع ذلك بقيت الأشد وجعاً. رغم كل ما ابتلينا فيه. ما يحيرني انه رغم انتزاعنا من بيوتنا وتشردنا. مازلنا في اجندة العالم المتوحش خطرا. عليهم قتلنا بشكل جماعي أو فردي. قرار ينفذونه كل يوم وبكل مكان بكل إصرار بكل وحشية. ابي حبيبي أحد الضحايا.

قالت هذه الكلمات جزافا وكأنها تحفظها عن ظهر قلب. صرت اتذكرها كطبيب نفسي كلما ذهبت لمعالجة الأم التي تنهار بدرجة مخيفة بعد كل عراك تفتعله الابنة الشابة عليا لتسيء لأمها. الحقيقة كنت أحار في فهم هذه العدوانية تجاه أمها. أتساءل كثيرا لأصل الى السبب. قد يكون لتلك النكبة والتهجير يد. انتبه لها جيدا وهي تحكي عن فترة طفولة عاشتها. أدركت ان الحديث معها يحتاج الى بصيرة وقوة ملاحظة واختيار الكلمات المناسبة.

كانت تقصيني عن همها المقيم بنفسها ويدمرها يأكلها. كلفت ندى بمتابعتها ومصاحبتها. ثم طلبت منها ان تحكي لي كل حوار يدور بينهما وخصوصا ما يتعلق بطفولتها. أكثر شيء كان يفرحني حين اسمع أنها كانت هادئة متأملة. تعيش حياتها بعنفوان شبابها. صارت ندى أقرب الناس الى قلبها وهذا ما كانت متعطشة لوجوده في حياتها.

نقلت لي ندى حوارا بينهما قالت عليا لندى مداعبة:

: ظننت أنك طبيبة. وإذ بي افاجأ باحترافك تصميم الأزياء بروعة واتقان.

: نعم انا متخصصة في علاج حالات نفسية تؤدي الى سلوكيات خاطئة.

: تعني مثل حالتي؟

: ابدا أنت زينة البنات كلهن أنا أحبك جداً. انت ذكية وطموحة تذكريني بنفسي قبل ان اتزوج من مينا. كانت لي هوايات كثيرة تتناطح بداخلي وأحتار أيهم الأهم. كانت أحلامي كثيرة، أحببت كل واحدة بتعشق، حرصت على اتقانها. هكذا علمني استاذي مينا. كان يتفانى لإتقان كل ما يتعلمه. معه ابتدأت

صفوف اللغة العربية. كان محط اعجاب البنات والصبيان يتزاحمون على حضور صفوفه. كنت مثلهم معجبة به لكنني بالوقت نفسه أغار منه. قدرته على التحصيل إضافة لقدرته على الاتقان جعلا منه اسطورة. يبدو انني لفت نظره لنبوغي وذكائي كما قال ذات مرة ولم يكررها ابدا كأني فجأة سقطت من حساباته. كان قد نصحني ان استغل هذا الشغف بالمزيد من المعرفة. بالدراسة الليلية في معاهد تعنى بالتثقيف بكافة المجالات. بحثت عنها وتوصلت لها والتحقت بداية بفصل الرسم. ملأ كل وقتي لكنني لم اكتف صرت التحق بفصل آخر وبعد بغيره. هناك تعلمت الرسم وتصميم الأزياء. حين اخبرتني إنك تمتهنين الخياطة وتعملين في مشغل وتتقاضين مرتبا. تشاورت مع مينا بأن نسرقك الى مشغلنا نتشارك انا اصمم وانت تنفذين.

: ليس هذا فقط. سرقت فنك وأحببته صار غاية وكان وسيلة للعيش.

حين حدثتني ندى ما دار بينها وبين علياء، فرحت انها وجدت طريقها لتعوض نقص تعليمها. فالعمل يعلم أكثر من الشهادات. كانت الحياة تسير بنا وبهم بطريقة رائعة. لكن هذا الهجوم الذي تشنه علياء على أمها المسكينة يوميا تقريبا كان همي الوحيد. تمنيت لو اتاحت لي فرصة للتحدث عن طفولتها من اجل علاجها. اتفقنا انا وندى، أن ما تفعله عليا بأمها بلا معنى وبلا مبرر.

نقلت ندى لي بعض التفاصيل فقد رأتها وهي تفتعل المشكلة. تدقق بكل شيء في البيت بعد عودتها من عملها. تراقب كل صغيرة وكبيرة لتثير زوبعة ترعب الجميع. كل يوم قصة جديدة. وكل مرة تنتهي بشكل مسرحي مأساوي. تركض بكل اتجاه وهي فاقدة ادراكها مهددة بأنها ستقتل نفسها. ترمي الأم نفسها

عليها بكل ثقلها لتتمكن من شدها إذا كانت في الشرفة. او إذا حملت قارورة الكاز تسكبها بسرعة فوق راسها. وما ان تنتهي عملية الإنقاذ حتى ترتمي الأم على الأرض لاهثة متوترة مذعورة. ترفع يدها بجهد لتمسك بيد ابنتها واعدة إياها مع ابتسامه حنونه ان كل شيء سيكون على يرام.

سألتني ندى:

: متى ستبدأ بمعالجة عليا. اعتقد انها مريضة.

: وانت ماذا تفعلين؟ هذا اختصاصك. اصبحتما صديقتين.

: هنا تكمن العلة لا تأخذ ما أقوله على محمل الجد. أحيانا اشعر بانها تعرض عني فأخاف ان تنهي علاقتنا إذا بقيت أحاول حماية الأم. لم اتوقف لكني لجأت لطريقة التعليق الهادئ الذي لا يحمل اتهاما. اظنها محتفظة بسرها لنفسها. مرة أقول لها هذا لا يجوز عند الله. مرة أخرى أقول لم يكن الأمر يستحق.

أحيانا أقول لنفسي لعله مجرد لفت النظر. اكتشف وهي تندب حظها بأنها تعاني شعورا بالاضطهاد وأنها مغلوبة على امرها. لا أحد يفهمها. حظها سيء ولا تستحق الحياة. اضمها. أؤكد لها ان الجميع يقدرونها بل ويفخرون بها. تهز راسها بأسف محير وتقول:

: قد لا تصدقين بأنني قدمت للجميع عصارة روحي بكل حب وتفان ولا اسمع كلمة شكر. من كان يمنحها القوة والقدرة على التحمل كان والدها وقد رحل. في احدى المرات تخلت عن حذرها وقالت: ليتها هي التي ماتت. تقصد أمها. فعزمت على اخبارك.

: احرصي على الود الذي بينكما. يجب ان تثق بأحد ولا أحد أفضل منك.

: هل تتذكر يوم سألتك هل تؤمن بالله وبالأديان فذهلت واحترت.

: وهل هذا ينسى؟ كم كان غريبا وجريئا، لم أطرحه على نفسي ابداً. اما الآن فأنا سأظل كل عمري اشكرك عليه فقد كان فاتحة لكل خير.

: ماذا؟ اجبتني بلا حماس ربما. وانت؟ هززت راسك بحيرة وأسى.

: لن أنسى أيضا كيف صرت تتفلسفين عليّ وانا أستاذك. قلت الاستعمار المتعاقب على بلادنا سنوات بعد سنوات. شغلنا بأمور بهموم الوطن. بهموم العيش الكريم. اللقمة والمسكن والأطفال والتعليم. ربما وضعت هذه ببرامجهم لنتلهى عن مأساتنا. امام ما جرى تبقى سخيفة وتافهة. لكنها ليست كذلك. هؤلاء الناس يتقنون كل شيء حتى الشر. سميته بلبلة أفكار. لم يأخذ الدين حيزا في عقولنا مع انه أساس. لماذا أذكرك بهذا الآن وقد أصبحنا على ما نحن عليه. فأنا أفكر أن أتحين فرصة تكون فيها علياء رائقة المزاج فأروي لها سرنا. هي متدينة رأيتها تصلي بخشوع. ورمضان له احتفالية خاصة بقلبها. لكنها مثل معظم الناس تنتظر شيئا ما. لعل قصتنا تقرب علياء من ربها أكثر.

: لا اعتقد ان مشكلتها هي بعدها عن الله. من وجهة نظري اراها ضحية طفولة تعسة. وظروف قاهرة احبطتها وهي على ما هي من فطنة وذكاء.

نعم بيتنا تلك النية بنفوسنا لكن لم ننتظر طويلاً. سرعان ما استنجدوا بي لعيادة الأم لتلك الحالة الطارئة التي تأتيها إثر خلاف من ابنتها علياء. كانت الأم تعاني صداعا مزمنا. لم يعد ينفع معه مسكن ما. صارت تحتاج لحقن المسكن

بالوريد. كنت سابقا قد اقترحت عليها اجراء صورة للرأس. ما ان سمعت عليا الاقتراح حتى انتفضت ووقفت. من مكانها تشير بأصبعها معنى الرفض. ثم اقتربت وهمست. ارجوك لا تقل لها هذا الكلام. قلت بإصرار:

: ليس هناك حالة مرضية مزمنة تأتي بلا سبب.

ابتعدت منزوية في مكانها المعتاد غاضبة. قالت ندى ترطب الأجواء:

: طالما جمعتنا هذه السهرة أود ان احكي لكم قصة حصلت معنا أنا ومينا. كان استاذي كما اخبرتكم. الحقيقة أنني لم أكن أعرف مشاعري نحوه سوى أنني أغار من قدراته الخارقة على التحصيل العملي. في قرارة نفسي كنت أنافسه بتكريس اوقاتي للدراسة. انتسبت لأكثر من كلية واحدة بعد أخرى. اختار مواد دراستي كالتي برع فيها لأتفوق عليه. شجعني. صفق لي كلما تجاوزت امتحانا ما. ساعدني في كل ما اغلق عليّ برحابة صدر. يبدو أنني لم أترك أي أثر في نفسه وفكره. وكيف يتفاجأ وهو قاموس متنقل بيننا. كل ما اقتربت منه اسأله في مسألة ما يسألني: ما اسمك؟ باي كلية أنت؟

كان يغيظني. ظننت انه يكن لي ضغينة ما. اعتقد ان مشاعره تجاهي كانت تشبه مشاعري عنده هو أيضا يغار مني مثلاً على اهون الشرور. حين اذكّره باسمي يتلقاه بفتور. في كل موعد يضربه لي للاستشارة. نتباحث بما كتبت او فكرت يهز راسه قائلا: فتاة مجتهدة تابعي السعي وراء المعرفة أكثر وأكثر. لم يلاحظ الإرهاق الذي أعانيه. غاب عن وجهي نضارته وصحتي هزلت وتأخرت. صرت عصبية انفعل بلا سبب. أحاول ان الفت نظره للجهد الذي يكاد يقتلني

فيعلق بتهكم موجع: لا تحملي نفسك فوق طاقتها يا.. ما أسمك؟ يستأنف. ليس كل شخص مهيأ. اعرفي قدراتك. يتركني والغضب يأخذ مني كل مأخذ. فأصرّ.

قالت عليا مبتهجة وقد زال غضبها ولانت نظراتها:

: لعلك تريدين اخبارنا كيف فجأة انقلب التحدي الى حب.

: ابداً. صرت أكرهه، اخاف منه، وابتعد عنه. ذات ليلة كنت اقرأ وادون ملاحظاتي حول بلاغة القرآن الكريم. خاصة بعض الآيات التي تحمل معنى كبير وخطير بجمل قصيرة وبلاغة محكمة. توقفت عن القراءة عند الآية الأولى في سورة الحج. اظن أنني اخبرتكم عنها. نزلت على قلبي رعدة قاسية عصفت بكل جوارحي. صرت ريشة خفيفة حلقت بفضاء انتهى عنده. كنا قد تجاوزنا منتصف الليل. رأيتني وكأنني أطير الى مكان لا أعرفه. خرجت من بيتي البعيد نوعا ما عن مركز المدينة. قدت سيارتي دون وجه محددة. أسير كأنما هناك من يرشدني على الطريق وأنا أتبعه، بلا أدنى إرادة مني، وجدت نفسي على باب بيته. تنبهت، لماذا أنا هنا؟ ماذا سأقول له. ثم انه غير مسلم. قد يهزئ مني ومما سأقول. لكن لم اتيت اليه أصلاً الى داره البعيدة وبعد منتصف الليل، وأنا لا يربطني به سوى إرشاده لبعض المراجع والمناقشة فيها. طمأنت نفسي. هو حثني على الدراسات الإسلامية التي أنجزها قبلي وأخبرني انه استمتع بمعرفتها.

يبدو انني نمت. صحيت على يده تهزني. ينادي آنسه يا انسه ماذا بك؟ لماذا انت هنا؟ منذ متى وانت هنا؟ صحوت. تنبهت. لقد نسي اسمي كالعادة. نقلت نظري بين وجهه المشدوه، والقرآن الذي اضمه الى صدري. أشرت بإصبعي دون كلام على الآية. رفع القرآن من يدي وقرأها. قرأناها معا مرات.

خيل الي اننا لن نتوقف. فجأة خطى خطوتين داخل البيت. وضع المصحف على الطاولة امامه وأغلق الباب وامسك بيدي وانطلقنا. همنا في دنيا الله.

صمتت برهة لترى وقع كلامها على الجميع الصامت المتلاحق الأنفاس. صرخوا بنفس واحد وبعدين. ضحكت. بل قهقهت. أومأت برأسها نحوي وقالت تتمة القصة عن الدكتور مينا. قلت:

: هذا صحيح. آمنت بدين سيد الكون. لم أفكر مرتين. ليس عبثا انه خاتم الأنبياء ليس صدفة ان تنقطع صلة السماء بالأرض بعد القرآن. من دراستي للأديان توصلت الى صدق كل الكتب السماوية وكل الأديان وبكل الأنبياء. وجدت بعض تحريفات رفضها عقلي وقلبي من قبل هدايتي لطريق سليم. مثلا ان يسوع ابن الله. يعتقدون بثالوث. ثم ينقضون أنفسهم أله وأحد امين. كنت أفكر قليلا ثم اطرحها خارج تفكيري. فاصرف النظر.

أتذكر بعض القساوسة ورهبان حقيقيون لا يتوانون عن الاعتراف بما أنزل على محمد. تأكدت بعد مرور السنين ان تربتي صالحة لأصدق وأعترف بدوري بما اعترفوا به. كان عندي ايمان وليس استسلام. مازال كما بدأ لم يفقد بريقه ولم تقل سطوته. اسمعوا هذا الحديث القدسي الذي أذهلني يقول تعالى " إن كنت تظن أني لا اراك فهناك خلل في ايمانك. وإن كنت تعرف انني اراك فلم تجعلني أهون الناظرين اليك؟ وضح لي الخلل. هل هناك أروع من هذا الكلام. كم أثر في نفسي. ارتجف قلبي. اعترفت دون تردد. أنني قبل هذه الهبة قلما كان يخطر الله بسطوته على فكري بجبروته وبنعمه. كأن كل ذلك تحصيل حاصل. نعم كنت قلما أفكر به. قل ما أخافه. قلما أحبه.

لعل هذا سبب فتور الدين عند ان معظم المسلمين الذين صادفتهم. الدين بالنسبة لهم ارث، تحصيل حاصل. لا بحث وراء آية ولا تدبر لآية. يجمعون على تأدية عباداتهم بحرفية بآلية. لم يصلوا الى لب الدين. يتناحرون ويتربصون متعصبون. ضد او مع. دون يقين. مجادلة وتحدي عنتري. هذا ينفي عن الدين وجهه الحضاري العظيم. تأملوا صدق هذه الآية الكريمة. اشداء على المعتدين رحماء بينهم. دقق بالأمر تراهم رحماء على الأعداء اشداء بينهم.

ما زال الوجوم مسيطرا على قلوبهم ووجوههم. جامدة عيونهم ناظرة الى البعيد البعيد. سمعت بعض الهمس في تساؤل مر لكنه مستحب. لماذا يا دكتور. استمرأت هذا التساؤل بفضول حر فواصلت الحديث لأنه لم يعد المسجد مدرسة كما كان. ذات مرة كنت أصلي الجمعة في أحد مساجد المدينة خطر لي خاطر ان اسأل الشيخ عن المعنى الأساسي لخطبة الجمعة رد علي ذكر افاضل السلف. قلت: هل هي هكذا منذ ابتدأت؟ قال هههه لم يكن هناك سلف نحكي عليهم. قلت ماذا كانوا يقولون فيها؟ قال فهمت قصدك ومرماك. لذلك الأفضل ان تسأل هل كانت هناك رقابة عليهم. هل كانوا ينتظرون أوامر أحد فيما يقولون او يفعلون وهل هذا منبر حر. يقف عليهم شيخ حر قارئ جيد. متتبعا أخبار الأمة الإسلامية. له رأي حصيف فيما يحصل. حين التفت ليؤكد لي ما يقول لم يجدني كنت خارجا عند الباب وقد تحلق حولي بعض الشباب من طلبتي في الجامعة متسائلين لم لا يكون في مسجد الجامعة منبرا حرا لنا وعدت خيرا وانسحبت.

دوي مروع في الخارج وخبط عشوائي على الباب. قالت الست مريم:

: هذا رشاد. يغيب كل النهار وجزء من الليل وما ان يصل حتى يرتمي فوق الباب من التعب ويضربه كأن بينهما ثأر.

قلت بعفوية:

: اليوم رشاد عنه مسيرة سلمية في شوارع العاصمة مع رفاق الجامعة.

كانت الساعة تشير الى التاسعة ليلاً. رفاق رشاد وقوفا على الباب ليس بينهم رشاد. وجوههم مكدرة بخوف وحزن اندفعوا جميعا ينقلون أخبارهم الجميع يتكلم ويشرح. فهمنا ان أكثر المتظاهرين أصيبوا بجراح كسور. قلت:

: أنا الدكتور مينا. ما هذه الغوغائية؟ اصمتوا جميعا ليتكلم اكبركم.

فوجئت. كل واحد منهم يعتبر نفسه أكبر وأفهم من الآخرين. قلت:

: دعوني أسألكم وأنتم تجيبون. أمس أخبرني رشاد أنكم ستخرجون صباحاً في مسيرة سلمية لدعم انتفاضة أطفال الحجارة. طالبين بدعمهم بسلاح او تأييد أو حتى طبابة. أخبرني رشاد بأنكم استخرجتم موافقة أخبرته بأنها موافقة شكلية. لتظهروا على السطح وتنكشفوا أمامهم لينقضوا عليكم. حصل هذا أم لا؟

: حصل فعلاً يا دكتور. شرطة مكافحة الشغب هاجمتنا بكل قواها. حاولنا التفاهم معهم بأنها مسيرة سلمية. لنعيد لبعض قيمنا مكانتها أن الأمة كالجسد الواحد إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. شعب تهدر دماؤه. تقطع اوصاله. اخبرناهم اننا استخرجنا تصريحا بالخروج. قال واحد من العسكر بالبوق. بلوها واشربوا ميتها.

أخذوا بضربنا بهراواتهم. استعملوا خراطيم المياه والغاز المسيل للدموع. كان رشاد على اكتاف الشباب يهتف بحياة زعيم القومية. استمر بالهتاف رغم ضربات الشرطي بخيزرانة ذات العقد. وقع رشاد على الأرض داسته اقدام الفارين من الأذى. حملوا من وقع في قبضتهم، ومن سقط على الأرض يلتقط أنفاسه بصعوبة الى مستشفى الجامعة. رشاد هناك لأنه أكثرنا تضررا.

قمت من فوري واصطحبت عليا وندى وذهبنا الى مستشفى الجامعة نتفقد الأحوال. كان الازدحام على أشده فبعض الطلبة مرافقين لغيرهم من الطلبة الجرحى يثيرون الضجيج فلا تفهم ما يقال ولا لماذا ولا من يقول مختلطون بأهالي الطلبة الذين لحقوا بأولادهم حالما بلغهم الخبر. يتزاحمون فيما بينهم. كل منهم يبحث عن ابنه او ابته. كان عدد كبير من الطلبة بين يدي الممرضين والأطباء يحاولون مساعدتهم. لم نتمكن من رؤية رشاد. وجدنا أمامنا أحد رجال شرطة قمع الشغب.

: يوجد بين الشباب واحد اسمه رشاد نضال أين نجده؟ ومن نسأل عنه؟

: اسألوني انا. رشاد ونضال كمان ما يكفي واحد منهما. وضعتهم كلهم بالحجز. انهم سبب البلاء. أولاد لم تحسن أهلهم تربيتهم. سأريهم بمعرفتي.

: لكنهم جرحى وبحاجة للعلاج قبل تربيتهم. اليس كذلك؟

: تركناهم لقدرهم موتهم أحسن من حياتهم.

: ربما يموتون في هذه اللحظة ونحن نتحدث؟ نعالجهم اولاً، ثم نعيد تربيتهم.

: من أنت. هل انت والد أحدهم؟

: انا جار لكنني طبيب. دعوني أقدم واجبي واساعدكم في علاجهم ومن ثم..

: جار! وكل هذا الجزع؟ عندك حق. لو كنت مكانك لأنكرت ابوتي.

: انا لا اكذب انا جار فعلاً لكنني اب. دعني أرى رشاد واعرف إصابته.

: جراحه بالغة. بهذه العصا ضربته على ظهره. فسقط على الأرض. آخر مرة رأيته كان ينزف من فمه ومن رأسه. لا أعرف ربما ما زال ينزف.

تقدم أحد الآباء وقال بأسف:

: كيف تقول مثل هذا الكلام ببساطة. ماذا لوكان ابنك؟ لكل انسان حق ان يعترض ومن حقه أن يستجوب وأن يعالج. أ نعيش في غابة؟

: بالله عليكم يا مثقفون احتفظوا فلسفتكم لأنفسكم واتركونا نقوم بأعمالنا والتي هي أصلا خدمتكم.

تقدم آخر وقال بعصبية:

: والله بالله ان كان ابني او بنتي تضررا لأخرب بيوتكم بالمناسبة انا محام معروف بالبلد والذي لا أرضاه لأولادي لن أرضاه لأي طالب. ماذا تعتبروننا مواطنون من الدرجة الثانية. لكل انسان على هذه الأرض حق لازم يمارسه والا يعتبر من فصيلة أخرى غير البشر.

: بالله عليك أجبني من أعطاهم هذا الحق؟ هههه.

وانت أيها الطبيب روح وتعال غدا استلم جثة جارك رشاد.

هجمت علياء عليه. امسكته من شعر رأسه الذي يشبه رأس الخاروف. لم تلامسه ماء من أسابيع. رفع عصاه ليضربها فأمسكت يده صارخاً: ستضرب سيدة. أنت ايضاً لم تحسن عائلتك تربيتك.

: عندي صلاحية كاملة. يعني يمكنني زجكم جميعا بما فيكم المحامي الشاطر في زنازين خلف البناء. حتى تتعلموا كيف تخاطبون الحكومة.

: أنتم الحكومة. بئست من حكومة.

: صدقوني. طلبوا مني ضربهم حتى الموت.

اخرج من جيب بذلته الحكومية المتسخة هذا تكليف بالتصدي بلا رحمة.

تحركت من قبالته قائلا لنفسي لا بد من وجود من مسئول عن الدائرة يمكنه إعطاء جوابا شافيا. وجدت أمام غرفة مكتوب على بابها المدير العام. تنفست الصعداء. سينتهي العذاب ونصل الى مبتغانا.

وجدت أحد الجنود واقفا امام الباب طلبت منه الاذن لي بالدخول لرؤية المسئول. غاب دقيقة وعاد وقال:

: سيراك بعد نصف ساعة فهو مشغول جدا الآن.

: يعني انتظر نصف ساعة ام اذهب وأعود؟

: لا لا انتظر نصف ساعة بالتمام والكمال مديرنا مواعيده دقيقة جداً.

مرت ساعات، بين فترة وأخرى ألح بشكل جنوني. يردون الجملة ذاتها مثل أسطوانة مشروخة. سيراك بعد نصف ساعة. لم نره، ولا أحد يرد على الحاحنا.

ما هذا الن تنتهي هذه الليلة المشؤومة. فكرت ان أخرج علي أجد شخصا يساعدنا في هذه الورطة. وإذ بي امنع من الخروج. وأحدهم يقول ساخراً. أنت وضعت نفسك في ورطة يا سيد وطلبت مقابلة المسئول انتظر.

وقهقه الجنود الواقفين معه بينما غلى الدم بعروقي وقبل ان انفث عما بي مر من أمامي طبيب في غاية العجلة سألته:

: ممكن تسهل لي رؤية أحد الشباب الموقوفين. يقولون ينزف منذ ساعات.

لم يقف ولم يرد على سؤالي. ظل مندفعا وانا راكضاً خلفه. قال:

: ربما استدعيت من اجله.

: أرجوك ساعدني فانا طبيب ممكن ان اساعد.

لم يرد. لكن على الأقل عرفت الطريق المؤدي الى رشاد. وقفت على الباب الذي توارى خلفه الطبيب. فجأة سمعت صوت ابنتي عائشة التفت مذعورا وإذ بها مقبلة نحوي مع ضابط مناوب. كانت تصرخ بمن يدفعها أمامه دفعا موجعا ومهيناً. ما تفعلوه غير انساني. ستحاكمون عليه. ما أن وقعت عينيها عليّ حتى انهارت واندفعت نحوي باكية وتتساءل. كيف يحصل هذا يا أبي اين نعيش أليسوا بشر. حضنتها وأنا أقول للضابط. سأعرف كيف أصل الى مسئول عنده

ضمير ويعرف الله حق المعرفة. لم يرد انما ازداد تهجما عن ذي قبل اومأ للشرطي ان يبعدني عن الباب ودخل.

قلت لعائشة:

: لماذا انت هنا. كيف ومتى اتيت.؟

: اتصل بي رشاد تلفونيا وأخبرني عن الحادث وطلب مني اخباركم. لم يخبرني بالحقيقة كلها. ظننت ان الأمر عابر، انا أعرف خالتي ام رشاد، لا تتحمل. لحقت به لأسانده في الموقف. ثم نعود سويا. لكنهم لم يسمحوا لي برؤيته. ظنوا بأنني واحدة من الطلبة المتظاهرين بسبب شنطة الكتب التي احملها. أدخلوني في سين وجيم. تخلصت من قبضتهم أمام غرفة مكتوب على بابها الإدارة اندفعت لأكلم الضابط المسئول. كان الرجل يتكلم بالتلفون يذكر اسم رشاد وانه ينزف وانه فاقد لوعيه.

اندفعت ببكاء مرير. لفت نظرنا قبل سؤالها توضيحا. سمعنا معركة كلامية شرسة داخل الغرفة التي دخلها العسكري والطبيب قبل قليل. أصوات أخرى تتوعد وتقسم منذرة بالشر. كان الطبيب يعنف الضابط. والضابط يهدد ويتوعده، انه لن ير النور كل حياته الباقية، لأنه تجرأ وأهان رجل أمن اثناء تأديته واجبه. الطبيب بدوره يصرخ ويحمله مسئولة زهق أرواح بشرية بلا سبب. عليك تأديبهم لا قتلهم. خرجا سوياً. وجدانا بالانتظار نظر الطبيب نحونا كمن وجد ضالته همس:

: لا بد من الخلاص. نسلمه لأهله ونخلي مسئوليتنا. سيموت.

يبدو انه فهم معنى كلام الطبيب. برقت عيناه أمرني أن اتبعه الى مكتبه:

: هذا الشاب يعاني من مرض مزمن في رئتيه. ينزف منذ ساعات.

: لقد ضربوه يا حضرة الضابط بخيزرانه ذات عقد على ظهرة بكل وحشية. أصحابه شهود. لقد نزف منذ ثالث او رابع ضربة. لكن السياف استمر بالضرب.

: اسمع يا سيد ليس وقت الفلسفة الآن. انصحك ان توافق على كل كلمة اقولها. بعد ذلك أستطيع تسليمه لك. في حال موافقتك وقع على هذه الأوراق بأنك تتحمل مسئولية المريض دون اعتراض.

: موافق. لكن عليّ القيام بالكشف عليه هنا، لأعرف مدى الضرر الذي أصابه. وأعترض بشدة على وصفه بالمريض. خرج من بيته صباح اليوم سليما معافى. شارك زملاء الجامعة بمسيرة عادية تعرض للضرب المبرح. هذه بطاقتي. لا أعرف كيف تقاس الأمور في بلاد أهلها يفكرون بلا مسئولية.

نظر من فوق نظارته للبطاقة وقرأ اسمي وقال:

: ظننتك قريبه اخوه او ابوه. انت مسيحي؟

: لست مسيحيا.

: مسلم؟

: لا لست مسلما. انا مؤمن. بدين عظيم. وبرسول أعظم عظيم في الدنيا كلها. رسول عامل من يحاربوه وكادوا يقتلونه برأفة وبخلق. ينقذ الجريح ويعف عن الأسير. علمه الله في القرآن ان يأخذ حقه قبل ان يسجد ويقترب لربه "كلا لا تطعه. واسجد واقترب. أنه يدافع عن نفسه ومعتقده. اين هذا ما نعيشه.

: خلصت محاضرتك؟ اخرج فورا. خذ مريضك. اكتب أنك مؤمن وقريبه بالإنسانية وبمعرفة الله. والله شيء مضحك. مسيحي يعلمنا ديننا. آخر الزمن. المهم خلصنا من المشكلة بأخلاقك الحميدة.

: نعم أقربه بالإنسانية. أقربه بمعرفة الله.

وقف مقاطعا، وأصدر امرا للطبيب الواقف متصلبا. خذ الدكتور مينا معك واتركه يفحص المريض وليستعمل أجهزة المستشفى من اشعة وتحاليل ثم اوصلهم للمكان الذي يريده الدكتور بسيارة اسعاف. مفهوم.

كان تقديري في محله. رئة رشاد الشمال كأنها مزقت بسكين حاد لا يتوقف عن السعال والأنين والنزف. تطلع صاحب رتبة عالية مزين بها بذته العسكرية وقال لرشاد الذي بالكاد فتح عينيه، بشماتة لا تليق برجل محترم، فضلاً عن رتبته العسكرية، خليه ينفعك حبيبك الوطن الأكبر. ردت عائشة بغضب:

: كيف تقول مثل هذا الكلام، انت واحد من الشعب المسحوق الذي خرج هؤلاء الطلبة ليحرروكم من الظلم. عاملتموهم وكأنهم أشياء لا تحس ولا تفهم. انكم مجرد دمى. أضرب فتضرب، اسجن فتسجن، عذب تعذب. كيف يتأتى هذا لفرد من شعب مسلوبة انسانيته وحريته. تنفيذ أمر الضرب حتى الموت. أنها لمعادلة عجيبة. المقهور يمارس كل قهره على طلبة صغار. قد يكون ابنك ذات يوم بهذا الموقف. لكن كيف له ان ينال هذا الشرف وأنت من رباه.

فجأة رأيت عينيه تحدق بعائشة وشفاهه ترتجف وغضب بحجم الجبال زاحف على وجهه. صمت طويلا قبل ان يهمس:

: اخرسي واخرجي قبل ان البسك تهما ليس بمقدورك تحملها. كأننا أصحاب أمر ونهي. ونحن موظفون نقوم بما يطلب منا.

ذهبت مع الممرض الذي يدفع السرير الذي يرقد عليه رشاد لإجراء الفحوصات اللازمة بينما ندى سحبت ابنتها وعلياء وخرجوا ينتظرونني لأكشف على رشاد وتوقيع الأوراق المطلوبة. كانت الإصابة بالغة العنف تستحق رفع دعوى قضائية ضد أكبر كبير في البلد. لكن أي بلد.

تذكرت ما قاله الضابط قبل قليل. وجدت نفسي بالموقف ذاته. لا حول ولا قوة. فنحن في بلد من العالم التعس. آثرت الهروب بالشاب قبل ان يغضبوا ويتركوه يموت وانا اتفرج عليه. اشتريت العلاج من صيدلية المشفى. خرجنا بسيارة الإسعاف بسرعة هربا من سفاحين يريدون إعادة تربيته بقتله.

وصلنا البيت وشمس اليوم الجديد تبزغ، هرع من كانوا طوال الليل ينتظرون عودتنا بنفاد صبر. سارعوا ليقدم أي منهم خدمة لذلك الشاب. شاب وحيد في مقتبل العمر تبني عليه اسرته الآمال في غد قريب. تأبطت به عليا بوجهها الحزين وعينين تقرحتا من البكاء. دموع هذه الصبية تثير الشجن في نفسي. توقفت تنفست بعمق متألماً. رأيتها تجلسه على سريره بحرص كأنه من زجاج. اسرعت بإحضار ماء ساخن مع مطهر. نظفت وجهه ودموعه ويديه وقدميه. تحكي وهو مطبق الفم والعينين:

: تذكر ما قلته لك منذ بداية دخولك حقل الألغام هذا. كنت لا تزال طالبا على مقاعد الدراسة في مرحلته الثانوية. صدقتني، ووعدتني بالكف والانتباه للدراسة ولا شيء غيرها. اليوم ادميت قلبي. اكدت لي ان شكوكي في محلها. لا تزال صغيراً لا تعرف كيف تحمي نفسك. ما كان يجب أن اقتنع بكلام طفل اتضح أنه فض مجالس. صدقتك. ها هي نتيجة اهمالي. كدنا نفقدك. حتى لو استمرت مراقبتي ما توصلت لشيء. كنت من الفطنة الشريرة بحيث لم تعد تترك اثرا. ولم تعد تخرج مساء متسللا تقف بالساعات مع شلة أصحاب. قوم حبيبي بالسلامة. لن اتجسس عليك ولن ابحث في اوراقك. ستذهب الى لندن عند خالنا كريم تدرس وتعمل هناك.

لم يرد ولم يفتح عينيه. تنهدت بوجع واستأنفت:

: ماذا أقول؟ وعلى ماذا ابكي؟ اشياء كثيرة ظهرت لي. لم تكن تحترمني كما كنت احترمك. رجوتني الا أخبر أحد بموضوع السياسة لأنك لن تعود لها. صدقتك. كنا اخ واخت كبيرة. نحن الآن خصمان. لن اثق بك بعد اليوم ولن

اصدق أي شيء تقوله او تعد به. حين طلبت منك ترك السياسة لأصحابها. كنت اردد ما قاله خالي كريم. السياسة تجارة خاسرة. لو نفعت لما تشردنا. لها أصحابها الذين يرتزقون منها. عرفت أنك تحاول الانخراط في مجال ليس عندك مقوماته. رجوتك وأخبرتك اننا ضيوف هنا. بلادنا ضاعت يا رشاد.

فتح عينيه وقال:

: انا لست ضيفا. ولدت هنا وهذه بلدي. هذه الأمور أولويات الشباب. أنا لست اقل منهم ولا أحسن. هذا ليس مضيعة للوقت بل حق وواجب.

ردت عليه بحزم:

: اخرس. تعرفنا على السياسة قبل ان تولد يا سيد رشاد. ابي وخالي كريم من اشد الشباب المتحمسين لقضيتنا. انتبه لما أقول. نعم لنا قضية. وطن سلب ونهب. شباب المقاومة صمدوا حتى اللحظة الأخيرة. بعد سقوط فلسطين صار لهم راي آخر في السياسة. رأي يجب ان تعرفه وتحترمه. السياسة لا دين لها ولا مصداقية. كيف ما تلعب بملعبها العب. خيانة، خبث، إخفاء حقائق، تزوير الباطل. المهم النصر. ولو على رقاب البشر، ولو سالت اودية من الدماء.

أنت شاب فلسطيني جئت لهذه الدنيا حاملا قدرك. البدء من تحت الصفر. أعني أن اهتماماتك غير اهتمامات الآخرين. خرجت أمس مع شلة كبيرة في مظاهرة. لأنك الأصغر حملوك فوق اكتافهم. تهتف وطني حبيبي الوطن الأكبر. وهم يصرخون وراءك. هجمت الشرطة ضربت بقسوة. كان نصيبك الضربة القاسية إذا لم تكت القاضية. سببت نزيفا بالرئة. ستعالج طويلا وسترقد

شهوراً. لن يتسنى لك تقديم امتحان الجامعة لهذه السنة هذا إذا عشت. هذا إذا تركوك ولم يلاحقوك.

: هذه قناعات يا أختي، لم يغرر بي أحد. قلت الآن اننا أصحاب قضية. وما فعلته من صميم القضية. هؤلاء الذين يدافعون عن أنفسهم بالحجارة يستحقون منا وقفة. ثم ماذا عن قضايا الامة. أم انت مع مقولة " قتل شخص واحد مساله فيها خطر. قتل شعب كامل مسألة فيها نظر.

قامت من امامه أفسحت لي المكان لأبدأ بالعلاج. اين تعلمت عليا كل هذا. اين تعلم رشاد القدرة على الحوار والدفاع عن حقوقه. انهما نتاج اغتصاب أراضيهم وتهجرهم. لمحت عائشة تقف بعيدة نوعا ما تستمع وتنتشي. تبدل غضبها وحزنها رضا وسعادة. تبث رشاد نظرات اعجاب، وكأنه حرر العالم. وهو مضروب حتى الموت. ابتسمت لها.

استدرت بحماس أشرح له وللجميع كيفية الاعتناء بتغذيته ونظافته وراحته في السرير. هزت عليا راسها موافقة. هي هكذا منذ عرفتها تصمد في المحن. لا تترك الأمور للظروف بل يسبق تفكيرها وقرارتها الوقوع في الندم وسياسة الأمر الواقع. انشغلت بمكالمة خالها بالأمر ووعدها ان يهتم بالموضوع. عادت للجلوس معنا وهي تشرح أهمية ابتعاد رشاد للدراسة والعمل. خلاصه من رفاق يحرجونه لمكان ليس له. يثيرون غضب المسئولين على كل من يكشف مساوئهم ومكاسبهم. التفتت اليه وقالت. حين تكمل تعليمك وتصبح واعياً أعمل ما بدا لك. سياسة، ونظرت لعائشة، وحب.

رأيت ابنتي الصغيرة ترتبك وتفر من المكان وهي تتمتم انها ذاهبة الى البيت فقد تعبت اليوم. بينما ام رشاد في واد آخر. تعترض وتبدي الأسباب والعلل ان رشاد ما زال صغيرا ليتحمل مسئولية نفسه ويعيش بعيدا عنها. من سيخدمه من سيعتني به. ربته كل شبر بنذر. عليا لم تفوت الفرصة للانقضاض عليها. هاجمتها بصراخ. ابنك محظوظ إذا ابتعد عنك. سيتعلم كيف يعتني بنفسه وينهي تعليمة ويصبح رجلاً مسئولاً. محظوظ أكثر لأنه سيعيش مع رجل عظيم كخالها ليتعلم منه ما غفلناه في تربيته.

صمت أحاط بالجالسين الا ان الست مريم قامت بمحاولة يائسة لبقائه:

: تعرفين ظروف خالك هناك. قلبت جميلة حياته رأسا على عقب.

: اعرف. أعرف أيضا أننا كثيرا ما ساعدناه بأزماته. أبي وأنا وأنت. لا أقول ما أقول من باب المنّة عليه. بل من باب آخر هو من علمني ولوجه. تذكري قصة حبه. ملأ حياتنا بها، صغارا وكبارا. كان شاباً في مقتبل العمر. كان انسانا بكل معنى الكلمة. يدافع عن الخير ويكره الباطل. لم يستطع تناسي ظروفه القاهرة. متيقن أنه في مجاراته لجميله حبيبته، سيظلمها ويظلم نفسه وأسرته. كان يحبها كثيرا لكنه يحترم وعوده للأسرة بأنه يعيد كل ما سلب منهم.

قالت الأم:

: ما قلته صحيح. رغم صغر سنه كان كبيرا. كنت أكبر منه بسنوات عديدة الا انني كنت اعتبره كبيرنا. ما استشرناه في امر الا وكان السداد لرأيه. اسمه كريم وهو كريم. كريم النفس، كريم القلب، صادق وفيّ عادل. عشرة أعوام على

السكنى مع بعضنا البعض. لم أره مرة يؤثر نفسه على أحد. أحب جميلة لكنه كان يعرف أن الحب في بعض الأحيان يكون مدمرا. كان الجميع ضده.

: كان قويا بكل مواقف حياته. بثني الكثير من الشجاعة حتى صرت لما أنا عليه الآن. انا واختي نجوى كنا ننام في الغرفة المجاورة لغرفته في العلية على السطح منعزلة عن البيت. كنت أرى وأسمع. حين تهرب جميله وتأتي اليه كان يأبى موافقتها على رعونتها كما كان يسميها. لم يسمح لنفسه باستضافتها في البيت نفسه الذي يعيش فيه. تحت إصرارها طلب مني ان أكلم جارتنا الحجة نورا الخياطة ان تأجره غرفة عندها لجميلة. وافقت الحجة. اشترطت ان لا يدخل لبيتها رجل لا هو ولا غيره.

انتقلت للعيش عند الحاجة. بسبب ذهابي بشكل يومي من اجل العمل صرت أوصل لها رسائله وأخباره، وأجلب في عودتي مساء رسائلها وهداياها.

قالت الأم باستغراب:

: لم اسمعك تحكي عن هذه الأمور كل تلك السنين.

: وعينا على قصة حب كريم وجميله التي بدأت قبل هجرتنا. كانا صغيرين حين انجرفا بعواطفهما وأحلامهما في مستقبل سعيد. لاهيان عما يخبئه الدهر لهما من تهجير وتغريب وفقر. نحن أيضا كنا نعتقد ان ما بينهما هو الأجمل لتستمر الحياة بنا ومقاومة تعنتها. نشاركهما الفرحة المكتومة التي تطل من جوارحهما ونحلم بدورنا حين نكبر ونعيش الحب بكل معاناته واوجاعه.

سألتها ندى:

: أ وتعرفين أحوال الحب والمحبين.

: نعم. قصص الحب التي سمعنا وقرأنا عنها لها رائحة الفاكهة الطازجة. حين نتحدث عن جنة الله وما بها من نعم أكاد أشم رائحتها بخيالي.

قالت زوجتي ندى:

: الله ما أجمل هذا التشبيه يا مينا هل سمعت ما قالته علياء.

: نعم سمعته. سمعت أيضا ردك على عليا حين سألتك: متى ستحكين لنا عن حبك وهيامك للدكتور مينا. كيف انقلب الخوف والحسد والكره الى حب؟ اجبت ابدا لم أحبه كان غريمي تزوجنا بأمر أكبر بكثير من الحب.

قالت ندى مدافعه عن نفسها وعن الشيء الذي ربط بيننا:

: أليس هذا صحيحا يا مينا؟ الحصيلة علاقة جميلة. وأسرة جميلة، بيننا حب كبير وبيننا وبين الخالق ودينه الرحب حب ووئام. اكيد انت أغلى من كل امنياتي الدنيوية. أجمل من كل رجل خطر على بال امرأة، اللهم بارك لنا امين.

ردد الجميع آمين. لكن ندى تحولت لعليا تحرضها على الكلام. الأجمل ان تكلمي قصة ذلك الفارس العاشق خالك ومحبوبته جميله. استأذنت عليا ريثما تتفقد أحوال رشاد. ثم عادت لمكانها وقالت:

: رشاد يبدو أحسن مما كان في المستشفى. نائم مثل طفل خالي البال ومتأكد أن حوله قلوب كثيرة تخفق بحب وخوف عليه. أتمنى ان يتم مشروع سفره الذي أفكر به.

قالت زوجتي بلهفة:

: أكملي قصة خالك.

: كانت جميلة تزور خالي كريم والكل نيام. افتح لها وأغلقه خلفها بعد ذهابها. أحيانا نوصلها سويا الى مقر سكنها. امشي بجانبها وهو وراءنا يبتعد عنا بضع خطوات. كانت غالبا ما تبكي في طريق العودة فأواسيها. كنت اسمعها وهي معه بغرفته تحكي له عن حبها ووجعها وعدم اهتمامه. ثم تبكي بحرقة. ثم بعد صمت اسمع رده القاسي عليها. تكلمه عن حب كبر مع السنين، عمرها، تعيش له وبه. مهما حاول الجميع للتفريق بينهما لن تتركه. حالة واحدة اترك إذا قال انه لا يحبها. فيرد بحنان لكن بمنطق وتعقل:

: لن أقولها. انت حبيبتي. لم أحب غيرك ولن أحب. الله لم نره، لكننا عرفناه بالعقل. لا أستطيع تقديم لك اي شيء. حين وقعنا بالحب كنا في بلادنا، كنا أجمل اثنين، أحلى بنت وشاب. نطير كعصفورين. الفضاء كله لنا. لكننا هاجرنا، تركنا وراءنا كل شيء. الآن أصبح ما كنا نحلم به بعفوية وببراءة، مستحيلا. ليتك تعرفي مدى وجعي حين أقول هذا الكلام. صدقيني يا جميلتي. بعد بضع سنين فقط، سواء تزوجنا أم لا، ستشكرينني عليه. ستدركين عندها مدى الحب الذي لك في قلبي. ومعنى أن أحرم نفسي من أغلى أمنياتي، منك. اعترف بأنني كما قال ابوك لا انفعك. انت بحاجة لإنسان جاهز وأنا لست جاهزاً. أنا مهاجر. اسكن في بيت ليس بيتي، أكمل تعليمي في بلاد ليست بلدي. لا أعرف أذا كنت سأجد مكاناً لقدمي بعد تخرجي.

: لا أستطيع ان أتفهم ما تقوله. ما أفهمه أنك حبي، حياتي، وأملي، وأمسي ويومي وغدي. يفرحني وجودي معك دون كل الشباب الذين يتمنون التفاتة

مني. صعب جداً أن أبتعد عنك. أعرف بأنك مهاجر وفاقد الكثير من مقومات الحياة. حين أفكر بهذا أعود للبداية. احبك ولا أعرف شيئا آخر. لا يهمني رأي ابي ولا أمي. أنا من تحب وأنا التي ستعيش معك. في بيتكم هذا، مأوى المهجّرين كما تسمية، أجد فيه سعادة، لم احظ بها في قصر أبي، ولا في سفرياتي المتعددة حول الدنيا، ولا مركز ابي ولا مستوى معيشتي.

يسكتها قائلا:

: لكن أنا أعرف الحياة، وأعرف حقيقة الوضع الذي أعانيه، وأعرفك تماماً. لن تصمدي. عليك الانتظار سنوات قبل أن اصير مؤهلاً لك. افهمي ما أقول وتذكريه فيما بعد. تقولين إنك تعرفي وتقبلي صدقيني سيكون هذا اول شكواك مني. هذا لا يعني إنك لا تحبينني بشكل كاف. بل لأن الحقيقة امرّ من ان تدركها صغيرة ومرفهة مثلك. أحبك حبيبتي. لا اريد من دنياي غيرك. لكن..

: لن اصدق. دعنا نجرب. حين يفشل زواجنا ينتهي كل شيء.

: نجرب ونفشل. كأن الفشل لن يوجعنا ويوجع من حولنا أكثر مما تخيلين نحن متقاربان بالعمر. لن أدّعي أنني أنضج، ولا أفهم منك. لكن المعطيات التي بين أيدينا أقدرها أكثر منك. أعرف انها لا تبشر بنجاح. طريقة تربيتنا تختلف رغم القرابة الوطيدة بيننا. مسئوليتي أن أخبرك بما سيأتي. لن نكون سعداء. لن نجد من يقف بجانبنا ويساعدنا في أزمتنا التي تنتظرنا.

تبكي وتبكي وهو صامد ويرجوها ان تذهب لغرفتها أو لوالدها وحياتها. حين تتركه وتذهب ينهار تماما. اسمعه وهو يناجيها ويكتب لها الرسائل، يبكي وهو

يطلب منها ان تسامحه. وأنا اسرق رسائله واحملها لها لتقرأها، ثم أعيدها مكانها. ظنا مني انني أساعد. إذ بي ابثها الأمل.

مر رشاد من امامنا فتوقفت عن الكلام. تلفت حوله ثم سأل بلهفة:

: أين عائشة الم تكن معنا؟

ردت عليا:

: أنس. ستسافر الى لندن. خالنا كريم بانتظارك. لا يمكنني وصف فرحته بك. سيقوم بكل ما يلزم ستعيش معه وتدرس في الجامعة التي يدرس فيها.

: هل تستشيرينني كما هو مفروض أم تبلغيني كالعادة؟

: الحقيقة ابلغك. لم تتحمل مسئولية الشخص الذي يستشار.

قالت ندى:

: عائشة حبيبي ذهبت تستريح فقد توترت جدا اليوم كانت خائفة مرعوبة عليك. استرح الآن وغدًا ستأتي تزورك وتطمئن عليك. تأخر الوقت يجدر بنا المغادرة لترتاحوا لكن فضولي على أشده لأعرف كيف آل حال العاشقين.

امي تخبرك بها سألحق برشاد ربما كان بحاجة لشيء.

قال الست مريم:

: استمر العراك سنوات. بين شد وجذب. بين العائلتين. وبينه وبينها. كان أخي قد انجز دراسته الجامعية هنا وفي هذا البيت ونال درجة ليسانس في اللغة الإنكليزية وآدابها. واخذ يعد العدة بتوصية من اساتذته للذهاب الى لندن

للتكملة وحصوله على الدكتوراه. كنا نعرف، بأنه يعد نفسه، ليكون كفء لها في حال انتظرته لتكتمل قصتها كما تريد. قبل سفره بعدة أيام، فوجئنا بزيارة جميلة ووالدها وامها لبيتنا. كان الرضا يشع من وجهها الجميل. ترتدي فستان عرسها الأبيض، وعلى وجهها برقع التل الأبيض. زادها جمالا فوق الجمال الذي حباها الله به، وقد خلا من الحزن والقلق. كانت عروسا بكل معنى الكلمة. طلب والدها ان يجتمع افراد البيت. قال بصدق:

: ليعلم كل فرد في عيلتك يا كريم. انني لم أبخل بجميلة عليك. ولم اعترض على الفكرة التي لم توضحها انت بقدر ما فعلت جميلة. كنت احميك كما احميها. فشلت تماما. انا الآن ارجوك ان تتزوجها وتصحبها معك في سفرك الى لندن. أكملا تعليمكما. وعودا لنا بشهادات عالية. لا تنسى حين تبدأ بالصراخ من افعالها الغريبة أنني قد حذرتك. تمنيت وأملت ان توضح لها المستحيل. الآن اين أم العريس ابدئي الغناء واطلقي الزغاريد وافرحوا وامرحي سيأتي بعد قليل الشيخ ليعقد قرانكما تزوجا وسافرا معاً. اشهدكم جميعا في حال الفشل الأكيد لن استقبلها في بيتي أبدا. سأساعدكم في البداية ريثما تستقر الأمور.

أجاب نضال زوجي بعفوية:

: كريم ليس بحاجه لمساعدة. ممكن ان تساعد ابنتك ريثما تستقر أمور كريم.

تزوجا وسافرا وأنجبا وافترقا رغم كل الحب. نفد صبرها بأقل من سنتين.

عادت عليا لتشارك بالحديث:

: خالي انسان عظيم. لم تفته التضحيات التي كان يجب عليه القيام بها لتعيش جميلة بسعادة. كان عليه تغيير مجرى حياته، وافكاره، وقناعاته. كان واثقا ان هذه أمور مستحيلة بالنسبة له. متأكدة أنه في اللحظات الحرجة وقبل التفكير بالانفصال. حاول قدر الإمكان. وتنازل قدر ما يستطيع. ليبقي عليها وعلى بيته وابنه لكنه فشل. مطالب جميلة كانت بلا سقف. أخبرني ذات مرة. أن أساس خلافهما انها تفكر بسعادة آنية. هو يفكر بسعادة طويلة الأجل له ولها ولعائلته. تريد حياة اجتماعية كاملة التي اعتادت عليها في المجتمعات الغربية التي عاشت معظم سنوات حياتها فيها. سهر وشرب ورقص. وهو يصرخ انا شاب لم أنشأ على مثل هذه الحياة. هي مارستها وكنت آمل بعد الزواج سنعيش ببلدنا التي ما زالت محافظة وتعتبر مثل هذه الأمور غير لائقة ان لم استعمل كلمة أخرى.

بعد بضع سنين من الانفصال عادت ومعها ابنها الصغير لتراه جدتي المريضة. أتت لغرفتي تسألني. ما بك؟ قلت ما زالا لا يتركون لنا حرية الخيار. كله مفروض كله أوامر. ذكرتني بيوم بعيد، كنت منزوية أبكي للسبب ذاته من ابي. الآن أمي. همست بأذني: انت لك مكانه خاصة في قلبي، لذا انصحك ان تسمعي نصيحة أهلك. لو كان لي ابا مثل ابيك. أو اما مثل أمك، أعاداني الى الصواب وأنا مراهقة صغيرة. لكانت حياتي أفضل بكثير.

انفضت سهرتنا وتهيأنا للذهاب وإذ عليا تقول:

: أحب وجودكما اتضايق عندما تغادران سنمد جسراً أو نحفر نفقاً بيننا.

: ونحن بحاجتكم أكثر من حاجتكم لنا. ماذا لو أغرانا المال. الذي قال تعالى "يحبون المال حبا جماً" لو كانت قلوبنا بلا رحمة. نؤمن بشعار غالبية البشر أنا

ومن بعدي الطوفان. عرفت كم ستكون خسارتنا كبيرة لو لم نتعرف عليكم. الامتنان لله. ان بيتي خفف عنكم وطأة التهجير. استشهد أبي وهو غاضب على سلوك مشين ومع ذلك لم يحرمني ميراثي. أوصى بالبيت الكبير لي لأنه يعرف مدى عشقي لطرازه الجميل والاصيل. وأمي اصلحت ذلك الخطأ العظيم بأن فتحت البيت لكم. لعل أبي فرح ان بيته آجاركم وانا رحبت بكم.

رن تلفونه. تنحى جانبا ورد عليه. بسرعة عاد الينا يزف الخبر السعيد. أن محاميه الخاص سيتولى تجهز جواز سفر رشاد، وتأشيرة الدخول الى إنكلترا. وسيطالب برفع حظر السفر عنه للعلاج.

صاحت عليا بفرحة:

: متى قمت بكل ذلك؟

: حين سمعتك تكلمين خالك عرفت ان الامر جاد وبما انني اعرف هذه البلاد جيدا. التدخل بأمور الكبار جريمة.

: كيف توقعت حدوث شيء يعيق سفره؟

: لم أتوقع بل متأكد. كتبت تعهدا قبل خروجنا من المستشفى ان لا يغادر البلد قبل محاكمته. محاميّ طلب مني تجهيز التقارير الطبية التي تثبت انه قد تعرض لضرب مبرح مزق رئته وهو بحاجة لعلاج طويل. وسأرفق الأوراق بتعهد خاله المقيم في لندن علاج ابن اخته هناك مع تحمل كافة المصاريف وانه سيقيم عنده طوال مدة العلاج.

: هل أرسل خالي رسالة بهذا الشأن؟

: ليس بعد لكنني متأكد أنه سيفعل. الأمور لا تحل بالصدف بل بالتدبير والحكمة. لم يعد حاجة لذهابك يا عليا معه. هناك سيستقبله تقي الدين في المطار ويصحبه الى البيت حيث يقيم. ستلحق بهما عائشة بعد سنتين لتتم دراستها. يكون رشاد قد قطع الشوط الأهم في غربته ودراسته. فينتقل لبيته الخاص. من يدري لعل عائشة تكون عروساً لرشاد.

خنقت العبرات الأم وعليا وسلمى فتجاوبت ندى كذلك انا. ما أجمل هذا الرد ممن أصبحوا بمنزلة الأهل لي ولزوجتي ولأولادي. قالت الست مريم:

: هذا كثير يا دكتور مينا والله اخجلتنا بكرمك. سأكلم اخي كريم بهذا الأمر وهو سيرد لك بعض جميلك فهو قبل سفره اعتبرك اخا لنا.

: الحقيقة هو لم يقصر لقد ساعد تقي الدين كثيرا في العامين الماضيين. ان كان رشاد يفضل ان يبقى مع ابني أهلا وسهلا. فهما شابان جامعيان في الجامعة ذاتها. أنا أيضا خال رشاد.

حالة الست مريم الصحية ما زالت في تشتد. صداعها يزداد سوء ويستمر فترة أطول من قبل. غباشة وزوغان في عينيها. أحيانا ينتابها دوار تحاول التغلب عليه بصمتها وتماسكها، فتلوذ بفراشها. عدت أطالب بإلحاح ضرورة عمل صورة مقطعية للرأس. عليا عادت للرفض بتعنت. لم تزل على عنادها ولم تأخذ الأمور بجدية. بحجة ان أمها ستبقى على توترها حتى سفر رشاد وتنتظم حياته هناك. وتتزوج سلمى. لن تهدأ قبل ذلك.

لم نترك الأمور رغم انشغالنا. اتابع تحضير أوراق رشاد. وندى وسلمى متابعة تحضير الأشياء التي يحتاجها لسفره. اتفقت مع ندى ان تصحب الست مريم الى مشفانا وهناك سيتدبر الدكتور المختص ما يلزم.

ألحت ندى على الست مريم بالذهاب معها الى المشفى. نظرت اليها بدهشة متسائلة هل الأمر خطير الى هذا الحد. أجابت ندى بلطفها المعهود ورقتها المحببة. هذا هو طبع الدكتور مينا يعمل من الحبة قبة كما يقولون. صدقيني مجرد اطمئنان وفحوص روتينية. هدأت وقالت لماذا الاستعجال إذن. لننتهي الآن من سفر رشاد وزواج سلمى. سأنهي موضوع زواج سلمى قبل سفر رشاد.

حينما نقلت لي ندى هذا القرار لم يسعني سوى ان العن بكل عصبية الجهل المتفشي برؤوس شعوبنا كأن المرض يقدر ظروفنا. قررت مفاتحة سلمى وحثها على إتمام الزواج بسرعة نظرا لحالة أمها المرضية.

التقيت بسلمى في بيت أمها انتحيت بها جانبا وسألتها بصوت منخفض:

: هل حددتم موعد زواجكما انت واحمد؟

وجمت طويلا ولم ترد. همست: هل حالة أمها تستدعي البت في موعد علاجها بسرعة؟ هززت رأسي. بكت سلمى بحرقة والقت برأسها على صدر عليا التي فزعت من بكائها، رفعت رأسها وقالت بوجع:

: لقد تراجع احمد عن الزواج. سيسافر للعمل في الكويت.

وصل الكلام لمسامع الأم فسألت:

: ما معنى تراجعه بعد ثلاث سنوات وانتما معا ذهابا وإيابا. نفسخ الخطبة.

: تذكري أمي. لقد كتب كتابنا، نحن تقريبا متزوجان.

: لن أفهم سوى الخلاص من شاب عديم المسئولية. فليطلق.

: أصلا هذا ما يريده. لقد صرف النظر عن الزواج بالوقت الحاضر.

: فليأتي هنا. يخبرني كرجل محترم وننهي الموضوع ببساطة لا نريد منه شيئا.

اندفعت سلمى ببكاء مرير من جديد. تركت المكان وذهبت لغرفة أخرى وأغلقت الباب على نفسها وبكت بعويل حزين. توقعت ان يكون الأمر أكثر بكثير مما نعرف. طلبت من الجميع تركها لتزيح عن نفسها همها فمعظم البنات يحزنهن ان تخلى انسان أحببنه عنهن.

قالت عليا:

: عندك حق دكتور. سأتحدث اليها والى احمد ثم نرى.

فوجئنا انا وندى بزيارة سلمى لنا بعد أيام. كنت قد تناقشت مع ندى عن سلمى وأن مشكلتها مع احمد لن تمر بسلام ووعدت ندى بناء على الحاحها ان أحاول المساعدة في حل المشكلة ان كان هناك فعلا ما يحتاج للمساعدة. لفتت نظري ندى ان أتذكر ان أحمد هو الذي يريد فك الارتباط بسلمى بصمت وكأنه يسرق. لم يحاول إيجاد عذر مقبول امام عائلتها. صاحت ندى:

: مينا سلمى هنا. كأنها أحست أنك تريد التحدث معها كيف ترتب الأمور.

أجبتها وانا ادخل الصالون لاستقبال سلمى:

: حقيقة أتت تلك المشاغبة لتراني بعد خراب مالطا؟

تنهدت سلمى وقالت:

: لم أنم منذ يومين، قدرت أن امي تعاني من شيء ما. أخطر مما يخطر على بالنا أنا وعليا. جئت مبكرة لزيارتكم دون استئذان. مشكلتي مع أحمد تفاقمت. سيطلقني اليوم بالمحكمة. فكرت ان شيء مثل هذا يجب ان تعلمه أمي، لكن كيف؟ هل وضعها الصحي يتحمل ما سأقوله وهو كبير وثقيل.

قلت بتعجب غير خاف:

: لماذا تركت المشكلة بينكما حتى تفاقمت. ما دور الأهل او الأم بهذه الحياة الا ان تذود عن أولادها الشر والخوف والشقاء. هل انت انسانة ضعيفة حقا كما تنعتك اسرتك ام انت انسانه انانية لا تفكيرين بغيرك؟

: لست ضعيفة كما يدعون. ولا أنا انانية كما قلت الآن. أرجوك افهمني. ما كنت ادخلك طرفاً بمشكلتي لولا ثقتي بمكانتك عند أمي. أنا لا أحب الجدل

ولا الصراخ. ولا اقبل ان أكون محل دفاع عن نفسي. أنا انسانة بسيطة، أي شيء يرضيني. أكره المجادلة مع الآخرين حول أي شأن من الشؤون. احترم رأيهم واحترم رأي. لا يعنيني ما يفكرون به، لا يهمني ان تفهموا طريقة تفكيري. أؤمن بقدراتي وبمكانتي العلمية والثقافية التي اكتسبتها في كل مرحلة من حياتي. مساعدة الدكتورة ندى بإلحاقي بوظيفة محترمة حال تخرجي، علمتني الايثار والمحبة ومساعدة واحترام الآخرين.

منذ ان عنيت بالوزارة وأنا مثال الموظف الكفء يعمل بضمير مهني مخلص. بجد وتفان، لا انتظر ترقية ولا علاوة ولا رضى مسئول، ولا تملق الآخرين. رقيت بفترة وجيزة مرتين حتى توصلت لما انا عليه. أقوم بصفتي وكيل وزارة بكافة اعمال الوزارة والوزير. هو موظف شرف. يحظى بكل الابهة التي تمتعه واسرته. يكاد لا يترك الهاتف خلال ساعات العمل الا لماماً. يتنقل من امرأة الى أخرى. ومن صديق لآخر. يختتم محادثاته التلفونية بمحادثة زوجته. يغازلها بالكلام الذي قاله للأخريات. ثم يسألها عن لائحة طعام الغداء والعشاء وعن سهرة المساء. ينتهي الدوام ولم تتح لي فرصة لأعرض عليه المهم والحساس لإعطاء رأيه وتوقيعه قائلا: ما هذا يا سلمى أدمغيها بالختم.

أعيش في عالم ابتدعته لنفسي خاص بي، بعيدة كل البعد عن العائلة. وخاصة عراك عليا مع أمنا. صار ضرورة مثل بهارات الطبخة تعطيها ميزاتها وطعمها الخاص. مع الأيام أصبح الأمر عاديا ولم يعد يعنيني. لم أكن على وفاق مع امي، وبالوقت نفسه ليس على خلاف معها. شبهوني باللون البرتقالي في إشارات المرور. استعد. فقط استعد لا تتقدم ولا تتأخر. طبعا لم يعجبني هذا الوصف. لكن لا بأس به، طالما يتناسون وجودي، ولا يسألوني رأيي حين

يريدون حسم موقف. مراحل دراستي حتى تخرجي من الجامعة انتهت بنتائج ممتازة. علياء سخية معي. لم تتركني بحاجة لمال أو اهتمام. قبلت بكل سرور وصايتها دون اتفاق مسبق. وجدت نفسي أقف في صفها بصمت ترتضيه فيما تقوله او تفعله. اعطيتها الانطباع بأنني شخصية باهته، أعيش بظلها. في عدة مواقف ثبت لي انها لن تستطع ان تكون بديل امي، لم أعترض. بقي مكان الأم شاغرا بأعماقي. أعيش بخوف ان تكتشف عليا كم حاجتي ماسة لأمي في حياتي.

اعترف انني كنت في شوق دائم لجلسة مع أمي مثل اخوتي. للإفضاء لها ببعض شؤوني مثل نجوى، مثل رشاد، مثل علياء شخصيا. فقدت ابي وانا في التاسعة من عمري نسيت معنى وجود الأب مع الوقت. بعد وقت أدركت أن لا أحد يعوض مكان الأم أو ألاب، مهما كان محباً وعطوفا ويهتم. لا يمكن لأخت، او أخ، او زوجه اب، او زوج أم، تعويض مشاعر موجودة بدواخلنا بالفطرة. عاطفة صادقة تسكن قلوب الأمهات قبل الولادة، وقلوب الآباء مع حسن التعامل وتأكيد حاجات الأولاد لأبيهم. مشاعر يودعها الله في قلوب الأمهات والآباء تجعلهم جاهزين للأمومة والأبوة برضا وبحب وكرم بلا حدود دون مقابل.

لاحظت منذ صغري ان أختي علياء تقايضني. حمايتها ورعايتها بالتزام الوقوف بجانبها ولو بصمتي. بينما أمي لم تتغير. بقيت أمي. تعاملني كأخوتي كأبنة لها تحبها وتخاف عليها بل وتهتم بكثير من شؤونها من بعيد. هذا السبب جعلني غير مشاركة في جلسات العائلة الممتعة لشرب الشاي بالنعناع في الصباح الباكر. تعده أمي قبل تناول فطورنا والانطلاق كل لمشاغله. رغم عدم مشاركتي افتقدتها حين توقفت لفترة بعد رحيل ابي. ثم عادت أمي لحمل الصينية المعتادة

تضع لكل منا كمية السكر كما يرغبها. حين تتجرأ وتلمس شعري وتسألني عن احوالي أبكي. ابكي فقط. تجزع تقترب مني فأقفز بعيداً بمجرد ظهور شبح عليا.

عشت وشعوري يزداد بحاجة لأمي، للمساتها ولحنانها. عزّ عليّ ابتعادي وتجاهلي وجودها. كم مرة كذبت عليها. لا بل وعلى نفسي، بعدم حاجتي أن الوذ بصدرها واشتكي لها بعادي عنها ومواجعي لتحميني. كم مرة أخفي شعور اعتراني حين تلامس بكفها وجهي فيفيض الدفء في حناياي، يملأ قلبي بأمان وضمان. ومع ذلك لم أقترب ولم أعترف.

أمي أروع الأمهات. ليست كما تصفها عليا ولا كما تصورها للجميع. أمي أم حقيقية. جاهدت لتعوضنا غياب أبي. ناضلت ليكفينا المعاش الذي صرف لها، متفانية. متفهمة جهد عليا لتحسين أمور البيت. تحيطها بدائرة من اهتمامها وحبها وتقديرها. كلنا يراه ويحسه إلا عليا لا تحسه ولا تراه. اتخيل ان أمي استعاضت بعليا عن غياب ابي. فمنحتها مكانه ومكانته. تقوم بكل الخدمات والاهتمام الذي كانت تعملهم من أجل أبي وراحة ابي. بالحب والتفاني نفسه.

احتفلت أمي بتخرجي في الجامعة. أقامت لي حفلة كبيرة دعوت لها كما طلبت مني اصحابي وزملائي. لفت نظرها شاب جاء مع الجميع وعرف نفسه بأنه قريب عائلتنا بشكل او بآخر. رغم وجود آخرين غيره الا ان امي لاحظت بشفافية امومتها ان نظراته لي تختلف عن الآخرين. فخصته باهتمامها. تقربت منه وسألت عن القرابة التي تجمعنا، شرح انه قريبنا من ناحية ابي. حاولت بطريقتها اللبقة، معرفة مشاعري نحوه. بعد ذهاب الأصدقاء سألتني. قلت لا أعرف. لا اشعر انه قريب او بعيد. واحد من زملاء الدراسة. دراستي في مدارس مختلطة

حتى الجامعة بنات وشباب. مدرسات ومدرسين جعلت معاملتي مع الجنسين على حد السواء.

قبل حفلة التخرج التي تحتفل به الجامعة سنويا، اعدت للطلاب رحلة لقضاء عطلة الأسبوع في منطقة البساتين والرياض. خضراء جميلة تخص أحد الإداريين. كان على فرد جلب معه شيئا للغداء. كان مائدة ذلك اليوم حافلة بمختلف الطعام والشراب. تشاركناه بمرح وصخب. فجأة وجدت ذلك الشاب احمد قريبي يقف من بعيد يراقبنا. لم يشترك معنا بالرحلة. استغربت وجوده معنا وهو الذي رفض مجرد الفكرة. سألته بمرح. غيرت رأيك ولحقت بنا. يعني اعترفت بأنها ترويح عن النفس وليست سخافات مضيعة للوقت. غضب ونقل نظره بيني وبين أستاذ كنا نلتف حوله نحن الطلبة نتسلى بلعبة اقترحها. ندير زجاجة ماء كبيرة، حين تقف باتجاه أحدنا عليه ان يلقي بنكته، او يحكي عن موقف يثير الضحك. كنت في مأزق حقيقي حين حان دوري. فكرت بجهد ولم ينجدني تفكري. تهربت من الموقف بالاندفاع ناحية احمد مرحبة.

ابتلعت ضحكتني وهدأ صخبي وهمدت بصورة فجائية حين استقبلني بوجه متجهم. لحق بي الأستاذ بسام وهو يحاول ان يعيدني الى الجو المرح من جديد صائحا لا هروب. عليك الدور. ومن لا يعرف يدفع عشرة ليرات لشخص يقوم بإلقاء نكتة بدلا منه. شدني من ذراعي واذ احمد ينفعل، ويعيد ما قاله همسا على مسامع الجميع. أننا طلبة وأساتذة فشله ندّعي رحلة الترفيه والحقيقة انها لحاجة مشبوهة في نفوسنا. زاد الطين بلة بانه سحبني من يدي الى سيارته وفتح بابها بعصبية، واجلسني بالمقعد المجاور ودار الى الجهة المقابلة دون التفوه بأي كلمة. صفق الباب بعنف وانطلق بسرعة جنونية. تشاجرنا. طلبت تبريرا

لكل هذا. ونحن لا يربطنا شيء صرخ بلى هناك علاقة فأنا أحبك. ظننك ستتخلين عن الرحلة إذا لم أذهب. ضحكت ساخرة: ماذا عني وعن مشاعري؟

كان هذا الحدث، رغم غرابته، ورغم احراجي بين زملائي واساتذتي، علامة في حياتنا المستقبلية معاً، بداية علاقتنا الجادة. تغاضيت عنه، بل واعترف، سررت جدا لشعوره بالغيرة. تبلور شعوري الغامض نحوه، وجدتني اقبل حبه وأعلن له عن مكانه خاصة في نفسي. ليس لأنه قريب بل لأنني اعجبت به منذ اللقاء الأول في الجامعة. الحقيقة كان يستحق اعجاب كل من يراه. شكله الرائع. وجسمه الرياضي. جديته، وتفوقه. تخرجه بدرجة امتياز وتعينه في وزارة الشؤون الاجتماعية حيث عينت.

بدأت حياتنا العملية متلازمة مع حياتنا العاطفية. نخطو بأعمارنا قدما تحت اشراف عليا. تسأل وتبالغ في الأسئلة ثم فجأة أصدرت فرماناً إذا لم يتقدم أحمد لإعلان الخطبة رسميا امام الأهل علينا ان ننفصل. فنحن نتقارب ونتقابل منذ فترة طويلة. اعترضت محتجة بظروفه التي حدثني عنها مراراً، لم يعجبها الرد. أمي أيدت عليا ماذا لو كان غير جاد. ماذا لو لم يحبك، لو كان يتسلى فقط. أضافت لم أرغب بزواج الأقارب فهم أسوأ الأزواج. كانت ترى امامي طريقا آخر في عملي. جملة ترددها مثل هاجس انتقل إلي: ما زلت صغيرة. ركزي على عملك لتنجحي فيه قبل كل شيء. ذلك أثار غضب عليا كعادتها. لم تفلت فرصة الهجوم على أمنا كالعادة: يعني تريدين خادمة أخرى غيري. ما هذه الأنانية، ما هذه الرفاهية واحدة أخرى تسجنيها في قفص العنوسة. لم تجب امي انسحبت من المكان بهدوء. ووجعها ينز الماً من كل جارحة من جوارحها.

حكيت لأحمد عما حصل في البيت. طلبت منه تحديد موقفه. إذا لم يكن جادا فليذهب كل منا لطريق. قال أحواله المادية لا تشجع على الزواج وفتح بيت وانشاء اسره. أعلنت موافقتي على انهاء كل شيء فوراً. قدرت موقف أمي ربما هي على صواب. عدت الى البيت حاملة قلقي. تلقتني امي وانتهزت غياب عليا، وأكدت مخاوفها، حين أخبرتها عن رأيه وموقفة من الزواج قالت ها هو شهم ايضاً. ما زال غير جاهز لخطبة أو زواج. أوضح موقفه وقدراته. عليك ان تفكري بدورك بحكمة وتعقل. أحنيت رأسي موافقة فاستمراري معه غلط، سأشقى واشقيهم معي. اكدت لها أنني صرفت النظر.

بعد مرو بضعة ايام عدت من العمل لأجده في زيارتنا مع امه وابيه تجالسهم امي ورشاد وعليا. أعلنت خطبتنا رسميا على ان يتم الزواج بعد سنه من هذا التاريخ. لم توافق امي وقالت منذ سنوات ونحن في حالة تعارف. لماذا ننتظر سنة أخرى. تركت أمي الجلسة وخرجت. تولت عليا حسم الأمر لتنتظر سنة أخرى. يبدو ان كل منهما يكن للآخر شعورا جميلا. خسارة ان تنتهي علاقة على وشك أن تبدأ. اصرت على عقد القران ليحدد الموقف المائع منذ ثلاث سنوات، ليتلاقوا في بيتنا وليس في الطرقات حسب رأيها.

تم عقد القران وأصبحنا زوجين. نخرج سويا مرة في الأسبوع ثم مرتين ثم صار كل يوم تقريبا والزمن يمضي ولا إشارة لبدء التجهيزات. حين يزورنا تسأله امي عن ترتيبات الزفاف. فهي لا ترى بادره من جمته ومن جمة اهله. يرد باقتضاب بضعة شهور ونبدأ بالترتيبات. بينما كان احتجاج امه يزداد كلما جمعتها الصدفة بأمي او بعليا. مؤكدة ان الحاحنا يحرج أحمد ويكدره. نشعره دائما أنه غير كفء. كيف فسرت الأمور؟ لم يخطر شيء ببالنا من هذا القبيل.

فجأة فترت العلاقة كلها. لم يعد يأتينا كالعادة ولم يسألني الخروج. علمت بالصدفة أنه يجهز أوراقه للسفر لإحدى دول الخليج للعمل. جن جنوني. سألته إيضاحاً لتصرف غير مفهوم. لا أجد سببا لغيابه أو لسفره وتركي دون تحديد مصير زواجنا الذي تم فعلاً. هز رأسه واستدار منهيا اللقاء وقال:

: استعجلتم لم آخذ فرصة لأفكر أو اعترض. هناك شيئا اخفيتموه عني.

صرخت:

: لم افهم. أما إذا كنت تعني ذلك الشيء المعيب فأنت تلّوح بمصيبة.

: اعتقد اننا اتفقنا في لقائنا الأخير على الطلاق.

: اتفقنا؟ متى؟ اعتقدت أنك تمازحني.

لم يجب انسحب وتركني لدهشتي وحيرتي. لم أجد امامي سوى الافضاء لعلياء بما استجد. اشتعلت غضبا وانقضت علي. امسكت شعر رأسي وسحبتني لمكان قصي صفعتني عدة صفعات. صرخت من المفاجأة كنت اريدها عونا لتحمل مصيبتي ولأخبرها بما يقض طمأنينتي. لم يخف لنجدتي أحد. أمي قلقة وتعاني وتخشى السؤال. أعتقد انها فهمت غضب عليا. سؤال يلوح في عينيها التي تحمل كل ود وحب. ما حقيقة الوضع بيني وبين أحمد. لم أجرؤ على القول بأن العلاقة وصلت مداها. كيف لي أخبارهم؟

جاء تصرف احمد تجاهي يؤكد انتهاء كل ما كان بيننا. أعاد لي مع جميل رسائلي القديمة والجديدة. رسائلي البائسة التي كنت ابثه حبي وشوقي، فرحتي بقرب الوصال، والعيش تحت سقف واحد. الى الأخرى التعيسة التي كنت

ارجوه ان لا يتركني وحدي، اتحمل نتائج ما حصل بيننا بموافقتنا. لم ينس رسالتي الأخير التي تنازلت فيها عن كل شيء. حتى الحب. حتى الفرحة. تمنيت ان نتزوج بصمت دون حفل او سفر او نفقات لا يقدر عليها. أسابيع او أيام نشهر زواجنا ثم يسافر ويطلقني غيابيا. هوان في هوان.

ها أنا بحت بمأساتي. مرضت طويلا وكثيرا. وانا اتنقل بالخفية عن الجميع من طبيب لآخر مع صديقة لي. أهملت العمل والنفس والعائلة. اتمنى الموت في كل لحظة. أتمنى قبر يلمني، اضع فيه هذا الجسد المعذب وادفن حية. ماذا سأفعل بالجنين الذي لا يريده ابوه. لم أجرؤ على التفكير بأكثر من ذلك. ايقنت بأني لا استحق سوى هذا المصير. صحبتني صديقتي عند قابلة لا اعرف قانونية أم لا. انهت مهمتها بسرعة وبجلافة قالت: بضعة أيام وتنتهي منه. لم ينته الأمر كما قالت. اصابني نزيف حاد. خفت، انا التي كنت أتمنى الموت. أنا التي ألقيت بنفسي لقابلة جاهلة وحبيب اشد جهلا منها.

سكتت سلوى فجأة. غاصت في نوبة بكاء صامت حزين. عدت من متابعة مأساتها. كأنني اسابق الزمن فهدني. لا أجد مبررا لخيانة الثقة. لقتل الحب. لاسم هذا الفعل الذي قام به رجل بامرأة أحبته. من أعطاه هذه السطوة، هذه القدرة على التصرف بضمير ميت. قلت مستهجناً:

: اسمحي لي غبائي يا سلمى. تتكلمين عن علاقة غير مفهومة. ليس لها صلة بالزواج. الزواج شيء مقدس، لا تهاون فيه. هو يعني عائلتك وعائلته. يعني أطفالاً. ليس وحدكما المعنيين فيه كرجل وامرأة. تلك علاقات أخرى لها اسم آخر لا يمت للاحترام بصلة.

همست بصوت مخنوق:

: اجهضت الجنين.

: اجهضت الجنين. جريمة أخرى يا سلمى. متى وأين ومن قام بذلك؟

: قابلة. بإمكانك مساعدتي أرجوك. أنا انتهي. أنزف منذ أسابيع.

سحبني من يدي الى غرفة الكشف في منزله. بعد الكشف تراجع مندهشا:

: لا ليست قابلة بل مجرمة. يجب ان تخبريني باسمها لأنها سفاحة جزارة. يجب ان تنال عقابها وتسجن حتى لا تؤذي امرأة غيرك.

صمت وهززت رأسي بشكل قاطع لن ابوح باسمها. لا اعرف اسمها. ثم ادعيت لا اعرف بيتها فقد ذهبت اليها ليلا. سألني وحدك. سكت كمن الجم لسانه. لا شكوى لا رجاء، بل خوف. خوف شديد. استفهم بلا كلام ان كان عنده حل لمصيبتي التي أوقعت نفسي بها، أنزف حياتي. ربما شريكي بالجرم يتنعم في البلاد التي سافر اليها. ربما يفكر بالزواج من جديد بأخرى. سمعت الدكتور يقول وكأنه يكلمني من قارة أخرى:

: لا أصدق هذا. لا أصدق أنك تركته يفلت من فعلته الحقيرة خوفاً.

: كيف لا أخاف؟ تجرأ واتهمني بأنه ليس الأول والجنين ليس ابنه.

: وانت المثقفة، والمتعلمة والموظفة بوزارة. لا تعرفي ان هناك طرق لإثبات البنوة قبل الولادة. سنوات طويلة وانتما معاً ولم تتوصلي لمعرفته حقا؟

: ربما ما حصل بيننا كان خطأ لكنه شرعي.

عدت الى البيت من زيارتي الصباحية للدكتور مينا أكثر حزناً. وأكثر مرارة. وأكثر إصرارا على ان أخبر العائلة بقرار احمد بالانفصال. المصيبة ليست انه تركني بكل نذالة. بل بالجنين الذي قتلته سواء كان شرعيا او زنا. في بيتنا اسمه جريمة لا تغتفر. أخبرت عليا واسترحت. رجوتها ان تخبر أمي حين ذهابي للعمل صباحا وحين اعود تكون قد هدأت بعض الشيء.

ونحن على العشاء سألت عليا بهمس أخبرت امي؟ هزت رأسها بالنفي. كان جميل يتناول معنا العشاء. كل منا ينظر الى صحنه وكأنه العشاء الأخير. صامتين كموتى. فكرت هل أخبر عليا بزيارتي الصباحية للدكتور مينا. أجبت نفسي إذا عرفت من غيري ستعتقد بأنني ذهبت اليه ليساعدني دون اخبارهم. هذه مصيبة أخرى. تكلم جميل بعفوية موجها الحديث لي:

: خرجت باكرا جداً. ناديتك لأوصلك لكنك لم تسمعي.

التفت نحوي عليا بغضب متسائلة فهززت رأسي.

رفعت أمي رأسها وقالت:

: قلبي يحدثني أن هناك شيء ما، من سيخبرني بهذا الشي ويريح قلبي؟

نظرنا لبعضنا البعض لم يرد أي منا. تركت أمي المائدة دون ان تأكل. عدنا للوجوم مرة أخرى. قلت وكأني احادث نفسي. الحاسة السادسة التي تملكها أمي لا يملكها الا قلة من الناس. دائما تعرف ما نخفيه ودائما يصدق حسدها.

تردد بأذني صراخ عليا. ندبت حظها وحظي، الساعة التي دخل فيها احمد على حياتنا. وأنه لا يأتي من الأقارب سوى المصائب. من أجل هذا نحن

مبتعدين عنهم لا نخالطهم. ماذا سيقولون عنك بل عنا بل عن امنا. هل كان جميل معك في كل الأحداث التي عشتها. ما قاله الآن يوحي بانه معتاد على مرافقتك لمشاويرك السرية. هل رآك كيف ركعت على ركبتيك تستجدي رحمة من ذلك الحقير؟ هل عرف جميل بالحمل قبلي وقبل أمك؟ هل يعرف عنوان أحمد. قبل ان اجيب. تحرك جميل يريد الفرار سدت عليا الطريق وأمرته ان يبقى ويجيب. احتار المسكين ماذا يقول. فقد اوصيته ان يساعدني ويكتم السر حتى اتخلص من المصيبة. نظر نحوي رأى انكساري. سألته عليا بسخرية:

: تكلم ماذا تعرف؟

: طلبت مساعدتي وبما انني اعتبر نفسي بمنزلة الأخ لها وافقت. الحقيقة حاولت بكل جهدي تقريب وجهات النظر بينهما. لكنه تعنت بشكل صادم. كأنه لم يكن محباً وخطيباً وزوج مستقبل. كأنه لم يعرفها ابداً.

: متى رأيته؟

: قبل سفره لأبلغه اقتراح سلمى بالزواج فترة قصيرة ثم الطلاق. وقف عاقدا يديه فوق صدره بجانب حقائبه المتناثرة هنا وهناك. لماذا لا تكون انت والد الطفل. ارح الجميع واعترف. كان وجهه جامدا صلبا. ضيق الصدر. يتنقل في ارجاء الغرفة ناظراً نحوي باستهزاء. ضحك بهستيريا غريبة كأنه فقد عقله:

: بما أنك مصر على القيام بدور فاعل خير، تحمل المسئولية. اعترف به.

مسكته من كتفه بعنف وبلا شعور ادرت رأسه نحوي وقلت:

: كيف تمزح وتتضاحك والأمر جاد.

رفع سبابته الى صدره وقال بهوان:

: لأنني يا صغير لست طرفا اصلاً. لست الأب الحقيقي.

فتح الباب أشار لي بالخروج وهو يقول:

: قل للسيدات التي تعيش بكنفهن أنني لست بساذج لأقع بورطة مشينة. صرخت أخرسه إن ما يقوله قذف. اتهام لإنسانه شريفة أحبته. قلب شفتيه:

: شريفة؟ الزواج ليس ورقة مأذون.

لم احتمل هجمت عليه واوسعته ضربا. وقف ينفض ثيابه ويساوي هندامه. ليس ساعي بريد بل بلطجي أيضا. الآن تأكدت بانه ابنك. فانت المقيم ببيتهم ليل ونهار. استر عليها. رد لهم بعض الجميل يا جميل.

نظرت نحوي وهي تقول بصوت مرتجف:

: سأعيد النظر بموقع جميل. ربما تمددت شجرة اللبلاب أكثر مما ينبغي.

: جميل ليس ولي امري. انه يعمل عندنا. انا كلفته بمهمة وقام بها. كما تكلفه امنا او رشاد او أي فرد بالعائلة. كان يجب ان يكون بيني وبين احمد وسيط وهذا الوسيط يجب ان يكون غريباً. لقد تجرا أحمد وقام بعمل مشين. بعث لي برسالة على مكان عملي. معنونه باسم الوزير الذي أعمل وكيلة له. قرأها. قرأ مهانات تفوق قدرة أي انسان، مهما كان سافلا ومنحطا ان يقول مثله. أسئلة عجيبة أسوأ من كل تخيلاتي. مثلا. لماذا أكون أبا لطفل اتى الى الدنيا بطريق الخطأ؟ حاولي مع الأب الحقيقي لست الأول يا شاطرة. وكذلك متأكد لن أكون

الأخير؟ تذكري. كنت تأتي اليّ لاهثة برجليك. غير مرغمة أو مخطوفة. مبادرة سعيا وراء ممارسة لعبة الحياة. اذكرك لم ابادر بل كنت تريدين.

صفعتني عليا وبصقت بوجهي وقالت:

: الموت أفضل من أن تكوني زوجة لحقير. انت أكثر حقارة، لن اساعدك.

تجاهل الجميع معاناتي. كأن شيئا لم يكن. عليا قررت معاقبتي بتجاهلي. أمي مبتعدة كعادتها لا تدخل بيني وبين عليا. هذا الإعراض يشبه حالة اعدام معنوي لوجودي. صرت واحدة من طبقة المنبوذين الهنود. يتحاشى الجميع النظر نحوي. من يضطر للكلام معي، يكلمني بمهانة. كمن يتحدث الى امرأة ساقطة.

انزويت بمكان بعيد عن الجميع. احاول ان أنقذ البقية الباقية مني. أحرره من كل التهم. ابثه سخطا وغضبا على احمد الذي لم أستطع ابعاده عن تفكيري. غير مصدقة السرعة التي أنهى بها علاقتنا. كأنه القى بعقب سيجارة انتهى منها وسحقها بحذائه كما يفعل الحشاشون. مع ذلك اتخيله راجعا نادما. ويعيد الحياة لكل ما قتله بداخلي. بقدر ما كانت هذه الصورة تريحني، يعقبها أسى ومرارة لآخر لقاء بيننا. صورة لا يمكن ان تنسى. ترك الفراش قال وهو يرتدي ثيابه:

: قلت لك لن نتزوج. استغرب. لا تستوعبين الا ما يروق لك. اوف حرام وحلال وعيب وخطيئة. أتعبتني.

سقطت في حالة ضعف ورعب ومع ذلك حزمت أمري وصرخت:

: وهذا الذي نمارسه اليس باسم الشرع؟ والجنين في احشائي؟ الحب صار خزي. قد يغفر الحب. لكن نتائج افعالنا من الظلم ان يتحملها واحد منا.

قاطعني بوقاحة يصعب تصديقها:

: كل هذا لا قيمة له عندي. إذا ما تلهيت بعض وقت مع امرأة تلصق بي طفلا، فكم من الأطفال عندي. ههه. ثوبي لرشدك. تخلصي منه. اقتليه.

يا لبشاعة غد قادم. انتفض قلبي. كيف سأنسى؟ كيف سأعيش؟ دفنت وجهي في وسادتي لتشرب دموعي. ولأكتم صرخة وجع حبست في حلقي. وشريط مهانتي يتتابع في رأسي بل امام عيناي المسبلتين على وجعي اردد بيني وبين نفسي ما فعلته ليس عيباً ولا حراماً. من فرجة الباب الضيقة اطل وجه امي الحزين. اسئلة مثل سيف بعينيها غرسته بدمعة عيني الجامدة. قلت برجاء:

: أمي! لا تناصري الهم والحزن عليّ. كلام الناس والخوف منهم يعذبك وتعذبيني. كل من حولنا جبناء. يتهامسون. يعرفون اننا زوجان شرعيان. لقد شاركونا فرحين. زغردن وباركن. الآن تخشينهم. عيب وحرام. لا يراعون الله.

: إذاً ما يحدثني به قلبي حقيقي ليس تخميناً ولا حدساً؟ العيب اشد عتيا من الشرع فالله حليم ستار. هم ثرثارون يتسلون ويتندرون بكل مكان. سأكون بغرفتي حين تريدين الحديث. لن أعلق لك مشنقة لأنني أعرف أنها لي وليس لك. من حقك علّي أن اعلمك ما علمته لي أمي. البنت بنت والرجل رجل. في مثل هذه المواقف يهللون له ما أقترف. فهو الرجل لا يعيبه شيء. يتندرون ويسخرون من شريكته بالأمر. المرأة كبش الفداء. ذبيحة ممنوع عليها الدفاع عن نفسها. باعت برخيص وهو كسب دون ان يشتري او يبيع.

لا يوجد فسحة بصدري لأناقش معتقدات أمي. لأنها ليست خاصة بأمي ولا بجيلها بل هو قانون سائد وسيبقى لإدانة المرأة دون الرجل. ربما هذا سبب

استهتار الرجل بما يفعله او يقوله. الرجل لا يعيبه شيء. شعار ترفعه الأم بوجه بناتها كأنه حق. لن احادث أمي. لن أوضح ما يشقيها. سأنتظر ريثما تهدأ الأمور وتشتد عزيمتي. عدت لعالمي صامته حزينة، أفرغ غضبي على الدنيا وناسها.

أغلقت أمي الباب خلفها وانسحبت بهدوء. عدت لنفسي المقهورة. صرخت من أعماق قلبي الموجوع. من حيرتي. من انهيار قدرتي، من انهيار حجتي. من الدفاع عن نفسي. من أين ابدأ لها حكايتي معه. منذ اللحظ الأولى، عندما غدر بي في غرفة الجلوس في بيتنا، وحائط اسمنتي يفصل بيني وبين رأس أمي المستريح الآمن على البيت. لا تشعر بالذئب الذي أدخلته ابنتها رغم حرص الأم على الحفاظ عليه نقيا حتى النفس الأخير.

هل ابدأ من اللحظة الأخيرة في مواعداتنا الكثيرة؟ يا لهول ما قال. لن أنساه حتى اموت، كلام مستهتر وقح. الغريب قاله باعتداد كقائد منتصر:

: سلمى لا تخلطي الأمور أرجوك. أنت من تبادرين. أنت من تأتين اليّ. شيء مضحك مبكي. ليلة وأخرى، ولحظة لهو وأخر اصير أبا؟

نزلت دموعي سطورا على وجنتي التي ما زالتا متوهجتين من حالة الحب الذي وصلنا لها قبل دقائق في وصالنا الأخير. عرفت أنه الأخير. الطريقة التي يلبس بها ثيابه، الكلام الذي يقوله، النظرة الحقيرة التي يرمقني لها. هل تكون هذه الحالة هي حالة المرأة الساقطة التي تبيع الحب بورقة مالية وحسب. نعم اعتقد ذلك. وصلني شعور عميق بالمهانة. فارق الفراش وهو يرمقني بنظرة ازدراء. يرتب مقابلته بالغد لنذهب للمحكمة ليطلقني أو أفضل طلاقا غيابياً؟

سأخبر أمي بالحقيقة. نعم لأمي وليس لعليا. هذا حقها. وهذا حقي أن تتدبر أمي أمري. وصلت البيت وجدت امي ممددة في الفراش والدكتور مينا مشغول بإنعاشها. التفت ناحية عليا رأيتها بأوج تعاستها وغضبها. حاولت تحليل الموقف. هل عرفت أمي بمشكلتي ام اشكال عادي بين عليا وأمي.

ألغيت الفكرة. سأنتظر ريثما تتحسن الأمور. جميل واقف في زاوية بعيدة. متكدر وحزين. اقتربت منه وسألته بهمس. عما جرى يبدو اننا اقتربت أكثر مما هو مسموح. فإذا بعليا تحتد وتمسك بقميص جميل من الخلف وتشده نحوها فتمزقه. فقد توازنه للحركة المباغتة. فارتمى فوق كتفي. صرخت عليا بشكل هستيري ماذا تفعل أيها السافل. استمرت تهذي وتلعن والجميع تجمد في مكانه. لأول مرة اسمعها تهينه بألفاظ وسباب لم اسمعها تتفوه بمثله كل حياتي. طلب الدكتور مينا بهمس خروجنا من الغرفة أمكم ما زالت في حالة الخطر. خرج جميل هدأت الأمور، هدأت عليا. صمتها عويل ضجيج. قال الدكتور:

: الى متى؟ هذا الحال لم يعد بالإمكان السكوت عليه. بدقائق تنشب مذبحة كلامية وتهدأ فجأة كما بدأت دون انذار. كل يلقي اللوم على الآخر.

: ماذا تقصد يا دكتور. ما الأمر.

أجاب باقتضاب:

: اتضح ان أحمد لم يسافر بعد يا سلمى. اتى ليأخذ بعض أوراق تخصه ويحتاجها للسفر. استغربت الست مريم فسألته. بعد ثلاث سنوات خطبة تخبرنا باستهتار أنك مسافر غداً. ماذا عن سلمى هل أخبرتها او تترك الأمر لنا لنخبرها. ارتمست علامات الاستغراب على وجهه. ثم قال وهو يفتعل البراءة

بينما الاستهتار والبرود يفحم القلب. أوه.. ألم تخبركم سلمى. لقد اختلفنا على موضوع في غاية الأهمية. قررنا على إثرها فسخ العقد وقد طلقتها أمس.

بصراحة أدهشتني البساطة التي يتحدث بها عن طلاق وفسخ عقد كأنه يتحدث عن صفقة تجارية لم تعجبه يريد إرجاعها متناسياً أنه عقد شرعي موثق. كنت تصفين علاقتكما زوج وزوجة. هل كنت تعنين انكما زوجان بكل معنى الكلمة. ها هو تخلى دون المحاولة التوصل لحل الخلاف بحضور اهلك وأهله.

استدار نحوي. أمسك بالقرآن الموجود بجانب سرير أمي وهمس:

: هذا دستور عظيم. لكن كيف يقرأ؟ كيف يفهم؟ كيف يهجر؟ هو ليس للتبرك به. بل هو معلم. يبين الحلال من الحرام والخطأ من الصواب. حين نشتري جهازا ما او آلة كهربائية نجد بداخل الصندوق كتيب يحتوي على تعليمات لطرق التشغيل. تعليمات للصيانة وأخرى للكفالة. هذا القرآن هو بمثابة كتالوج، ليعلمنا خالقنا كيفية الاستعمال وكيفية الصيانة. ماذا أقول وأنتم أهله.

اقترب أكثر وهمس اتفقت مع الجراح لمساعدتك. هل عرفت الآن مدى الخطأ الذي ارتكبته. انت الآن في مأزق. سلمت نفسك أولاً لرجل آفاق ثم لامرأة جاهله. وأنت المتعلمة والمثقفة. انتظري تحديد الموعد. تنفست الصعداء ها هو الدكتور لم يتخل عني. بل تخلى عن شرطة لمساعدتي. أصرّ على معرفة اسم القابلة الجاهلة لتلقى الجزاء الذي تستحق.

يا الله كم تتغير الأشياء. كم يتغير الانسان. كم تغيرت مع هذه المحنة التي أمر بها. تدمرت علاقتي مع نفسي، مع امي، مع عليا ومع الدنيا. مع هذا الفستان الأبيض الذي استعجلت على جعله بقايا حلم. مهما طال بي العمر سيبقى

شعوري بالندم يقتلني. سأبقى على انطوائي وعزلتي؟ أنا الإنسانة المرحة. التي تشاكس كل من حولها لتشيع البهجة في النفوس. سأدفن نفسي بالعمل. آلة صماء لا روح فيها.

أؤمن بالوقت، علاج سينتشلني مما انا فيه. هكذا طبيعة الأيام. طبيعتنا مع كل مصائب الحياة. نمتصها كما يمتص ورق النشاف بقايا الحبر. هل سأشفى. هل اعود كما كنت؟ ربما إذا سمعوا حجتي وعذروني. إذا سمعوا مرافعتي عن نفسي أمام نفسي وامام من يستنكر ويدينني. لم ار ما حصل معي كما يصفونه، جريمة، لن أدين نفسي ولن اتقبل ادانتهم لي. كل ما في الأمر أنني إنسانة محبة. ربما أجرؤ على القول عاشقة مفتونه بحبيها. ليس ذنبي انه كان، للأسف، زوجاً بلا ضمير. قشرته الخارجية تبديه إنساناً عصرياً مثقفا. لكن مع اول احتكاك تظهر حقيقته. مسكون بطبائع شرق هارون الرشيد. يخلط كمعظم الناس بين الحرام والعيب. بين الزوجة والمحظية ما ملكت يداه. تحت جلده صبغة لون رجولة زائفة، لا تنفع معه مطهرات الدنيا ولا مستحضرات التنظيف الحديثة.

عاد جميل بعد غياب يومين وطرق باب البيت بطريقته التي نعرفها كلنا. في العادة يدخل مباشرة لكنه اليوم بقي خارجاً ينتظر. جميعنا سمع القفل يفتح. لم يخف أي منا لاستقباله. انتظر لوهلة كأنه يجس نبض أهل البيت. هل ما زال له المكانة ذاتها او اختلفت الأمور. قابلته امي ودعته للدخول بلا حماس قال:

: عندنا بعض المواعيد صباح اليوم أعطني مفتاح المشغل.

ناولته مفتاح المشغل ومفتاح السيارة دون كلام. ابتعد قليلا ثم قال:

: لتلحق بي علياء علي الذهاب لتسديد بعض الفواتير.

لم ترد أمي هزت رأسها فانسحب وأغلق الباب. لحقت به سألته أن يوصلني في طريقه الى مشفى الدكتور مينا. هز رأسه، فتح لي باب السيارة لي واستدار وجلس امام مقودها. ملتزما الصمت. هل يلومني لتوريطه بمشكلتي؟ غرقت من جديد بمشكلتي اتمعن بتبعياتها. ظهر الدكتور مينا على مدخل المشفى تنحى بي جانبا وأخذ يشرح لي عن العملية التي ستجرى لي. قبل دخولنا المصعد التفت الى جميل وقال: انتظرني أريدك بأمر هام.

كنت في حالة لا أحسد عليها بعد انكشف أمري بمساعدة سلمى دون الرجوع لعليا حسب العادة المتبعة في البيت. تغيبت بضعة أيام أفكر كيف لي بتدبير الأمر مع عليا، لم أجد سوى انتظارها لتبدأ هي من جديد في استجوابي. ألان ازداد توتري بعد الجملة التي القاها الدكتور مينا. جميل انتظرني. ما الأمر الهام الذي بيني وبين الدكتور ليحدثني به. لعله سيخبرني استغناء الأسرة عني. هو من رشحني للعمل عندهم قبل سنوات نسيت عددها. جلست في غرفة الانتظار متسائلا. إذا كانوا يريدون اعفائي من العمل معهم وطلبوا منه ابلاغي بهذا فهل وافقتهم عليا على قرارهم وتخلت عني؟

لا بد ان هناك امر هام. ماذا لو كان بقدرته على قراءة الناس حسب تخصصه قد اكتشف ما بدأ يكبر بيني وبين عليا؟ لا أظن فقد بقينا على تحفظنا امام الجميع. العلاقة ذاتها بيني وبينها مائعة، لم تتجاوز شعوري الشخصي.

الدكتور مينا ليس غريبا عني. أعرفه جيداً قبل أن أراه. كان الحديث عنه يكاد يكون يوميا قبل رحيل ابي وبعده. كان صديق ابي وأقرب المقربين منه. تقابلنا في بيتنا حين زارنا بعد عودته الى البلاد. استقبلته مع امي بحفاوة بالغة، كأنها تعتذر لرحيل زوجها قبل عودته من السفر.

الدكتور مينا يا بني. قدمته أمي لي. صديق والدك المقرب ادام الله عزه. انحنيت مرحبا مادا كفي للسلام فاذا بيده التي صافحتني سحبتني الى احضانه وهو يقول أنت نبيل قلت لا انا جميل. قال:

: يا الله انت نسخة عن أبيك. الحقيقة كنت انا ونزيه صديقين حميمين. نسكن الحي ذاته. ونرتاد المدرسة ذاتها. منذ اول ابتدائي حتى الثانوية. كنا

نتشابه في الشكل والألوان. نكاد لا نفترق حتى ظنوا أننا أخوان. أما نكون عندكم أو عندنا واما في المكتبة ندرس. أيام حلوه وعشرة لا تنسى.

جلسا امي والدكتور مينا، يتحدثان عن الصديق الراحل. طاف بذهني كلام أمي الذي كررته مرات ومرات بفخر ان زوجها كان صديق لشاب ابن عائلة كبيرة وثرية. اضطر نزيه للتخلي عن حلم دخول الجامعة ليتولى إدارة تجارة ابيه. كما فعل ابوه قبله وترك الدراسة للسبب ذاته. كانت تجارتهم رائجة. بيع السجاد الإيراني وشراء القديم وترميمه لتعود له حيويته ورونقه من جديد ثم بيعه. كانت أمي تحكي الكثير عن الدكتور مينا. قصته مع ابيه بعد نجاحه في الثانوية. غضب عليه وسجنه في قبو بيتهم الكبير. لم يخرج منه الا بعد استشهاد والده وأخيه الأكبر إثر معركة مع المحتل الفرنسي. كان أبي خير من دعم صديقه الأسير. ما ان يرخي الليل سدوله حتى يتسلل الى قبو البيت الكبير بمساعدة ام مينا، ليؤنس وحدة صديقه. يحمل له بعض الطعام الذي كان يحبه أو حلوى أو كتاب وقبل طلوع الفجر يتركه ليعود الى بيته لينام قبل الذهاب الى عمله.

سافر مينا الى لندن، توادعا بكل حب ودموع وحزن. صحبه ابي بسيارته الى المطار مع أمي التي كانت خطيبة في ذلك الوقت عرفها على صديقه، الذي هنأه على قراره بالزواج والاستقرار، رغم صغر سنه. قال بعبث الشباب اللطيف: مع أني ضد الزواج اهنئك على الأقل لن تبقى وحيدا.

بقيا على التواصل برسائل وبرقيات. يحكي له بالتفصيل عن حياته ومدينة لندن العريقة، والجامعة التي تعتبر مدينة بحد ذاتها، عن الطلبة عن الأساتذة والدراسة، والمقررات والامتحانات وكم تختلف عن المدرسة. كأنك دخلت عالماً

سحريا من عوالم الدنيا الواسعة. كأنهما ما زالا مع بعضهما ولم يتفارقا. أخبره مينا بأنه صرف النظر عن العودة. بداية تعلل بالاحتلال الجاثم على صدر الوطن. فيرد ابي ممازحاً. استغرب ما تقول وانت كنت ذات يوم مرشدهم. فيرد عليه بالله عليك يا صديق لا تذكرني بتلك الفترة التي لم يحميني من ندمها وكدرها سوى العقاب الذي فرضه ابي عليّ وكنت استحقه.

استمرت رسائلهما حتى رحيل ابي عن دنيانا قبل عودة الدكتور من غربته بعدة شهور. لكن مينا ظل على اتصال بأمي بين فترة وأخرى. حين أخبرته بان تجارة ابي كسدت بعد موته وتكاثرت الديون وقد رهن البيت قبل موته بقرض من البنك الذي أغلق المحلات مطالبا بالديون لفك الرهن. لم يتخل مينا عن مساعدتها. فك رهان البيت، ليبقى المأوى. بين فترة وأخرى يرسل مبلغا من المال حاثا أمي الا تخفي عنه شيئا طالبا منها ان تحرص على تعليمنا نحن الثلاثة. انا ونبيل الذي يكبرني وسهيل الذي يصغرني.

في تلك الزيارة التي قام بها لبيتنا. سأل عنا فردا فردا. شرحت له أمي بإسهاب. الكبير اسمه نبيل وهذا جميل والصغير سهيل. نبيل في المعمل يحاول إنقاذه بفضل مساعدتك التي لن ننساها. وسهيل طالب في السنة الثانية بكلية الهندسة. هذا جميل لم يفلح في الدراسة ادى خدمة العلم ومنذ تسريحه وهو يبحث عن عمل. لعل من حسن حظه أنك هنا لتساعده. دار حديثا طويلا عن ذكرياته مع ابي وخاصة أيام الانتداب الفرنسي. سألني:

: افهم أنك لم تتم تعليمك.

: لا. لقد أنهيت الخدمة العسكرية قبل شهور.

: يعني لا تحمل شهادة الثانوية العامة؟

: احمل الثانوية العامة. لكن بمعدل لا يتيح لي دراسة أي قسم. نصحني اخي نبيل بأداء خدمة العلم ثم نبحث عمل.

سألت امي بخجل هل ينفع بأي عمل دون شهادة جامعية. فقال:

: يعني كل البشر تحمل شهادات. لا بد وان يجد عملا يناسبه. لكن حسب اعتقادي سيبدأ من الصفر او تحت الصفر. ندى زوجتي. افتتحت مشغلا للأزياء النسائية ما رأيك تساعدها او ربما تتعلم صنعة الخياطة.

لم يعجب امي ما سمعته وقالت:

: خذه عندك في العيادة او المشفى.

: لن يستفيد بمجالي. عند ندى قد يتقن المحاسبة والإدارة قدر ما يجتهد.

قالت امي متبرمة:

: لنر. قد يجد نبيل وظيفة تناسبه. شكرا إذا لم يوفق سنفكر باقتراحك.

مضت شهور وانا اتأرجح بين وسائط ومحاولات حتى تأكد لنا صعوبة الوضع وصرنا نفكر بعرض الدكتور. أجبرتني أمي ان أكلمه على الهاتف. ترددت لكنه كان كما يقال عنه، بمنتهى اللطف. صاح بلهفة وكأنه تركنا أمس وليس من شهور عديدة. اهلاً جميل. اين انت يا رجل؟ على الأقل ردّ الزيارة. ليس كرامه لي بل كرامة للوالد فقد كنا اعزّ صديقين. أنتظرك غدا صباحا في مشفى الشفا بجانب بيتنا الكبير لا بد وأنك تعرفه.

استقبلني استقبال الفاتحين. لم يتركني اطلب عملا بل قال هيا الى المكتب حتى لا يزعجنا أحد ستشرب قهوتك بينما أكلم الدكتورة ندى بشأنك. أذا لم تجدها هناك اطلب مقابلة الست عليا وهي تتولى الباقي. توقف خيالي عن البث بدخول الدكتور غرفة الانتظار لاهثاً ومعتذرا عن التأخير. صحبني الى مكتبه وقدم لي القهوة ثم قال:

: أولا لي عتب صغير عليك. لم تزرني خلال سنوات عملك معنا. كنت اتابعك مع ندى ومع عليا. عرفت ان تعلمت بسرعة وصرت المشرف الفعلي على المشغل ووفرت الوقت والجهد على ندى وعلياء فتفرغتا للإنتاج. ثانيا. ما كان عليك ان تخفي عن الست مريم او الست عليا مشكلة سلمى قبل ان تستفحل الأمور وتتورط البنت مع انسان فاشل لا يعرف ربه ولا يخافه. وها هي المسكينة مخدرة تجرى لها عملية. الآن احك لي عن سنوات عملك بمكان واحد. أكيد بذلت جهداً خارقا لكسب الثقة فصرت الأهم.

: صحيح. ليست بسهولة. كان لكلامك أثره البعيد في نفسي يوم زرتنا. حدثتنا عن العمل والقدرات الكامنة التي يملكها الانسان. نحتّ الصخر كما يقولون لأثبت للجميع انني ودون شهادة جامعية أستطيع شق طريق للنجاح. لا أنكر الجميع ساندني وساعدني. حتى وقعت تلك المشكلة في البيت فوجدتها وقعت فوق رأسي. وجدت نفسي خاسرا بجدارة. لم اعط صفة في البيت الذي أعيش فيه بشكل دائم. أقوم بكل الخدمات اللازمة.

سكت فحثني على الكلام قائلًا:

: هل افهم من هذا أنك تشتكي بأن حقك مهضوم؟

: لا ابدا فقد اعطوني أكثر مما استحق. لم أطالب بزيادة راتب. ولم اطلب تخفيف عبء العمل الذي أقوم به. عليا والوالدة لا تبخلان عليّ بشيء. ربما كانت عقدة الوسط متمكنة مني وقد عشتها قبل رحيل ابي وبعد رحيله. ليس الأول البكر ليلفت النظر وتحمل امه اسمه وكأنها وسامها الأجل والأعظم. ولا هو بآخر القائمة ليلقى التدليل ويمارس عليه هوس الامومة الهاربة والمنتهية صلاحيتها. عليّ احترام الأكبر لأنه بديل الأب وادلل صغيرهم مهما كبر.

عدت للصمت خشيت ان أكون قد أطلت فهز رأسه متشجعاً.

: بعد ذلك قررت رفع الظلم عن نفسي. أريد صفة ما في بيت أعيش فيه نهاري كله وجزء كبير من الليل. رأيته حسن طالع ان يختار المرء عيلته ويحبها وتشعره بحاجتها الماسة لوجوده كما حصل معي. بدأت معهم بمرحلة شبابي المبكر. كنت أقوم بكل الاعمال من تنظيف وقضاء الحوائج للجميع حتى صرت موظف شرف أحل المشاكل، بقيت ذلك الشخص الممتن لا يرغب بالمزيد.

تنبهت حين بدأت تسأل عني، مستغرباً حصولي على تلك المكانة الشخصية. ودخل مادي يزداد. وددت لو أخبرك بنفسي كم ساعة أعمل في المشغل وفي البيت. وكم تعلمت ونضجت. خفت ان تشككهم بنزاهتي. اسرق او اتلاعب. قد يصدقونك. منزلتك كبيرة عندهم، فرد جناحك عليهم قد يغنيهم عني. حسن حظي انني حظيت برضى عليا وعطفها دونك. ظننت ما كانت تبديه لك من تحفظ سببه خاص جداً حرصت الا يتوصل اليه أحد رغم ثقتها بحكمتك وتقدير خدماتك، التي تبدو لي مبالغ فيها وأنت الطبيب والخبير. فتحت عليا امامي الباب الذي أوصدته دونك.

: لا اصدق أنك استشعرت أي تهديد من طرفي لوجودك بينهم. ليس لدي دافع غير اعانة اسرة ذهب عائلها مبكرا. لا أعني هنا المساعدة المادية بل أشياء أخرى يحتاجها أي منا. تواجدت بينهم بعد رحيل عائلهم أكثر من قبل. حاولت تعويضهم لوجود من يسأل ويهتم ويساعد خاصة عليا التي كادت تجن لفقدانه. تفهمني طبعاً، احتياجهم لوجودي حتما غير احتياجهم لك.

: ثم بدأت أتفهم مشاعر علياء آنذاك تجاهك. لاحظت انها مغرمة بك معجبة. تعتبرك حقها دون كل من حولك. بل هم دخلاء على حياتها وحياتك. بعد ان استطعت كسب ودها لأنها بالنسبة لي ملجأ ومأوى. سفينة نجاة. احترمها وأحببتها. وبدأت أؤكد لها ان مشاعرها تجاهك مجرد اختلاط الأمور عليها بعد وفاة والدها. ازدادت انشغالا وهماً. لا طاقة لي على إغضابها. ولا أحتمل حزنها المتجذر منذ سنوات طويله أكبر من عمري. قد تتعكر الأجواء بيننا فأبادر باسترضائها بكل الوسائل. ولا اعود ابدا لفعل الشيء اغضبها ولو كان امراً من الأم. اعطيتها الثقة أنني طوع امرها وبخدمتها. ابتعد عن تعكير مزاجها بتشككها بعواطفها. بدأت اتجاها جديدا لألفت نظرها لولائي التام.

بمرو الأيام اطمأنت لي واعترفت لي بانها لا تستطيع ابعادك عن فكرها وقلبها. صرت أحاول ان الفت نظرها لمشاعري. وانني قد أكون البديل عن الوهم الذي صار يكبر ويكبر. وقد كبلتها الدكتورة ندى بالمزيد من الحب والرعاية والاهتمام بتعليمها واخراجها من وهم خدمة العائلة. بالمقابل صارت تزداد وجعا لمجرد التفكير بك كرجل وحبيب والدكتورة ندى على ما هي عليه من دفعها لتكون أفضل.

: لعلك نجحت بتحويل مشاعرها نحوك فانت خال وجاهز لكن الفارق الكبير بين عمريكما ظل حائلا بينكما من وجهة نظرها. فليس من المعتاد وخاصة في بلادنا ان تتزوج امرأة بعمرها بشاب بعمر ابنها، الا إذا كان هناك اهداف أخرى بنفس كل منهما او أحدهما. والأمر يختلف في مشاعرها نحوي كانت تراني مناسباً لأكون حبيبا مع أني كنت أحاول تعويضها غياب الاب. شيء ما غير مفهوم بالنسبة لي. كيف وصل تفكيرها بي. شيء يصعب تحديده.

: بالنسبة لي كنت أحاول انقاذها من وجع جديد. مقابل راتب مجزي دوام كامل. مخالطة العائلة كفرد منها كنت قريب من عمر سلمى. قربتني الأم أكثر من الجميع. قد اقترح على السيدة الأم ما الذي ستطبخه اليوم او غدا. انا من احدد متى نذهب لتناول الغداء خارج البيت، والى اين. وانا من يحاسب وانا من يقضي للبيت كل حوائجه. نعم كنت أقوم بكل شيء كمولد الطاقة، لكن بلا صفة رسمية. لم يدهش أحد لتقاربنا انا وعليا فنحن معا بالبيت والعمل وفي كل المهمات. مسئول البيت الأول من الفه الى الياء. بصراحة صرت رجلها. ليس رجل العائلة كلها وانما كنت محسوباً على عليا. لا يستطيع أحد طلب خدمة او يكلفني بعمل دون الرجوع اليها. اهتمامنا ببعضنا البعض، مشاعرنا الصادقة، لم تكن محل نقد أو تعليق لم يقلقني الغد. انا هنا وسأبقى.

: لماذا خفضت صوتك عند التحدث عن عليا مع اننا وحدنا ؟

: علياء لها شأن كبير في قلبي وعقلي. بداية تعارفنا كنت في العشرين من عمري وهي كانت في الأربعين. اهتمامها دفعي للأمام، تشجيعها طبيعيا كأننا أم وأبنها. بدا لي في ذلك الوقت أنها مسحورة بك يا دكتور. معجبة بشكل كبير.

اسمعها حين تحكي عنك او معك. أرى فرحتها باهتمامك بها. لهفتها حال سماع صوتك. تتحدث عنك معظم الوقت. ذات مرة نظرت لها أمها نظرة لوم فهمتها. ردت على النظرة بعنف مع انها كانت نظرة أم حنون. لا تخافي انها مشاعر طيبة تقديرا لما يقوم تجاهنا. اعجاب فقط يا أمي. زوجته عزيزة عليّ. إذا أحسست فيما بعد بشيء أكبر سأترك البيت والمشغل.

: لماذا لم تخبرني وانت من طرفي. كنت ساعدتها بطريقة صحية أفضل منك؟

: لم أتكلم بهذا الموضوع احترمت خصوصيتها وقدرت ثقتها. تسر لي ببعض أحزانها. بعد حديثها مع أمها تجرأت وسألتها عن مشاعرها نحوك. أخبرتني بكل براءة انه ينتابها شعور غريب كلما قمت بزيارتهم وذهبت. تتألم لأنك تلومها على مشاكلها مع أمها. تتألم لأنك لا تحس بها وبمشاعرها الكبيرة نحوك. نصحتها بالابتعاد عن مجالستك قدر الإمكان وخاصة حين تأتي لزيارتهم دون زوجتك. قلت انه بمثابة امتحان لشعورها الخفي نحوك. مرتكزا على وخز ضميرها وشعور بالذنب كونك زوج اعز انسانه على قلبها.

: أنت تتلاعب بي. أتريد تبرير خطأ ارتكبته تجاه عليا لتنال رضاها؟

: ابداً يا دكتور. لا اخفيك، صرت أجمع ورق للعلب بمساحة أكبر عن ذي قبل. بيدي ثلاث ورقات في الأسرة الام وعليا وسلمى. بعدها سيكون قبولهم لوجودي تحصيل حاصل. أنا من تأمني على المشغل واحتياجاته وزبائنه. وأنا الوحيد الذي تأمنه الأم قضاء احتياجات البيت. عشرة سنوات مرت وأنا مثال الأمانة. كبرت الأم وعلياء وصارتا تقضيان جل وقتهما في البيت. الأم تهتم بمطبخها واصناف طعامها بينما علياء متفرغة لتصاميمها وابداعاتها التي صارت تنافس اجود

الخياطات المتخصصة. صار البيت والمشغل رهن اشارتي. كل هذا بنية سليمة تجاه الكل. لم أفكر بطمع، بسرقه، وبتهاون. أقوم بواجباتي على الوجه الأكمل نتبادل ثقة بثقة مطلقة.

: أنت تخيفني. تتحدث عن بيت واسرة ومكان عمل بلغة التجار.

: لا أعرف عن أي شيء تتحدث. كنت أقوم بما أقوم به وكأنهم مني وأنا منهم. بدأت الأموال تتدفق من رشاد. مدت البيت بروج جديدة وحياة رغيدة. ارتفع مستوى المعيشة للعائلة وللمشغل ايضاً. كنت من ضمن من استفاد، دون طلب مني، بل بحكمة الأم وعطف عليا. كل هذا حفزني للقيام بأكثر مما هو مطلوب. تحمست الأسرة باقتراح علياء ان يكون لي نصيب من الأرباح. أغدق عليّ الكثير تحسن دخلي فتحسن مظهري كمدير.

: كأنني افهم أنك تفكر بإيجاد مكان شرعي في الأسرة. وهذا خطأ. لأن عليا تكبرك بسنوات وسنوات، والأخرى تعلقت بجب فاشل ما زالت تعاني منه. ثم أنها متعلمه أكثر منك.

: صحيح. بدأت أفكر بسلمى بعد ان صارت مكسورة القلب مهيضة الجناح. كنت دائما بجانبها صديق مقرب. تفتح قلبها على الغارب، تشكو غدر الانسان الوحيد الذي احبته في حياتها. تطلعني على الرسائل الغرامية التي كانا يتراسلانها قبل الخطبة منذ أيام الدراسة الجامعية وبعد الخطوبة وبعد عقد القران. تسألني أتراني فهمت مشاعري ومشاعره بشكل خاطئ؟ والا ما كان معنى مخاطبتي سواء بالرسائل او مواجهة بزوجتي الحبيبة او حبيبة القلب زوجتي الغالية؟ وإلا ما معنى الوعود الكثيرة بتحقيق احلام تبادلناها، عدد الأولاد الذي

سننجب. تنهي الحديث متنهدة تقطّع القلب بتذكر طفلها الذي قتل لخسة والده وجبنه ونذالته. اسألها هل احببته فعلا؟ تجيب لن أحب غيره وسأبقى احبه. الحب عندي، كيان، مخلوق له روح. يعيش معي. لم ولن اتجرأ على قتله.

: ومع ذلك جعلتها ورقتك الرابحة.

: لم لا؟ لا يمكن لإنسان أخذ كل شيء. هي بلا صفة بينهم وأنا كذلك. لم ينسوا او يتناسوا كيف بدأت عندهم خادم ثم تسلمت إدارة كل شيء. ما زلت في نظرهم ذلك العامل البسيط، صفر اليدين. من هنا تفتحت شهيتي للكثير. اليس من حقي وقد تجاوزت الثلاثين ان أفكر بغدي. بمستقبلي. شخص واحد لم يكن راضيا عن حصولي على ثقة العائلة هو أنت. سمعتك ذات مرة تقول لعليا. انتبهي. كل انسان عنده هدف يود الوصول اليه بوسائل يملكها ويستغلها.

سألتك عليا:

: ماذا عند جميل ليستغله اراه انسانا عاديا. يعرف حجمه ولا يتمادى؟

: رأسماله مظهره، وسامته البادية. شباب وذكاء وعقل يفكر وقلب محروم. لم لا يتكئ عليهم في مشواره معكم؟ اصدقني القول هل انت من حرضها على الابتعاد وانقطاع اخبارهم سنة بعد سنة.

: ابداً. اتخذت القرار بنفسها فجأة. أخبرتني مسبقا بأنها ذات يوم ستبتعد. في آخر زيارة قمت بها للمشغل ولم تكن الدكتورة ندى موجودة. طلبت مني ان أخبرك انها غير موجودة مع انها كانت بغرفة القياس. سألتها بعد ذهابك عن السبب قالت انها لم تعد قادرة على الاحتمال بإخفاء مشاعرها على نفسها على

الأقل. عيناها منتفختين من البكاء والقلق كأنها بكت طول عمرها. انقطعت عن عملها في المشغل مدة يومين. في مساء اليوم الثالث طلبت مني أخذها جولة بالسيارة مررنا بجانب عيادتك المضاءة. لمحنا خيالك ذهابا وإيابا. همست آن أوان الابتعاد عن هذا الرجل.

: ماذا تقول؟ عليا ابنتي. أشقاني بعدها وقد صرنا عائلة واحدة. تمنيت ان أعرف سبب ابتعادها.

: لا اصدق أنك لم تحبها دكتور مينا؟ ربما عانيت مثلها. لعلك..

: ما هذا الذي تقوله يا ولد. أحببت الجميع دون غرض لله وفي الله وبالله.

: تصدقني ان قلت إذا طلبت مني عليا قتل نفسي لفعلت؟

: لعله شيء من العرفان بالجميل. أنت ابن رجل خلوق.

: اذاً سأخبرك بالشيء الذي لا تعلمه. عليا احبتك سنوات طويله، لعله كما قلت الآن كان حبا من طرف واحد يا دكتور مينا. منذ دخلت حياة تلك الأسرة، والجميع عاملني بتقبل غير عادي. كنت بدوري احسبه عرفان بالجميل لك كما وصفت مشاعري تجاههم الآن. بمرور الوقت ومع المكانة التي نلتها بينهم عرفت كم كانت عليا تحبك وتقاوم. كم شقيت بمقاومة مشاعرها.

: أي مشاعر يا رجل هل تلعب بي. كانت ومنذ البداية تناصبني العداء. تعترض على كل رأي ابديه وإن كان من اختصاصي كطبيب. حاولت جاهدا اقتحام اسوار عنادها فيصدني صمتها. وددت من كل قلبي مساعدتها في تخطي أزمتها الدائمة مع أمها. هل عندك فكرة عن سبب هذا الشغب مع أمها؟

: ربما لأنها ضحت بعمرها كله بخدمة الأسرة. فالست مريم اعطتها مساحة واسعة في البيت وعلى من في البيت. ما أعرفه هو شعور الست مريم نحوها كبير. تحبها وممتنة لكل ما تقوم به تجاه الجميع. بعد رحيل الأب نصبتها مكانه وأعطتها الحق الذي كانت يتمتع به كرجل البيت.

: شيء مثل هذا من المفروض ان تقدره البنت لأمها بدل ان تضهدها وتقسو عليها. هل حكت لك شيئا عن ماضيها. كأنها عاشت الحياة كمأساة.

: لا شيء سوى تعلقها بأبيها وحزنها عليه. أريد أن أسألك سؤالا أرجو الا يغضبك. هل إذا تقدمت لخطبة سلوى تساندني وتزكيني. فأنت صديق أبي المقرب فهل لي اطمح بأن تنوب عنه في هذا الموضوع.

: هذا أمر سابق لأوانه دع سلمى تسترد عافيتها الصحية والنفسية.

اعتقدت أن جميل سيأخذ بنصيحتي ويتريث. ويؤجل الموضوع كما طلبت منه. لكن بعاد الأسرة المتعمد عنا أنا وندى سبب لنا قلق. يمر بخاطري صوت جميل وهو يحدثني عن الحب الذي عانت منه تجاهي. اشفقت على ندى ان يمسها سوء لو سمعت مثل هذا الكلام. فكثيرا ما أحبتها وأعطتها وقتها وعلمتها فنها. والذي أعرفه عن عليا تقديرها الكبير لكل من يساعدها. كادت علياء تجن من الفرحة يوم فاجأتها ندى بتنازلها لها عن مشغلها عن طيب خاطر. هل أنكر كل هذا. فتقدير شاب فتي لم تعركه الحياة لا يجب لمثلي أن يعتد به. ثم أني أعرف عليا تمام المعرفة. إذا صدق ما قاله فعلي ان اشك بقدراتي كإنسان وكطبيب نفسي. كيف لم افهم؟ كيف له الا يخبرني لأساعدها؟ كان يجب اخباري كانت بحاجة ماسة لي لتخرج من محنة كهذه. محنة صعبة على الأنسان السوي فكيف بمثلها وهي تعاني عقدا كثيرة في حياتها ومن حياتها.

أخذت الأيام تتداول وعليا بمنأى عني وعن ندى. كدت أصدق مقولة جميل. فهذا الجفاء حقيقي ومدبر من طرفها. كانت ندى رغم كل مشاغلها تبحث عنهم دون علمي. وفي سؤال عابر سألتها عنهم قالت:

: لم أشأ ان اخبرك انهم اختاروا الابتعاد عنا بمحض ارادتهم. رشاد أرسل مبلغا كبيرا من المال بمشاركة خالهم كريم لشراء بيت لهم. فانتقلوا اليه دون ان يخبرونا. معك حق ان تستنكر، هذه صفات غريبة على عليا التي نعرفها وعلى أسرتها وقد كنا عائلة واحدة تقريبا. الجديد انهم قبل أسبوعين تركوا المشغل ايضاً. حاولت التقصي فلم أفلح. انقطعت كل صلة بيننا وبينهم. كأنهم لم يكونوا ذات يوم شغلنا الشاغل لم تعد تربطنا بهم علاقة من أي نوع سوى علامة استفهام تلوح بعيني ندى وبرأسي. اتصلت مرارا برشاد وبكريم حتى طمأنوني

أنها إرادة عليا ولم يسألوها عن السبب. اطمئن قلبي وتركت الأمور تجري في أعنتها. سرني كثيرا ان رشاد لم ينسهم. سررت أكثر انه تخرج وتحسنت أحواله بالعمل وجرى الخير بين يديه فتقاسمه معهم بطيب خاطر. كم فرحت ندى بهذا الخبر. نسيت حزنها لغيابهم بتلك الصورة البشعة. بسرعة وجدت لهم اعذارا، لكني لم أجد أي عذر يرضيني. كلما تذكرتهم اشعر بأسى، رافضا تلك الطريقة الغريبة التي اتبعوها. حاولت ندى اقناعي بأن مثلهم لن يقدموا على مثل هذا التصرف إلا وعندهم عذر ما. سبب ما. فأجيب لا شيء سوى ان عليا تكرهني لننسى. قالت ندى ضاحكة:

: أو تحبك. لعلهم استغنوا ولم يعودوا بحاجه للعمل.

أجيب بثقة:

: عليا تعلمت من خبرتها مع الحياة ومعنا، ان العمل ليس مصدر الرزق فقط بل هو قيمة. عليا حالة. اثبتت ان لا شيء يثني انسان عن عزمه، إذا اصرّ على النجاح تعبت جداً للوصول ودفعت ثمنه شبابها وعمرها. هذا نجاحها يا ندى لا أظن أن أحداً قادر التخلي عن نجاحه بسهولة.

بعد مرور وقت وقد خيل لي ان صفحتهم انطوت في غياهب الأيام. كنت وندى في لندن فقد استدعانا تقي الدين على عجل. وإذ به يفاجئنا بعروسه التي اختارها. اعتبرتها خطوة مباركة بعد ان كان يسوف محتجا بأنه لم يجد المرأة التي يريدها زوجة. يقول تمهلوا حين أجد تلك المرأة وسأجدها ستكون تلك زوجتي.

فوجئنا بوجود الست مريم ام رشاد هناك للعلاج. تألمت جدا من الجميع. حتى اخباري عن حالة الست مريم مريضتي لم يسمح به. بعدها قررت ان

ابتعد بدوري احتراما للأسباب التي رأتها عليا دوننا وابتعدت. هذا لا يعني انني وافقتها على خيار الابتعاد كما شاءت. لكنني بين حين وآخر أجدهم في عقلي وقلبي ومشاعري بأمان وسلام. وكعهدي لا زلت على استعداد لقضاء أي خدمة يطلبها مني أي منهم.

يوم قررنا العودة همست ام رشاد بأذننا انا وندى، ان عائشة ورشاد قد وقعا بحب بعضهما البعض. شاركناها بالفرح والضحك. كنا نشك بوجود علاقة بينهما منذ بدايتها منذ كانوا في الثانوية. منذ العلقة التي اكلها رشاد في المظاهرة. مدى الذعر الذي كانت فيه عائشة ذلك اليوم ولكنا انتظرنا حتى اعلامنا.

تنهدت ام رشاد وهي تقول ربنا يتمم على خير اين سنجد عروسا لرشاد مثل عائشة وام عائشة وابيها أيضا. أنتم خير من عرفت في حياتي الطويلة. كنتم لي خير معين وخاصة بعد سفر رشاد. أخجلتموني جدا. كريم شاركها رأيها بل وأكد اننا اسرة واحدة. كنا وما زلنا وسنبقى. وافقت عليا على قرارها بترك البيت والمشغل لتكملوا مهمتكم الإنسانية كما كنت يا دكتور تحلم. سررت جدا حين علمت من تقي الدين انكم جعلتموه مأوى للأطفال ذوات الاحتياجات الخاصة.

رافقت السيدة مريم وكريم ورشاد في رحلة البحث عن علاج لها. اجمع الأطباء ان الوقت تأخر ولن تفيد اجراء عملية. قرروا لها تتناول الادوية التي كانت تأخذها مع إضافة علاجها بالإشعاع.

أحرجني سؤال كريم:

: كيف يا دكتور مينا وانت الطبيب الجهبذ لم تكتشف المرض مبكرا.

: حاولت عدة مرات أخذها للمستشفى لإجراء بعض الأشعة المطلوبة لكنها كانت ترفض بشدة. تحتج بأنها ستنتظر سفر رشاد وتزويج سلمى. والباقي انت تعرفه. لا يحق للطبيب اجبار مريض على شيء.

طبعا لم أخبره برفض عليا علاج أمها والذي كان وما يزال احجية برأسي. عدنا من لندن ورافقتنا ام رشاد. كانت طول الرحلة تسأل لماذا عادت معنا قبل ان تتلقى العلاج هناك كما وعدها رشاد. كنا نرد بشكل مقتضب لكنه لم يفتها السبب الرئيسي فقد عادت للجلوس بجانبي في الطائرة وهي تقول:

: أعرف لا فائدة ترجى من العلاج فقد نفذ سهم الله.

تشاغلنا أنا وندى عن الإجابة. لا يمكن ان نخدع سيدة بمثل هذا الإحساس الفطري بقرب النهاية. قابلت مستقبليها علياء وسلمى وجميل ونجوى بالمطار وهي ساهمه تنتقل من حضن أولادها واحد بعد الآخر. كأن الجميع بواد وهي بواد آخر. همست لي وهي تودعني هل سنخبر البنات لماذا ارسلني رشاد قبل إتمام العلاج لم بعد هناك امل في شفائي. همست لها بوجع. لو كان الأمر بيدنا.

عادت المقاطعة الى سالف عهدها. وعدنا الى حياتنا ومشاغلنا وحيرتنا وتساؤلاتنا التي تبقى بلا إجابة. خاصة ان علياء بقيت جامدة تكابد مشاعرها تجاهنا. وحين كانت ندى تخبرهم عن المفاجأة التي أعدها لنا تقي الدين بأنه التقى بشريكة حياته أخيرا بمحض الصدفة. لم يشاركها فرحتها أحد من الواقفين معنا سوى ام رشاد همست ربنا يتمم على خير.

أرسلت عليا لندى بطاقة دعوة لحفل عرض لآخر ما ابتكرته من الأزياء في فندق الهيلتون سألت ندى لماذا لم تدعك وهي تعلم اننا شخص واحد. أجبت

مداعبا بوجع لعله حفل للنساء فقط. ضحكت ندى وقالت غير ممكن ليس عليا من تقدم عرضها للنساء فقط اما نذهب سويا أعتذر.
كان العرض فاتناً جميلا غير عادي احتضنتها ندى وقبلتها وتمنت لها دوام هذا النجاح. سألتها عني قلت سيأتي ليبارك لك هذا فرحتنا جميعا يا عليا. حين دخلت قالت ندى ها هو قد اتى. قررنا ان نأتي معا مع أنك نسيته ولم تدعه. هيا مينا قبلها احضنها انها ابنتك كما تقول. تنحت عليا وقالت انتما علمتماني الكثير ولكما الفضل أولا وآخرا.
قلت معاتباً:
: لا أعرف هل لي الحق ان أعاتبك على ما تفعلينه بي. أريد ان أعرف سبب هذا البعاد عني انا وندى.
تنهدت بوجع وقالت بأسى:
: هل لا تعرف حقاً.
: لا. لا أعرف. وإذا سمحت لي أصر أن أعرف.
: أمور مثل هذه تعرف بالإحساس تعرف بالنظر تعرف بالإشارة.
: إذا كنت تنتظرين ان أفهم فأنا لست بلبيب العرب. لا تتركيني على غبائي؟
: فات الوقت لم يعد يجدي. ما رأيك بتصميماتي؟
: أنت بحق تلميذة نجيبة لندى.
: لا تنس شيئا يخص ندى مع أنها أخبرني إنك كنت تنسى اسمها زمان.
: هل هنا تكمن المشكلة؟
لم ترد ولكن تلميذاتها دخلن فجأة وأحطن بها بفرح ومرح ورفعن أمام عيني الكتيبات التي تحتوي على الفساتين المعروضة قالت إحداهن: هل ترى يا

دكتور كيف كتبت الست عليا اسم كل واحده منا تحت الفستان التي ساهمت بإنجازه. قلت وأن انسحب من بينهن:
: هذه هي عليا منذ عرفتها، كبيرة سامية عالية كاسمها.
خرجت وبرأسي دوامة ن التفكير يأخذني ويعيدني سنوات طوال تقرب أكثر من عشرين سنة. منذ عرفت هذه العائلة. منذ احببتهم وأحبوني. الم يخالط نفسي شي مما احسته عليا تجاهي. فجأة خطرت ببالي وهي تبكي يوم وفاة والدها لائذة بين يدي وبصدري. ثم لمحتها وهي متأنقة وذاهبة لحفل أقيم لعرض أزياء غيرها من المصممين. كدت لا أعرفها وانبهرت بهذه الصبية الجميلة وسألتها متى كبرت يا فتاة؟ حين كنت لاهيا عني يا دكتور. شغلت بالي كثيرا يوم تركتنا وغادرت دون اخبارنا انا وندى ونحن أقرب الناس اليها. هل هذا يعني انني اكنّ لها مشاعر دون ان أعرف. هل هذا شجعها على التفكير بي كحبيب. هل أحست بمشاعري قبلي. هل مشاعري تجاهها تشبه مشاعري تجاه ندى او العكس هل تشبه مشاعري تجاه ندى كتلك التي أحسها الآن تجاه عليا.
الآن ما هذا الذي سربته لي بطريق غير مباشر. انها المرة الثانية. كانت الأولى قبل سنوات يوم تدخلت بينها وبين أمها لتوافق على صديق لي تقدم لخطبتها. صديقي ذلك الرجل الشهم. تحمست له وحاولت اقناع والدتها ان تفرج عنها من حقها ان تعيش حياتها. بذلت ندى يومها كل جهد لكنني لم أكن بمثل حماسها لأقنعها. اذكر تماما الجملة التي قذفتها بوجهي بغضب بمثل الغضب الذي يرتسم على وجهها لحظة مجابهتها لأمها. قالت رداً علة تساؤلاتي لماذا لم تعلن موافقتها رغم رفض أمها. بصوت أعلى مما ينبغي لموضوع مثل ذلك الموضوع ولا لمثل قول كهذا القول. إذا كنت لا تعرف سبب رفضي فأنت لا تستحق ان أقوله لك. خرجت

وبوجهها عبوس وغضب لا يوصف تاركة المكان الذي كان يجمعنا وحدنا هل حقا لا تعرف؟ هل حقا لم تفهم؟ يا لتعاستي. حقا يا لتعاستي وحظي العاثر.
غادرت الغرفة وتركتني وكلي حيرة وكلي تعاسة. ودموع غزيرة تدفقت على وجنتي لا أعرف متى تجمعت؟ ولا لم هي بمثل هذه الملوحة وبمثل هذا الفيضان جلست بمكان وتواريت به عن الأنظار ريثما تهدأ مواجعي. دخلت ندى تبحث عني حتى سمعت نشيجي. بسرعة كانت تحتضنني وتمسح بقايا الدموع وهي ترفعني من مكاني وتقول الست مريم غابت عن الوعي وعلياء ما زالت تشن عليها حربها. هل اوجعت عليا بكلماتك فأثرت غضبها فصبته جاما على امها المسكينة. أكيد هذا ما حصل وإلا لما ندمت حتى البكاء.
كانت الست مريم في غيبوبة لم تصلها في أي مرة انعشتها حين استردت وعيها لامست وجهي بيدها وقالت: ارجوك اتمم الموضوع كما تراه لن اتدخل بعد اليوم. كان الأب يجالس الدكتور الضيف ويحاول ان يلطف الجو مؤكدا أن رفض طلبه ليس بسبب أي عيب فيه لكن عليا لا تريد الزواج ابداً. خرج صديقي ربت على كتفه وان اعد انني سأبذل قصارى جهدي لإقناعهم وسأرد له الخبر السعيد الليلة.
دخلت عليا وكان الجو ما يزال يبرق ويرعد وإذ بها تقول: أمي استطاعت اقناعي بتأجيل فكرة الزواج لعل الله يزيل عني عاهتي وأصبح مثل كل البنات بقية عمري. لا تهتم يا ابي ما زلت صغيرة والحياة طويله. ثم انقطعت عنا وغابت ونسيتني ولم انسها.
خرجت من الحمام ملتفة بمناشفها الوردية التي دائما أراها تتنافس مع لون وجنتيها. لكن ما هذا الضجيج في كيانها؟ الحق يقال كان جمالها يتفوق على

نفسه كلما أنظر اليها. لكنني لم ار حسنها يتلألأ بمثل هذا الابهار. هل للحزن المطل من عينيها، من اندهاش حاجبيها وجبينها كل هذا البهاء. كان جمالها الباهر يضيء المكان التي تتواجد فيه. لفت انتباهي حزنها قبل ان أتملى هذا التكوين الذي خلقه فأبدع. وأغازلها كما أفعل كلما وقع نظري عليها القت بنفسها على سريرها وغاصت بشرود ليس من عادتها كانت تشاكسني فأعرف انها دعوة منها لأداعبها لم أر ما كنت انتظر. بل ازداد البريق الذي يعني دموع سخية ستهل بعد قليل. فتداركت الأمر وانحيت واحتضنتها وسألت بتوجس.

: ندى. هل من مشكله حبيبتي؟ ما هذا الحزن وهذا الخوف والصمت؟

كشفت عن ثديها الأيسر وقالت:

: تأكد بنفسك؟

: ماذا هناك؟

: مصيبة يا مينا.

فهمت لكني لم اصدق شأننا مع كل امر جلل. قلت لنفسي أهون عليها مصابها انه وهم كل امرأة. كنت اسرّ حين اعرف ان توعيتنا للنساء بشأن هذا المرض لم تضع هباء. أصبح هذا المرض محل تساؤل ووعي عند النساء والأزواج. صار المرض محلّ اهتمامهن وحرصهن على الكشف الدوري له. حتى الطبقة الدنيا من العالم. انصاف المتعلمين، وحتى الجهلة. هذا يعني، ان الحملات في كل ارجاء الدنيا أعطت نتيجة. لكن كنت في واد بعيد وزوجتي وحبيبة قلبي في واد. انه السرطان يسري بثديها الشمال.

تجلدت وأعلنت امامها بكل ثقة، انه لم يعد مفزعا. من السهل علاجه إذا تتبعنا العلاج من الفه الى ياء. لنذهب ال المستشفى ونجري الفحوصات اللازمة ونبدأ بمقاومته. دفنت وجهها بفراشها. بكينا معا كما لم نبك طول حياتنا.

لم أخبر أحد، ولا حتى ولدينا. سننتظر حتى ننتهي من تحليل الكتلة التي صارت في أنبوب الاختبار. كنت واقفا بجانب الجراح أراقب وأهمس: دكتور استأصل كل الغدد الموجودة في المكان. سألني الن ننتظر نتيجة التحليل؟ نظرت اليه بحزن فهز رأسه وبدأ يقوم بعمله. حبيبتي ما تزال تحت المخدر لكن دموعها تتساقط من عينها المغضتين النائمين. فزعت من لحظة فتح عينيها. وليت هاربا من غرفة العمليات الى غرفة العناية بانتظارها.

مساء اليوم وندى ما تزال تنام وتصحو وتسأل وتنام قبل ان أجيبها. قلبي مفطور موجوع من فكرة فقدانها. الله حاضر بمجامع عقلي وقلبي سبحان الله يبث فينا بعض أمل. فسحة من أمل. لعلها تنجو. لعلها تعود الي ولا تتركني. رن تلفوني بإلحاح، تجاهلته تماما، خوفا ان يكون من الجراح الذي ما زال معتصما بغرفة العلميات عنده الخبر اليقين. كلما أغلقته رن من جديد، بالإلحاح ذاته. صوت الرنين يزعجني يزلزل الأرض تحت قدمي. هممت بإخراسه لكن شيء ما منعني. مهما كان الأمر سأعرفه. بل يجب ان أعرفه. وقوع البلاء خير من انتظاره. فتحت الخط بحذر انطلق صوت علياء من أعماق قلبها. بالطريقة ذاتها يوم أخبرتني أن والدها مات، قبل عشرين سنة تقريبا، تقول امي ماتت يا دكتور مينا. أمي باردة مثل قطعة ثلج. أمي لا ترد، أمي انفها ينزف أمي. صرخت:

: اهدأي وخبريني ما الأمر. انتظري من الأفضل أن أرسل لك سيارة اسعاف. أرسلي عنوانك أنا بالمستشفى بانتظاركم، لا تحركوها من مكانها ابداً.

فتح فصل جديد بيني وبين هذه الأسرة التي اعتبرها جزء مني. منذ غادروا البيت دون وداع دون استئذان من زمن طويل. تذكرت ندى وقد كانت تساند عليا وتدافع عنها. تحيط عنقي بذراعيها وتهمس:

: عندك حق. لكن لا تبتأس. أخبرتك مرارا ان عليا بحاجة لعلاج نفسي.

أرد بضحكة فيها الكثير من الألم:

: امر كهذا لا يتم الا بموافقتها يا عزيزتي ندى.

آه يا ندى هل ستنجين من هذا المرض الخطير ؟ هل ستصمدين امام كل تداعياته؟ في قلبك عنفوان كبير سمو ورفعة. أعرف بأنك ستتقبلين مرضك فانت من قلت لي ان المؤمن مبتلي. وأنا قلت لا أصدق ان المرض عقاب انه من تصاريف الحياة من الهواء الذي نتنفس، من الطعام الذي ينضج بحضن الكيميائيات ويسقى بمياه المجاري ونأكله. هل اعدد لك ألف سبب وسبب للمرض، مخبأ بين ثنايانا. وانت الطبيبة. ألقيت وجهي بين كفي وانتحبت بوجع.

خرجت ندى من غرفة العمليات الى غرفة الإنعاش بالوقت ذاته الذي وصلت به عليا وسلمى وامهما. كان عليّ التواجد بين القسمين. حيث ترقد ندى وحيث ترقد السيدة مريم. المسافة شاسعة بين جناح الطوارئ وجناح العمليات الجراحية. خاصة على قلب مهدد بخسران نصفه الآخر كقلبي. اركض من قسم الى الآخر لا اعرف ايهما بحاجتي أكثر. كنت أود أن تفيق كل منهما

فتجدني امامها منتظرا عودتها الينا. للأسف ام عليا لم تفق. اسلمت الروح قبل ان تفيق ندى من سباتها. فأعلنتها عليا حرباً علنية مريرةً. متناسيه ماذا يعنون لي. متناسية محبتي واهتمامي. رأيتها كما لم ارها ابدا طوال فترة معرفتي الطويلة بها. متمرة، عيناها جاحظتان من الغضب. خيل لي أن اظافرها ناشبة. ستطبق على عنقي بكراهية لا مزيد عليها لتخنقني. واقفة بقاعة استقبال المشفى. تصرخ أو تهذي بجنون، التم حولها جمع من الأطباء، وجمع من المرضى. أدارت وجهها باتجاه الجهات الأربعة لتخبرهم انني قتلت اباها قبل عشرين سنة. بتقاعسي عن الذهاب لإنقاذه. وها انا ذا أقتل أمها بتأخري عن اسعافها. لفظت أنفاسها الأخيرة، هنا الآن، لتأخر طبيبها المستهتر بأرواح الناس عن نجدتها.

لم يتح فرصة لأشرح لها مرض ندى الخطير. لم تسمح لي بمساعدتها في إجراءات الوفاة والدفن والعزاء. أغلقت بوجهي بعنف موجع كل الأبواب. رجوتها منحي فرصة أشرح لها معاناتي. اصمت اذنيها عن سماعي وتقبل عذري. عادت لمنفاها البعيد من جديد. أغلقت هاتفها بوجهي مرات ومرات.

استردت ندى بعض من عافيتها. لم أجد بدا من أخبرها بوفاة الست مريم ام رشاد. تأثرت بل بكت وتمتمت كم احببتها يا مينا. وبحال خروجها من المشفى، وقبل الذهاب الى البيت، طلبت مني المرور على المشغل. هناك نزلت من السيارة ووقفت على بابه الحديدي المغلق والقت برأسها فوقه وبكت. قالت:

: كنت أتمنى ان أرى عليا لمواساتها. انظر حال المشغل الخالي والخاوي يشبه القبر كأنه لم يكن زينة الشارع الذي يتواجد به مشاغل لكثير من الحرفيين.

عدنا الى بيتنا وندى غاضبة بشكل شديد. لا أعرف سبب هجومها عليّ، واتهامي انني لا بد انني قلت او فعلت شيئا أغضب عليا. رغم علمي بفرط حساسيتها ومعاناتها. تساءلت:

: لماذا اقول شيئا يؤذيها؟

ردت بحيرة بسؤال أهم:

: لا أعرف. ليس منطقياً ان تتركنا بهذا الشكل الا إذا أوذيت.

لم أرد صمت وتجاهلت الحوار الذي بدأ ساخنا فندى أيضا متعبة والعملية بحد ذاتها مأساة بالنسبة للمرأة. صمت. ليس عندي شيئا أقوله.

لا يخفى ان ندى ستبقى فترة طويلة تتعالج مما بها. كان عليّ مرافقتها يوميا في بداية الأمر ثم أسبوعيا. لاه. اعد الأيام التي ستعشهم معي. محاولاً قدر طاقتي لأشعرها بالكثير من الحب والقليل من المتاعب والألم. الشهور تمر بسرعة، ندى تحصيها يوما بيوم. تقبل على الحياة فتتناسى. تأكل وتنام وتهتم بمظهرها وعملها. فجأة تنهار وتنتكس وتعزف عن طعام وشراب وعمل.

اراها على سجادة صلاتها تطيل سجودها وتبكي. تتلكم مع خالقها بتمتمات لم أكد فهمها. أحيانا اسمع اناتها ومناجاتها لربها في جوف الليل. ربي. ان لم يكن بك غضب عليّ فلا أبال. ربي اناجيك واتوسل اليك كما توسل لك رسولك فأجرني لا تطيل امد معاناتي. ربي ارفع عني العذاب فانت أدرى بإيماني. اتظاهر بالنوم حتى لا أفسد عليها مناجاتها وكي لا ترى دموعي وقنوطي.

زارنا تقي الدين عدة مرات مع عائشة. كانت زيارتهما تعني الكثير لنا ونحن في اتم صحة وعافية. لكن بعد مرض ندى صار هما ثقيلا على قلبي وقلبها. كيف نخفي وجعنا؟ كيف نحتفل بقدومهما وندى تودع الحياة يوما بعد يوم؟ كيف لا نسمح لهما بمعرفة الحقيقة ونتظاهر باننا كما نحن. فرحين بنجاحهما فرحين بعملها فرحين بمشاركتهما العمل مع رشاد وكريم، شيء مثل هذا، يؤكد لي، اننا اسرة واحدة. كان تقي الدين يشرح لأمه بإسهاب أساس عملهم. يشترون بيوت قديمة ويعيدون إصلاحها من الداخل مع الحفاظ على شكلها الخارجي حسب شروط الدولة ثم يبيعونها. سألت عائشة أمها:

: هل تسمحين لنا بتغير شكل بيتنا في لندن سنجعله يتسع لي ولأتقي الدين عندما يتزوج كل منا.

أجابتها ندى:

: لقد كبرت يا صغيرتي وانت بعيدة عني. صرت مهندسة وشريكة في شركة بغفلة منا يا حبيبتي. هذا البيت بيتكما. لقد أحببته كثيرا. عشت فيه أجمل الأيام. حاولي ان تحتفظي ببعض جوانبه بحالته القديمة، ستشعرين بدفء انفاسنا انا وابوك بتلك السنوات الطويلة حين عشنا هناك.

كانت زيارتهما هذه المرة إجازة حقيقية ليمضوا أطول وقت مع امهما. جالستهما ندى وشرحت بالتفصيل ما تعاني حاولوا قدر الإمكان تخفيف عنها. يفرحون معها عندما تقاوم حالتها بين مد وجزر. تفرح بوجودهما. تهتم تعد لهما الطعام اللذان يحبانه. تهتم بالحديث معهما وسماع اخبار العمل والنجاح والفشل والبكاء. والإصرار. تنبهر بهما. تستشهد بتاريخنا القديم الذي عشناه سويا. كافحنا لنحتفظ

بمكانتنا في حياة أصبحت تعج بالخرجين من جميع الاختصاصات وفرص العمل تقل. فجأة تختفي تحبس نفسها في غرفتها طالبة بإلحاح محزن تركها بمفردها. فنطيع. حين تشعر بالتحسن، تخرج الينا بعد بضعة أيام، نرى على وجهها آثار السهر والبكاء والخوف من المجهول الذي يتربص. لا تطيق سماع الأحاديث والأصوات.

حين سمعتها تهمس لي لافتة نظري، بكلمات مقتضبة عن عائشة. بين زيارة وأخرى يزداد حديثها عن رشاد أكثر من المرة السابقة، لكن لا أخبار جادة. أجيبها طبيعي عائشة ورشاد تربيا سويا، وتعلما وتخرجا ويعملان سويا. لعل شعور الأخوة بينهما أكبر من الحب كونهما فتاة وشاب. لماذا لا نسألها مباشرة. ما أن انهت عائشة كلامها عن رشاد، ماذا قال، وماذا فعل. قلت ممازحاً:

: يا لهذا الرشاد الذي يعيش بيننا. الن يحضر يزور اهله بعد عدة سنوات.

: أبي هل تغار من رشاد؟ لا أعرف مدى صحة مقولة ان إذا أضيفت ال التعريف لأسم عاقل في لغتنا العربية يعني شيء من الاستهزاء. ومع ذلك أجيبك. هذا الرشاد يا أبي مشكلة حياتي. لا بل هو إنسان حياتي. مشغول البال بأحوال العالم. كأنه جيفارا الجديد. الهموم الخاصة، لا شيء امام اضطراب العالم بشكل عام، وعالمنا العربي الإسلامي بشكل خاص. يكتب ويحاضر وينتقل من مكان لمكان ليرى أحوال العالم عن قرب ويغرق بالتفكير في طرق انقاذه.

ضحكت وقلت:

: وهل هذا عيب في نظرك؟

: ابداً بل هي ميزة في مثل هذه الايام التعسة. العالم على اتساعه صار اضيق من جحر ارنب. صار الكل مشغولا بما يعنيه، بمشاكله ومتاعبه الخاصة. دون التفكير بالعالم ككل، إنسان أناني. شيء مثل هذا، يجعل رشاد دائم الأسى والحزن. تراه دائما منهكاً مملاً. كثيرا ما كنا نتشاحن لكنني لم اعرف بالضبط متى بدأ شجارنا يصل لدرجة القطيعة. بداية كنا نتناقش نتجادل ثم اتسع الخرق على الراقع كما يقولون حول هذه المواضيع. يشعر بغبطة لتلك المشاعر تجاه ناس لا يمتون له بصلة. يتبنى وجهات النظر لعلها تسهم بحل المشكلة لا بل المشاكل يجهد نفسه ليتفهم سبب نشوئها. يدرس الاختلافات ويبحث عن إيجابية واحدة يمكنها دفع الفكرة وتطويرها. والعمل لإيجاد حلول بديلة. الحقيقة المبالغة في الامر تعقده وتفسده.

قالت ندى بهدوء محزن:

: رشاد ليس انسانيا عاديا. لكي تتفهمي كيف يفكر ضعي نفسك مكانه. منذ زمن طويل لم اره. لكنني لمست فيه تلك الروح منذ كان طالبا في الثانوية. إذا كان يهمك امره، أو تحبينه، او تتمني العيش معه بقية عمرك، الفتي نظره لذلك، اسأليه ان يعلمك، كيفية تنمية هذا الشيء الفريد بنفسه. هذه الأيام تعسة كما اسميتها. ما يقوم به أنا اسمية وعي وحضور وجدان وضمير.

قال تقي الدين موضحاً:

: انهما متحابان لكن كل منهما يؤجل الارتباط حتى تتقارب وجهات النظر. شيء مقيت ان يوجد مثل هذا الوضع في بيتهما. رأيي الشخصي. عائشة تغار عليه من اهتماماته. تتربص به لتثير جدلا أطول مما يستحق الموقف.

ابديت له رأي فيما يعذبه ويحترق من أجله. حلم عقيم لن يتحقق ولو أفنى عمره بالجري وراءه. سيعود خالي الوفاض في النهاية. قلت له ذات مرة مثل هذا الكلام غريب. استهزأ بما قلت. كنت أحاول تقريب وجهات النظر بينهما. قام من مجلسه بعصبية مخيفة دون كلام. اصررت ان أبقيه لأوصل له طبيعة الأمور من وجهة نظري. قلت بسرعة وقبل ان يهرب: أنت تطلب المحال. التفاوت بين البشر طبيعي بل وصحي. والا خالفنا طبيعة الوجود لتستمر الحياة. عليك الانتظار حتى تصل الى البيت الأبيض وتحكم العالم. من هناك تستطيع فرض قوانينك الجديدة للحياة. وقتها قابلني. أتحداك لن تؤرقك مثل هذه الأمور ابدا. ستمارس وبذهول تام الحماقات ذاتها التي يمارسها كل من يجلس على كرسي الرئاسة، كل الأشياء التي تسميها سخافات. ستنسى كلامك عن العدالة والديمقراطية والحرية وكل هذه الترهات. حلمك بتغير البشر واهتماماتهم شيء محال. يضيع عمرك ولا تطول تين الشام ولا بلح اليمن. قد تخسر حبيبتك.

قالت عائشة ودمعة تتلألأ في عينيها الخضراوين كعادتها وهي صغيرة:

: ابديت رأيا في آخر خلاف بيننا. ألغى على أثره سفره معنا لزيارة اهله. كان مجرد رأي او هو أقرب للتعليق منه للرأي. اعرف سلفا انه لا يقدم ولا يؤخر. لكني مقتنعة بان شعوبنا العربية والإسلامية شاخت ماتت. ما لميت بجرح ايلام. الحضارات تسود وتبيد وتخلق حضارات جديدة مختلفة. هذا ما يعمر الكون. دورنا انتهى وأتى دور شعوب أخرى. امتزاج الجديد مع القديم شيء رائع. صرخ بي اريجينا من هذه المحاضرة. قلت لك ألف مرة ان امتنا وحضارتها لم تمت ولا انتهت ولا بادت بل قتلت. استغلت وسرقت وتوارثوها، نهبوها، تنكروا لها. صرنا نحن الجهلة وهم المتنورون.

صمتت حتى تسترد صوتها الذي تحشرج من بكائها المكتوم. قالت بلا حماس:

: في أحسن الأحوال يصمت. يزداد انطواء على نفسه، فأدرك، انه يعرف الحقيقة. يوافق على رأيي. فانتهز الفرصة. هيا رشاد لنعترف أننا امة هانت عليها نفسها فهانت على العالم. نحن عالة وعبء على المجتمعات المتحضرة نحن على موائدهم بانتظار اختراع جديد. تطوير لاختراع سابق. الم تخبرني يا أبي حديثا عن رسولنا "ص" انه قال انهم سيأتي زمان تكون أمتي في اشد الهوان. سئل أمن قلة يا رسول الله قال: سيكونون كغثاء الأرض. كثر بلا قيمة تذكر. صاروا لقم سائغة لكل من تسول له نفسه اخذ قضمه من جسدهم الضعيف.

: لا اؤيدك بهذا الأمر يا عائشة. لعلي أؤمن بما يؤمن به رشاد. لكل جواد كبوة. لا بد من إيجاد وسائل لصحوة عربية. او شرق أوسطية. البداية ستبدأ حين يدركون أنهم مستهدفون. هناك ما يحاك لهم في الخفاء. طمعا في ثروات بلادهم او تحسبا لنهضة جديدة حيث يملكون كافة المميزات لينهضوا من جديد. من هنا يبدأ العلاج. على كل حال إذا كانت هذه المشكلة بينكما فعلاً، أنا أعرف ان اختلاف الرأي لا يفسد للحب قضية.

ضحكت وغمرتني بحبها وحنانها قائلة:

: كم احبك يا أبي. كنت أتمنى زوج مثلك لولا هذا الشيء الذي يسكن صدورنا يتحكم فينا. له الغلبة ونحن مساكين. صدقوا لا أعرف كيف اتحمل البعد عنكم وعن بيتنا. دائما أتذكر قولك ان الانسان خلق مزود بطاقات لا يعرفها عن نفسه. حين يكون على المحك يكتشف بأنه قادر على التحمل أكثر مما يتوقع. فأنت يا أبي مثلي الأعلى بين الرجال.

صفق لها تقي الدين قائلا:

: برافو. شاطرة والله ابتدأ مسح الجوخ. هيا قولي طلباتك قبل سفرنا.

انتبهنا ونحن نتسامر ونتضاحك ان امهم ليست معنا. كأنها بعالم آخر. ظننت الأمر يتعلق بسفرهما وعودتهما الى لندن. ادارت وجهها ناحية الحديقة وعيناها ترنوان للبعيد. لم تستجب لمحاولة أي منا ليستعيدها الينا. مازحها تقي الدين:

: يبدو اننا أثقلنا عليكما بزيارتنا. تعودتما على غيابنا. قررنا المغادرة الليلة.

حضنها وقبلها. ثم حملها ونقلها قرب النافذة العريضة في غرفة الجلوس. لقد نقص وزنها بشكل واضح في الآونة الأخيرة. احضرت لها عائشة قهوتها كما تحبها. بدأت ارتشاف قهوتها بصمت. وجهها ملتصق بالزجاج حتى لا نرى اساها. انفض الشابان بحيرة. أنا أعرفها أكثر مما تعرف نفسها. سألتها:

: هيا حبيبتي أخبريني ما الأمر الذي يكدر خاطرك؟

: هل تعرف اين قضيت ليلتي الفائتة كلها؟

: نائمة بجانبي مثل ملاك. اداعب انفك وانانديك "يا ملاكي الحارس"

: لا لم أكن في سريري. اقسم لك ان ما سأقوله حقيقة بينة. كنت في مكة والمدينة. سألتني لائما لماذا انت هنا دوني؟ قلت: انت معي لكل منا مكان. أنت مع الرجال وانا مع النساء.

: يعني قضيت فريضة الحج دوني. فما الذي أفسد عليك فرحتك؟

: اشعر وكأنها رسالة للقيام بالفريضة حقيقة. كان معي شخص غريب لا أعرفه يرشدني. متوشح بالمناشف البيضاء بدى لي جميل المحيا شاب مسبل العينين في خشوع. امسك بمعصمي فوق ملابس الاحرام التي ارتديها، وقادني خطوة خطوة وانا مستسلمة كليا. أعمل مثلما يعمل وأردد وراءه كل ما يقوله. قال انتهى الحج. الآن الى المدينة المنورة لزيارة الرسول. هززت رأسي موافقة فرحة وركضت خلفه. أدخلني المسجد الكبير وأشار الى مكان بعيد هناك الروضة الشريفة. جدار يفصلك عن قبر رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. اجلسي هناك ما طاب لك الجلوس وصلي بقربة قدر ما تستطيعين. ستغمرك سعادة لم تعيشي مثلها سوى يوم اهتديت لدينك. بعدها تفوزي برضاه وشفاعته. انتظرني حتى وصلت الى المكان الذي أشار عليه وجلست هناك وانصرف. رأسي استراحت على الجدار الملاصق للقبر. صليت وحمدت وشكرت وبكيت ثم غفيت. مسحت يد رأسي وقلبي بحنو بالغ. رائحة مسك غمرت المكان سمعته يقول قومي من مكانك واذهبي. شافاك وعافك. حجك مبرور ومقبول بإذن الله. حين صحوت، تذكرت ان الحجاج سيقفون على عرفة بعد أيام لا وقت لنذهب.

: سأحاول والمحاولة بحد ذاتها حجة.

تدخل تقي الدين وقال بمرح:

: الحل عندي. إذا ذهبتم الليلة معنا الى لندن ومنها الى مكة مع الحجاج الإنكليز فكلاكما يحمل الجنسية البريطانية. هكذا يتم الأمر أسرع وأيسر. هيا

جهزا أنفسكما فما زال النهار في اوله سأجري اتصالاتي بكريم ورشاد لتجهيز الأمور وحجز الامكنة الى مكة ثم بعدها الى المدينة.

كم ربنا جميل وكريم. كانت أيسر رحلة وأجمل رحلة قمنا بها بحياتنا كلها. هذه الليلة تشبه الليلة التي اصطفانا بها ربنا على كثير من خلقة. كنا نطير ونحن نطوف ونحن نسعى لساننا يلهج بدعاء وحمد وشكر. بين فينة وأخرى كانت ندى تهمس بأذني بفرح طفولي. الدليل الذي يمشي معي في الناحية الثانية هو نفسه الذي حججت معه في المنام. امد بصري باحثا فلا أرى احداً بجانبها. لكن فرحها ونشاطها انتقلا الي وانسياني مرضها.

يا رب ما أكرمك. يا رب ما أعدلك. شهور عاشتها بعد الحج فرحة. أداعبها بقولي أنت جلابة الخيرات لهذا البيت. ترد بهمس. لا أتذكر حياة عشتها قبلك كأننا خلقنا معاً. عشت معك أجمل أيام حياتي يا رفيق العمر.

رحلت. بعد سنة من العذاب مع المرض اللئيم. صارت تستعجل الموت. تناديه تناجيه. اسمعها تهمس بدلال. خلص ربي ارفع عنا العذاب انا ومينا فإنا مؤمنون مستسلمون راضون. أو تقول بهمس جميل ومناجاة تفطر قلبي. ربنا انت اعلم بنا منا. اقبلنا. هذه نواصينا الخاطئة بين يديك ماض فينا حكمك عدل فينا قضاؤك رحمتك وسعت كل شيء. لم تعد تحكي عن أمور تخصنا معاً بل عما يخصني. تتوسل الي ان اتقبل امر الله بإيماني الراسخ المتعمق. لا تكمل حياتك وحيداً. سنجد قلبا آخر يخفق لك من جديد فانت انت الملاك.

كان هذا ما يشغل بالها في أواخر الأيام. تضع رأسها على صدري وترجوني ان اسامحها على تركي وحيداً. في مثل حالتها يكون الرحيل خير وسيله لتبتعد

عن الدنيا وكل ما بها من الآم. رحلت ندى. نعم رحلت بسكون ليل. والدنيا ما تزال غافية وتحلم بالغد وبأيام كثيرة قادمة لكن لم يعد لندى يوم آخر. كتبت على احدى اوراقها التي تبقى بجانب سريرها دائماً لا تظن انني غافلتك وذهبت للحق قبلك. بقدر ما اخفيت ساعة الرحيل بقدر ما كانت جلية واضحة فنحن كمؤمنين ننتظرها كل ساعة. سأترك لك أغلى ما املكه هو أنت، مينا الرفيق والأستاذ والحبيب والزوج والأخ والأب حافظ عليه.

وجدتها في الصباح نائمة على ظهرها ورافعة اصبعها بالشهادة وعلى وجهها ابتسامة كلها شوق لما كانت تراه وانتقالها الى الدنيا الأخرى. بكل جمالها بكل الوانها بكل عطرها والعينين نصف مطبقتين ما ان رفعت كفي لأغمضها حتى اتسعت ابتسامتها ورف جفنها تحت كفي لآخر مرة وضعت رأسي على صدرها وبكيتها طويلا وكثيرا.

رحلت حبيبتي. تركتني مع اشياءها المبعثرة كعادتها بكل مكان. رائحتها الطيبة في الركن الذي كانت تصلي فيه. تركته على حاله كما تركته هي. مصحفها وسجادتها ومسبحتها وغطاء الصلاة الأبيض الناصع كقلبها. وفيت بوعدها. لم تتركني كانت في كل مكان في البيت. صباح كل يوم التفت لمكانها بجانبي على السرير، أراه وكأن شخص ما نام في المكان وترك أثر نومه ورائحته. مع كتبي مع قرآني مع صلاتي مع دموعي هي معي. نتناقش ونتغازل ونتسابق في تفسير كل اية نرى فيها طالعنا الجميل. إثر كل غصة مسة فرح، إثر كل اشتياق لمسة حنو. السنين دونها موجعه طويله مملة ومع ذلك تتكدس بسرعة فوق اكتافي. تهدني بحملها فأنحني. يتقوس ظهري توهن ركبتاي تبطئ حركة يداي. تبتسم تلك الابتسامة التي تشرق على وجهها فابتسم واتشجع لأستمر. هجمة السنين تحملتها ببسالة

وقوة. والتصدي للأوجاع. شخص تربطه قرابة ما مع والد ندى الجزائري تطوع ليقيم معي ويؤنس وحدتي ويلبي احتياجاتي.

حتى في هذا المصاب الحزين. لم ار أحداً من عائلتي الصغيرة الأخرى. تلك التي شغلتني بمشاكلها وودها ومحبتها. لا للعزاء ولا للمواساة. لم ينساني كريم ولا رشاد الذي ما تزال عائشة تروضه ليعود لشريعة الناس السائدة انا ومن بعدي الطوفان. اتوسل لله بقراءة القرآن وبالدعاء ان يساعدني على القيام من كبوتي المريرة. فقداني لندى ليس بالسهل. لم تكن زوجة أو امرأة مرت في حياة رجل. لم تكن شخصاً عاديا. كانت حياتي. لابل كانت كل جميل فيها. النسمة البسمة النعمة الشكر العافية الفرح والحزن والنور والعتمة.

لكن هل مت بموتها وانا حي أم أخذت معها رحيق الحياة فاستكنت بانتظار اللحاق بها؟ لا أحد يعرف.

لا أستطيع تحديد تاريخ زيارة علياء المفاجئة لي. بل لم أكن أعرف كم كنت بانتظار هذه الزيارة الا حين حضرت ووقفت امامي. قامتها الفخمة وشموخها الذي ما زال رغم السنين. زيارتها جاءت حين صارت كل الأيام سواء، كل السنوات متشابهة. أحلت نفسي على المعاش منذ سنوات. تفرغت للكتابة عن الحالات غير العادية التي عشتها في مهنتي وفي حياتي. مثل هذه القصة التي اكتب فصولها وأرويها. لم أنس اولئك الذين مروا بحياتي وأحببتهم وقربتهم. صارت اوجاعهم اوجاعي.

زيارة عليا افرحتني. أعادتني للحياة. عنت لي الكثير. رغم خبرتي وتخصصي الذي قيل عن نجاحاتي فيه الكثير. ظلت تلك الانسانة لغز محير. لا تتواني على بذل روحها لمن تحب، ولا تتوانى على سحق من يدوس لها على طرف. تطرف، لا بد وان له مبرراته. حاولت كثيرا ان اخترق حصارها وأصل لأعمق مما تبديه فلم أفلح. وضعت عليا بيني وبينها حجابا سميكاً لم أتمكن من اختراقه. تبادر لذهني تساؤلات عديدة. سؤال فوقه سؤال. تحته سؤال. بعده سؤال. قبله سؤال.

أردت ان أعرف كيف طاوعها قلبها على توجيه ذلك الاتهام الجائر بتقصيري تجاه والديها؟ كيف استطاعت نبذنا من حياتها ونحن جعلناها بعض ذاتنا؟ كيف أخفت شعورها الحلو نحوي؟ أنا من يستطيع إعادة عواطفها لمكانها الصحيح. أحببتها كثيرا لكن كما تجذبنا زهرة جميلة متفتحة للحياة. كما يبهرنا رسمات بهية لفنان عبقري. كما نحب قيمنا. كما نحب إنساناً لتميزه.

أخفيت كل اسئلتي يكفي انها عادت. يكفي ان أرى في عينيها احتياجها المرير لي. استمعت لها فقط. للأسف اكتشفت بلمحة بصر كم جاءت متأخرة.

كانت متأرجحة بين حقيقتين لا بد وان تنتصر إحداهما على الأخرى ذات يوم قريب. حقيقة انها انسانة عاقلة ذكية نشطة. وحقيقة أخرى توجع. انها في طريقها لمغادرة كل الأمكنة التي كانت لها في الحياة وفي النفوس. فهمت فقالت:

: لن اكذب عليك بعد اليوم. ولن أكذب على نفسي. كنت وما زلت بحاجة ماسة لوجودك في حياتي. بأي صفة من الصفات التي دخلت بها حياتنا. صديق طبيب أب أخ. وصفة لا تعرفها حبيب.

آخر مرة جالستكما انت وندى كنتما تتضاحكان وتخبراني عن عايشه ورشاد. عن علاقتهما العليلة. لا تكاد تصفو ويبدو تمسك كل منهما بالآخر حتى تسمعان انهما ابتعدا عن بعضهما ونهائيا كل مرة. وأنا أصيح بفرح واستغراب شديد عايشه ورشاد؟ ماذا لمّ الشامي على المغربي وكل منهما في واد؟ أخي وأنا أعرفه ما زال وسيبقى يحلم بالوطن الأكبر. أتذكر تعليق ندى الغاضب. فقد ظنت بأنني استهجن علاقتهما. استدركت وأوضحت لها ان العيب في رشاد. فأحلامه خيالية حامله فشلها معها. المدينة الفاضلة. صعبة التحقيق بعيدة المنال. أقول له دائما "حلم اصح منه".

اقترحت يومها أن نستدعيهما لأمر هام ونزوجهما عندها سيكون افتراقهما صعب وهما في بيتهما. ذلك اليوم قررت الابتعاد عنك بلا عودة بلا تراجع. يومها أدركت كم تمكنت من زرع روحك في كياني الى ابعد حدّ. عيناي ترصد مدى تعلقك بندى ومدى افتخارها بك. انهي نفسي عن مزالق هوى لبئر بلا قرار. بأعماق ذاتي أؤمن انني أحق الناس بك. قرار صعب اليس كذلك؟ لكني استطعت. هل ترى فيما أقوله هذيان او نسيان؟

ابتسمت مشجعاً وانتظرت. قالت برجاء:

: اريد منك ان تسمع وتصبر وتفهمني. لا تقف ضدي كالسابق. لا أحد غيرك يمكنه مساعدتي على النجاة. اكاد اضيع من نفسي.

: ما الجديد الذي حصل في حياتك خلال سنوات الغياب.

: حصلت لي أشياء كثيرة. سنوات طوال عجاف. أولها انتزاعك من قلبي ومن عواطفي. امسكت برفات مشاعري بعد ذبحها بيديّ، اعتصرت رحيق حياتي بكفيّ، دفنتها بصدري حيث أخفي كل ما يخصني. ما سأشرحه لك ربما كان حالة مرضية. ربما جنون كما يقول جميل وزوجته. جميل الجميل كان في حقيقته بشعا. عرف مشاعري نحوك فحولها لصالحه. يتودد يخدمني، يرفه عن نفسي. بين حين وآخر يرمي نفسه أمامي كشهيد حب صامت. مؤكداً انه الأحق بهذا الحب. وحبي لك من وجهة نظره ليس سوى امتنانا لخدماتك العظيمة. الحب الحقيقي ينتظر إشارة مني ليقترب ويسعدني.

كنت اضحك من هذا الكلام. بعد أن زوجته بسلمى وجدت فيضا من الحب نحوه أكبر بكثير مما كنت أكنه لك. كأنه حب حياتي. لا بل كأنه حياتي. شعور طاغ اشعرني بالخزي والخجل من نفسي وليس من كائن من كان. أؤكد لنفسي بانه لا يعنيني. لكنه ملكي انا صنعته أنا علمته انا كبرته. كان تزويجه من سلمى مجرد حل لمشكلتها ومشكلته مع أمه ومع أمي.

ضحيت كعادتي بشجاعة. لكن مع اوجاعي لم أجد تلك الشجاعة التي استطعت بها الابتعاد عنك. أفكر، خسرت الحب مرتين. وجع اشتعل فتيلا في اعماقي ولن ينطفئ. وسؤال إثر سؤال. ودهشة إثر أخرى. هل احبه فعلا؟

هل أحببتك فعلاً. هل كنت اختلق مشاعر اعتبرها حقا لي مع اشخاص ليسوا من حقي؟ أحجية هذه أم مشكلة أم مصيبة أم جنون؟ لا أعرف. أخبرني لكن أرجوك قل ما تريد لكن دون ان توجعني.

: والله الذي اعبد لن أقول الا الحق ولا شيء غير الحق. كنت وما زلت لؤلؤة، في محارة، في محيط ما، في مكان ما. نادرة جداً. قلبك عقلك جسدك جمالك كل هذا بقي وسيبقى ملك لك وحدك. حقيقة كنت حلم أي شخص. مثلي او مثل جميل او من هو أكثر مني مكانة وأكثر من جميل وسامةً. كنت وما زلت وستبقين عليا. كنت وستبقين عالم رحب واسع وجميل. لا أعرف كيف اختاروا لك اسم عليا انه لائق بك.

أحسنت، حين اعترفت انه من حقك ان تحبي وتحبي. من حقك ان تجدي الانسان الذي يستحقك ويعرف القيمة الكبيرة التي حظي بها. لا تخجلي كونك أحببت، لا تلومي نفسك، لا تقهريها وتعتبرينها خانتك. الحب أسمى شيء في الوجود هو الدنيا كل الدنيا يا عليا.

لم أعرف الحب الا بعد زواجي من ندى ولم أعرف السعادة الا مع ندى ولم اعرف خسارة منيت بها أكثر من خسارتي لندى. الآن كلي آذان صاغية لسماعك ابدئي بذكر الأعراض ومتى وكيف واجهتها. سنصل لحل ما. هذا قدرك وقدري. أنا بحاجة ماسة لوجودك وانت كذلك. هيا تكلمي فأنا أفهمك.

عدلت من جلستها رفعت ساقها المصابة وطوتها تحتها. استندت من جديد على مسند ندى. التقطت بإصبعها شال ندى الصوفي التي كانت تغطي به

ركبتيها تماما كما فعلت الآن، مع ان لم يتسنى لعليا رؤية ندى بجلساتها الخاصة في بيتها. اخذت نفسا طويلا ثم قالت:

: أريد توضيح أمر في غاية الأهمية بما أنني وعدت الا أكذب عليك. لم آتي اليك كطبيب. ولا أتيتك لتعالجني. بل اتيتك كأغلى إنسان على قلبي وعلى روحي. إنسان حياتي. منذ زمن بدأت مأساتي، لم أعد اشعر بالأمان. خوف يهاجمني. تتثلج أطرافي وتتبلد حواسي. برد مميت، البس كنزة صوفيه فوق الأولى التي لم تدفئني فلا اتدفأ. يغطوني بلحف صوفيه يغمر رأسي حتى أخمص قدمي، مع ذلك لا اشعر بالدفء، ولا يكف الخوف عن السريان كالسم في أحشائي. فجأة تهت الصور. اتلفت حولي كأنني في مكان لا أعرفه. لا أتذكر في أي غرفة اجلس، او أي بيت أي بلد. اضيع تماما. أتعذب. أصمت.

فجأة ينتشر نور يبدد تلك الظلمة واعود لطبيعتي. لم آخذ الأمر على محمل الجد في بداية الأمر. في الفترة الأخيرة صارت الأمور أصعب. تهت مرة عن البيت وأخرى تهت عن المشغل. ومرة وجدت نفسي في عذاب مرير. ابحث عن بيتي وأنا في بيتي. اهدئ نفسي بأنني سأتحسن حالما أعثر على بيتي.

جميل لم يعد يهتم بأمري. يصرخ بأعلى صوته وبغضب لا أفهمه. يؤكد لي انني في بيتي. لا يريد نقاشا في هذا الموضوع مرة أخرى. أصمت. اشعر بكراهية عجيبة نحو الجميع بما فيهم البيت الذي يدعون انه بيتي. الصوت الذي اسمعه يصرخ بي لا أعرفه بل أكرهه. أحاول تذكر صاحب الصوت وصاحب الوجه المطل عليّ بسخرية قاتلة. عقلي لا يتعرف عليه. اصرخ من أنت؟ لا يجيب. تتسع ابتسامته. هل تريدني ان اجن؟ يهز رأسه ساخرا ان نعم. صدقني لم أر

في حياتي شماته كما ارها في عيون تحدق بي وتلهمني جنوني. صدقني الكل يتربص بي. اسمع صمتهم وهمسهم. أقرأ في عيونهم خططهم. جنوني او موتي.

: منذ متى؟

: لا أعرف. منذ تزوج جميل. كان لا بد له ان يتزوج. أتجلد وأصبر وانهار وأبكي أتذكر وأنسى. نور يضيء وينطفئ في رأسي.

: من يقيم معك في البيت؟

: لا أحد أحيانا أرى جميل وزوجته يدعيان انني بحاجة لوجودهما.

: تعني اختك سلمى وزوجها جميل؟

: لا. بل جميل وزوجته. ربما تكون سلمى او غيرها. زوجته لا تشبه سلمى.

قلت محاولا تغير الحديث ومؤانستها:

: اي ريح طيبة أتت بك الينا يا عزيزتي كم افتقدك؟

: ليست طيبة أبداً يا حبيبي. انها ريح الكراهية. لن ترضى بأقل من اقتلاعي. من نهايتي. اسمك يتردد كثيراً بينهما وأنا لا أخطئه. في لحظة صفاء عقلي. ونور شحيح يلمع في رأسي. أفهم. سيصحبونني اليك، يريدون منك تقريراً أني بحاجة لوصي يرعى شؤوني. سبقتهم لأخبرك عن ظروفي الصحية المستجدة. لا أريد وصاية.

صمتت وبكت كثيرا وطويلاً. تركتها كنت أعرف كم دمعتها عصية، فرحت انها بكت. لماذا أصبحت تشعر بالوحدة وبقلة الحيلة وإن هناك من يخطط

لأقصائها من مكانها. هل هي عقدة الاضطهاد. ترجوني ابعدهم عني. انت لا أحد غيرك يمكنه ذلك. صدقني. انا خائفة فعلا. لكن ممن. من أي شيء.

هل معقول ان تتفق سلمى مع زوجها على أي ضرر يصيب اختها؟

هل من المعقول ان لا تشعر بالشفقة على أخت اعطتها كل شيء؟

صحوت من تساؤلاتي على صوت عليا الذي أعرفه. تطلعت ناحيتها كان وجهها يشع ثقة وقوة وثبات. سألتني:

: هل ما زلت تتذكر شيء عن حياتي فأنت قلت عني ذات مرة أنني نظيفة القلب طاهرة النفس.

: أكيد أتذكر. حقيقة كنت اللغز المحير في حياتي لكنني افهمك وأقدرك.

: إذاً تعرف حكايتي كلها منذ اصبت بشلل الأطفال حتى رحل ابي وتركني. منذ وعيت وحتى الآن أساهم بتحمل أعباء الأسرة. سيدة البيت بلا منازع بعد وفاة ابي وامي. يختلقون أشياء عني. أنني اقولها وافعلها لا اتذكرها. أكاد أجن.

بدت لي طبيعية عادية. تراجعت للخف والقت برأسها على المسند الخلفي للأريكة. أريكة ندى، تلتف بشالها، تحتضن المسند الذي كانت ندى تتسند عليه في جلستها. الغريب لم تسأل عنها. لم تفتقدها. كأنه تتجنب ذكرها. هل تغار منها هل تكرهها؟ أتذكر قول ندى هناك قلب يحبك ستجده لا تبقى وحيداً عدني بذلك. هل شعرت بمشاعر عليا تجاهي ولم الحظ أنا بنفسي؟ قلت:

: ظننتك أتيت لتطمئني عليّ في وحدتي وعجزي، وأنا في هذا العمر. زيارتك مفاجأة لكنها جميلة فيها عبق الماضي. لماذا يا عليا ابتعدت دون اخبارنا انا وندى.

: ندى.. من ندى؟ قلبي موجوع فلا تزيده وجعاً. لا تقترب من أماكن خاصة بك وعنك تناسيتها. وجودها يقلقني إذا اقتربت منك، ويشتد وجعي إذا اقصيتك عني أكاد أموت. أوف ما هذا؟ كأنني لم اتحرر من اوجاع الماضي تماماً. صعب سلخه من العظم. ابتعدت وفي نيتي الخلاص. فجأة صارت فكرة الخلاص تأتيني بالمزيد منه. رؤيتي لك تؤجج احتياجي اليك. أعرفك لن تهادنني ولن تعينني. اكتفيت بكلامك. بصمتك، بلطفك، بحرصك على كل من حولك، جزء من الألم المخبأ في صدري، في قلبي. في عيوني. تبدو ساكناً هادئاً. بينما مشاعري تجاهك مثل بندقية رصاصتها جاهزة في بيت النار. تترصد خلف باب معرض للاقتحام للاعتداء مع سبق وإصرار.

نقر الخادم الباب فارتجفت لثواني قال:

: موعد الدواء يا دكتور.

في اللحظة التي بدأت اشك في قواها الذهنية وتخبط افكارها وجدتها تقف وتأخذ الدواء من يده. رفعت العلبة وقرأت تعليمات الطبيب ناولتني قرصين وكأس الماء الذي كان بجوارها ولم تلمسه أغلقت العلبة. سوت الفراش، ورتبت الوسائد، احكمت الغطاء حول ساقي اللتان صار لزاما رفعها امامي حالما أجلس على المقعد. تنهدت واستأنفت:

ما يحيرني فعلاً. بل ويكاد يدفع بي الى الجنون. إصرار جميل انني في طريقي للجنون. أكاد اصدقه. لو لم افاجأ بأيام حياتي تسرد بتفاصيلها المذهلة. لم تكن تعنيني وقت حدوثها، لم أشعر بمثل هذا الألم الذي أحس به حيت أتذكرها. ألم يفري روحي. اتذكر وبتفصيل عجيب وبتركيز خارق، وانا التي يقولون انني أنسى

أمور حياتي اليومية، الصغيرة والعادية. أعني تلك التي تمارس بشكل طبيعي دون تفكير بها. تصبح عصية.

هذا دواءك. صحيح، تأخذه للخلاص من وجعك لكن هل يخطر على بالي ان اعطيك كل ما في العلبة لتشفى بسرعة؟

: أكيد لن يخطر شيء من هذا يبالك.

: لماذا يقوم جميل من مكانه فزعاً ويأخذ علبة دوائي من يدي عنوة؟ تدور بيننا معركة كلامية يحاول اقناعي أنني تناولته قبل قليل. أحاول إقناعه بأنني لم آخذه، هو يضللني لتسوء حالتي فينفذ مخططه مع زوجته بإرسالي الى مصح.

نعم يا عزيزي مصح. متعبة جدا معهم ومنهم يتهمونني بالنسيان. يا ليتني أنسى. كم أتمنى من أعماق قلبي ان أنسى. فلا أنسى. لا اتساهل ولا أغفر. لا أحب ان أشارك أحدهما بمخاوفي وبقلقي. قد امر بلحظات ضعف مثل أي انسان آخر. أحيانا يخطر ببالي انه يوحي الي بطريقة ما بفكرة الموت. جرعة دواء زيادة. مرة واحدة او مرات عديدة. هل اظلمه. هل جننت؟

حتى انت. قلت إنني لغز حيرك. لكنك من قلت عني انني واضحة مثل ضوء الشمس في عز النهار. هل من الخطأ أن أكره ان يراني أحد بشكل عام وانت بشكل خاص ضعيفة او مكسورة. مع انني أكون كذلك. وأود من كل قلبي ان تعرف أنت دون سواك بضعفي الذي اخفيه. أن احتياجي ليدك تمسح الآم العالم عن وجهي. تربت عليّ، تلامس شعري. تسمعني وتحس به كما أحسه. هل تصدق كثيرا ما تمنيت لو بكيت لبكائي.

أراك ساكنا، لم تقاطعني كالعادة لتتهمني بأنني أقسو على من حولي. لم تعلق عن غرابة ما أقول. هل ما زلت تسمعني؟ هل تصدق بأنني أرى ايام حياتي حيّة تتنفس. أدهش كيف احتملت ما لا يحتمل سنوات عمري. فأتعذب بأثر رجعي؟ كيف عشت بشكل لا انساني ولم أمت؟ عليا الطفلة العرجاء، عليا الشابة الصغيرة المسحوقة. تخفيها أمها عن العيون حتى لا يروا عرجها. عليا التي تبذل روحها لتسعد من حولها. عليا المنزوية من بداية الليل حتى آخره بقلق وبأرق. بغرفة محكمة الإغلاق تفكر بأحلام يقظة شديدة التعسف. أغلق بابي بإحكام. أجد نفسي مع الشروق واقفة لألبي طلبات الجميع لأعد فطورهم. واسوأ ما في الأمر تنتظرني عليا العاشقة الفاشلة لمرتين على الأثر.

شعور غريب. بعمري هذا أحسه. أقوم بمعجزات ولا أجد لذاك الشعور اسماً او صفة. أنني لست كبقية البشر. لا أنام مثلهم ولا افيق من نومي مثلهم. لا أحب أحدا ولم يحببني أحد. لا أحب ما يحبون ولا أكره ما يكرهون. أعيش فقط لأنني لم أمت. علاوة على كرهي الشديد للموت. وحيدة. وحيدة حتى العظم. وحيدة مع رجفة البرد القاسية التي حدثتك عنها. انها قاتلة يا عزيزي.

هذا الشعور ليس جديدا. لم يبدأ الآن بل من سنوات طويلة تعبت وانا أحصيها. منذ وعيت. عرفت انني فيها شيء لزوم الشيء. ابحث عمن يحتاج لوجودي. اضيع إذا لم يكن هناك أحد بحاجة ما لأهرع وأقدم خدماتي بمنتهى الرضا. أشعر بنشوة إذ ارحته. تيقنت بأنني أرض يقفون عليها. او سلما يرتقوه. علاجا يتناولونه. ماذا افادني هذا اليقين؟ لا شيء على الاطلاق لكن وجعي كبر. لا يخلصني منه مسكن، ولا مضاد حيوي. آلة تدور بتعبئتها كل يوم بمفتاح يعرف الجميع رقمه السري.

صحيح أنني انزوي بعيدا عن الجميع بقرار. وأغض البصر عنهم بعمد. اسمعهم يهيئونني للجنون. صرت عبئا على الجميع. لا أعني عبئا انني بحاجة لمن يخدمني، بل عبئا لأنهم كبروا ولم يعد أي منهم بحاجة لي. قللوا من شأني ومن أهمية وجودي. سمعتهم بالليل يرددون اسمك. قرروا استشارتك في حالتي من وجهة نظرهم لعلك توافقهم وتمنحهم التقرير المرجو، أنني لم أعد كفء لأدير أمور حياتي، وأنني بحاجة لوصي يديرها. سيكون جميل بطبيعة الحال من وراء أختي أو هي ستكون وراءه.

: عليا! دعك من كل هذا. ماذا عني؟ هل عنيت لك شيئا بشكل خاص؟

: أعرف لا تصدقني تريد ان تصرف تفكيري عما يقلقه لا بأس لك ما شئت. عشنا معكم وكنت نعم الجار. صاحب المنزل الذي احتوانا بعد هجرتنا. صادق نظيف مؤمن محب لكنك زوج. زوج يا لعذابي لامرأة أحببتها. احببتني انتشلتني من ضياعي. من عمل صغير تافه كنت بحاجة لقروشه القليلة. جعلتني فنانة عبقرية احصد المال وكأنه المن والسلوى عن أوراق الشجر. أ أشاركها حبيبها؟ تثور ثائرتي على نفسي. كيف اوجع القلب الذي خفق لي؟ كيف أبكي عين من مسحت دموعي بيدها؟ أرادت لي الأفضل. تطوعت بتعليمي. تستمع لي. تشجعني على الكلام رغم فارق التعليم الذي بيننا. صرت همها. تؤكد أني سأضاهيها. تنازلت لي عن مشغلها بكل ما فيه. أنا ايضا كافأتها. حجمت احتياجي اليك. تكفيني نظرة. ملامسة رأسي وشعري. ركوعك بجانبي لتهمس وتخفف عني. أ هذا كثير؟

: تجاهلتني يا عليا. بدل ان تشرحي لي حالتك. تناسيتني آلمتني.

: كنتت رفيق حياتي بكل دقائقها. بداية شغلتني قصتك الغريبة. جئتنا مسلما بالصدفة. مؤمنا كما تحب ان تقول. كان هذا يضحكني. فالناس الذين أعرفهم ضاقوا ذرعا بقيود الدين. يعتبرونه عقاباً. يلزم المتدين على البقاء في السر والعلن مشدوداً كمسطرة. حين تكون الحرية مشروطة، تضيق بها النفس، وخاصة انه يصير أسلوب حياة صارم يهربون منه في حين صار عندك يقين.

درست ودرّست في جامعات اجنبية بعيدة. لا اعرف لماذا ذهبت ولا لماذا رجعت. غيرت ديانتك تزوجت وانجبت. تعرفت علينا. ملأني إحساس أنك جعلت اسرتنا حقل تجارب. تختبر فيها نفسك ومعتقدك وقدرتك على العطاء دون مقابل. سحبت البساط من تحت قدمي. فأنا وحدي من يقوم بمثل هذه الخدمات والتضحيات. صرت أقدر مني على منح خدمات مجانية بادلوها بالمحبة والامتنان. كما لم يفعلوا معي. افسحوا المجال لخدمتك. هذا يعني أنك أخذت كما أعطيت. وصلت للرضى وللتسليم للتفان كمؤمن متدين. وما هو الدين؟ سوى الوصول لتلك الحالة. تقاسمتما الغنيمة. انت تساند أمي وزوجتك تساندني. تصرون على تعليمي أهمية وجود الأم في الحياة بشكل عام وبحياتي بشكل خاص. تكون النتيجة حسرة على الأمومة التي حرمت منها. تريدني اعتناق وجهة نظرك. أن أرى الأم كما تراها. ارفض. أتمرد أكثر لا اعتذر ولا أندم.

: هل كنت أقول غير الحقيقة يا عليا؟

: نعم كنت على حق. لكن لمن؟ أخبرتك بأنني لا أحبها، اشك بأمومتها. كل ما كنت تقوله يطير في الهواء. لا يدخل مجالي. لا من قلبي ولا من عقلي. اسمعك تتكلم عن مكانة الأم في السماء وفي الأرض بآيات قرانيه. نركع تحت

قدميها فالجنة هناك. لم اهادن. بقيت سيفا مصلتا على كل ما تقوله وتفعله. حين تعدد مزايا تتحلى بها أمي دوني يشتد حزني.

ابي.. آخ. يا لوجعي. يا لحزني الأزلي لفقدانه. كنت متيمة به. احبه بكل ما فيه. اتذكره شابا وسيما انيقا في لباسة العسكري وأنا طفلة. استقبله بالتهليل فيمد يديه ويردفني على ظهر جوادة الأشقر. يدور بي لفة او أكثر قبل الدخول الى البيت سواء ظهرا او مساء. تستاء أمي فهذا يؤخر موعد الغذاء او موعد العشاء. وهذا يزيد من أعباء اعمالها. وهذا كذب انما هي كانت تكبت غيرتها لأنني أحظى بحب ابي.

حياتي ازدادا سوء بعد رحيله، آلمني موته المفاجئ والمبكر. لم نكن قد استطعنا الوقوف على قدمينا بعد خروجنا من بلادنا خاليي الوفاض. كنت وقتها وانا البكر. في الثالثة والعشرين من عمري. اعمل واكسب. هل ما زلت تتابعني؟ هل اسكت؟ هل ترغب بالنوم قليلاً؟

: سأسمعك حتى الصباح. في هذا العمر لا ينام المرء كثيرا. قد يسهو، ليس من ملل بقدر ما هو عدم قدرة على البقاء نشطا. عليا حبيبتي اود من كل قلبي ان أعرف متى بدأ الجفاء بينك وبين أمك. أرجوك لا تبخلي علي بالجواب لا بد وان يكون هناك سبب وراء كل هذا. هيا استرخي واحكي فأنت اليوم بغاية التألق ووضوح الرؤية. هيا قولي لي كل ما يخطر على بالك ليس ضروريا من اين ارو ما يمر بخاطرك.

اغمضت عينيها بدت كمن راح في غفوة طويلة. رحت أتأملها وشعور خفي او مكتوم يتحرك نحوها ورغما عني لامست وجهها وشعرها فانتفضت بذعر

تتلفت حولها ثم لاذت بصدري واخذت تبكي بمرارة جعلتني اشاركها البكاء فاستدارت نحوي وقالت:

: قصة قديمة لا أعرف لماذا تذكرتها الآن. يوم بعيد بعيد جداً هو يوم هجرتنا من بلادنا الى المنفى. وصلنا الى نهر الشريعة الذي يفصلنا عن احدى الدول العربية. قال كبيرنا الشيخ. سنحط رحالنا هناك ثم نبحث عن بديل اذا لم يستقبلونا وطردونا. كان علينا قطعه الى الجهة المقابلة لنصل الى بر الأمان. اندفعت جموعنا خائضة في مياه النهر الموحلة، كنا في نهاية الربيع المياه منسحبه عن الأطراف لكن العمق لا أحد يعرف كيف سيكون. قسمونا زمرا مع كل زمرة شخص يعرف السباحة ليساعد.

قال الشيخ الذي تولى أمرنا منذ خروجنا من بيوتنا بأن مهمة قطع النهر يجب ان تتم بأسرع ما يمكن. كل فرد قادر على السير عليه ان ينتبه لنفسه ولمن حوله. كنت آخر من تجرأ على الغوص في المياه الباردة خاصة في ذاك الصباح الباكر. التفتت امي نحوي وصرخت اقتربي وامسكي بطرف ثوبي. اسرعت قليلا وإذ بقدمي الحافية لا اعرف متى سقط مني صندلي الصيفي في هذا البرد القارس تغوص وإذ بشيء يكبل قدمي المصابة بالطين في قعر النهر. حاولت رفع بصري لأرى اين الركب الذي كنت برفقته كانوا قد قطعوا النهر وابتعدوا كثيرا. امي جالسه على الشط وحدها تصرخ وتندب. لا أفهم ما تقول غير انها تستحثني على الإسراع. كانت تلطم وجهها بيديها الفارغتين، تصرخ وتصيح وانا في عالمي الآخر أحاول جاهدة نزع قدمي من الطين الذي اخذ يجذبني للأسفل. أمي تصيح وتندب تشير الى الماء بذعر غير عادي كان الأمر أكبر. أخيرا فهمت من الإشارة بيديها أنها تستحثني على اللحاق بأخي الصغير

الذي لم يبلغ السنة من عمره بعد ليس بين ذراعيها. وانه أفلت منها وسقط في النهر الذي بدأ يجرفه للبعيد.

امي التي كانت دائما تظلمني بسوء الظن بي قدرت بأنني لم أحفل بما حصل ولم أحاول اللحاق للامساك بأخي خوفا على نفسي. لم تدرك انني مقيدة بقدمي الراسخة في طين النهر بدأت تصيح وتلعنني. حين افلتت قدمي كان بقايا ملابس اخي الصغير ما زالت طافية تلوح امامي فاندفعت وراءه لكنه غاص وغاب التفت ناحية امي لم اعد اراها صرت بعيدة لا أعرف كيف ارجع ولا أعرف الي اين اذهب. وقفت باكية انوح على اخي وعلى امي بنفس الوقت. أغمضت عيني واستسلمت لمصيري صارت المياه تغمرني حتى أذنيّ سأموت غرقا فرحت سألحق بالصغير حيث ذهب.

فجأة امتدت يد وانتشلتني وسحبتني سابحة بي الى شط النهر سمعتها تقول بسم الله وما شاء الله على هذا الجمال تعالي معي سأكون لك اماً لا تخافي يا ابنتي. حملتني على كتفها وسارت بي باتجاه بيتها الذي بدا قريبا جدا من النهر. ازداد عويلي. لأول مرة انطق بل واصرخ اريد العودة الى امي. قالت لن نجدها اظنها غرقت هي الأخرى. انزلتني عن كتفها ونادت على شخص اسمه موسى وآخر اسمه حيان الأول كهل والأخر شاب في بداية العمر. وقفا مذهولان أي نهر جميل هذا الذي يقذف هذه النعم. ابعدي يا أمي سأحملها الى السرير تبدو متعبة بينما ازاحه الاخر بجلفة وقال الا تحترم خالك يا ولد هذه لي.

صمتت وأخذت ترتجف خوفا او بردا كما قالت. قلت هيا عليا أكملي. ربما كانت هذه الواقعة سبب وجعك الأساسي. هيا عزيزتي.

همست لا أستطيع. لا أتذكر.

: بل تستطيعين وتتذكرين. لكن صعب عليك رواية ما حدث. لا بأس استريحي. هل أكمل أنا تقديري لما حصل. لك الحق أن توافقي او ترفضي. حاول أحدهما او كلاهما اغتصابك.

: المصيبة انني كنت أصغر من ان افهم ما يريدان مني. ولا لماذا مزقا بيجامتي وملابسي الداخلية ولماذا غرس أحدهما اظافره في لحم وركي وشدني نحوه بينما الاخر يصفعه على وجهه ويشده عني وحين يستطيع ازاحته يلقي علي بكل ثقله فيكتم انفاسي كل هذا وانا اصرخ أولول وانتف شعرهما وشعري وانادي على أمي. ظهرت فجأة المرأة واخذت تضربهما بالمكنسة حيثما اتفق ضمتني الى صدرها كان دمي ينزف من عدة أماكن في ساقي اللذان كانا ما زالا ساقي طفلة حملتني ظنتها ستلقيني خارج بيتها وتتركني حيث سأجد هناك عشرات موسى وحيان. وإذ بها تلقيني على سرير وترفع الغطاء وهي تقول:

: تصبرا يجب ان ترتاح البنت قليلا فهي ترتعش من البرد والخوف سأغير لها ثيابها ثم أحضر لها كوبا من الشاي وبعد ذلك تتقاسمان الغنيمة.

ضحكت فبان فمها الفارغ من الأسنان ونظرات بشعة تشع في عينيها الحولاوين. فعدت اصرخ وأرفض ان أستريح في سريرها القذر. أزاحها اخيها وهو يقول لماذا الشاي وهي لم تقدم لنا خدمة حتى تستحقه. عاد من جديد وقد القى بكل ثقله فوق جسدي المنهك من العراك السابق. دخل حيان وهو يصيح بأمه أعرفك يا لئيمة. تفضلين هذا الخال النتن لكني لست ممن يضيع حقه. فأنا تعلمت منكما أخذ حقوق الآخرين فكيف اتساهل بحقي.

الم حاد لا يحتمل انتشر في كل انحاء بطني بعد ان غرز أحدهما اسنانه في عضة كلب مسعور بوحشية. لم اعرف وأدر بشيء بعدها، لا أعرف كم من الوقت غبت ولا ماذا فعل بي ولكني حين سمعتهم يتحاورون بشأني وقد ظنوا انني مت او سأموت وقد عزموا على التخلص مني بأسرع وقت عدت للإغماء بإرادتي. عرفت ان صباحا جديدا اقبل وانا غائبة عن الوعي. عادوا مرة أخرى للجدال من الذي سيحملني ويلقيني في النهر قالت الأم أنا طبعا ربما صادفكم أحد رجال الأمن. راقبا الطريق اذا كان الامر مستتب يصفر لأنطلق الى النهر والقها فيه بسرعه وأعود. ليس مهما ان ألقيتها في المكان الذي انتشلتها منه أي مكان يفي بالغرض.

حملتني الى النهر من جديد وألقتني فيه وعادت مسرعة. وهما يحثانها على الإسراع فقد لمحا رجالا يجوبون النهر جيئة وذهابا. سمعنا أصوات رجال فتحت عيني لأتأكد أنهما من فئة البشر وليس مثل تلك الحيوانات المتوحشة. كانوا من افراد الجماعة الذين هاجروا معنا. فرحت أصرخ والوح له بيدي واحاول السباحة باتجاههم لكن خارت قواي مرة أخرى فتلقاني أحدهم وبدأ بدروره يصرخ وجدتها تعالوا الى هنا. توقفت المرأة برهة فخشيت ان تعود الي لكنها أطلقت ساقيها للريح بينما الجماعة المنقذة تهلل بفرح.

حملني أحدهم الى امي التي كانت ما زالت مكانها تندبني وتندب ابنها الطفل. توقفت فجأة حين لمحت الدماء تنزف من ساقي ورأت امرأة تسبح باتجاه رجلين التفتت الي بكل قسوة وسألتني، هل كنت في بيت تلك المرأة. هززت رأسي بنعم. صفعتني على وجهي وسحبتني لمكان بعيد قدر الإمكان واخذت تحقق معي ماذا فعلا. ولماذا ثيابي ممزقة؟ لم اعرف ان أعبر عما حصل؟ ولا لماذا حصل؟

ولا كيف؟ ولا ان وصلا فعلا لما تظنهم فعلاه؟ تزداد غضبا على غضب من صمتي وخوفي. كنت بحاجة لتحضنني لتواسيني.

سحبتني حيث يقف الجميع وعادت تصرخ امامهم كأنها تشهدهم على براءتها:

: بماذا اغرتك تلك المرأة حتى نسيت انقاذ اخيك وذهبت معها؟

وجمت من السؤال. ومن التحقيق الذي لا أفهم سببه. هذا التحقيق وإن كان دون كلام استمر العمر كله حتى فارقت الحياة. هل هذه أم؟ لنفرض حصل ما تعتقده حصل لماذا ألام؟ ما ذنبي؟ مرة أخرى. انه ذنب اليهود فالمرأة يهودية حملتني لتسلي ابنها وأخيها بالصيد الذي قدمه النهر لها. ما ذنبي؟

دخلت بنوبة بكاء جديدة وهي تقول منذ ذلك اليوم وانا اريد ان ابكي على ما حصل لي ولأخي لكنني لم أستطع. الآن وأنا معك فعلت دعني ابكي وابكي. صدقني لم أخبر أحد غيرك ولا ابي بهذه المصيبة. فقد اخبرتني ان قصة مثل تلك قد تقضي عليه او قد يقتلني.

لاذت بصدري طويلا ونوحها يقطع قلبي أتساءل كيف احتمل قلبها الصغير مأساة بهذا الحجم وحدها. احتويتها بين ذراعي الواهنتين. بكينا سويا زمنا لا أعرف مدته. حتى هدأت ولكنها لم تبتعد احاطتني بذراعيها أكثر وهي تقول أخيرا انا معك دون خوف دون تأنيب ضمير. كنت مؤمنه بأنك لي. حق لن يستطيع احد انتزاعه مني.

انتبهنا هناك طرق خفيف على الباب. جاء الخادم ليفتح سألتني:

: أستطيع تخمين من يطرق بابك. ماذا عنك هل تستطيع ان تخمن؟

: لا أعرف فانا لا انتظر أحداً.

: هذه سلمى.

: هل تواعدتما ان تلتقيان هنا عندي؟

: لا. لكنها تكاد تجن حين لا أكون تحت نظرها. تبحث عني بجنون تفكر مع جميل بالحجر عليّ.

اندفعت سلمى الى داخل الغرفة وهي تصيح:

: أنت هنا وانا ابحث عنك.

: ولماذا تبحثين عني. تلاحقينني حتى إلى الحمام انت تضايقينني.

: صحيح. لأنك لست على ما يرام يا عليا.

ردت عليا بحماس وهي تنظر في عيني تشهدني:

: لكنني بصحة جيدة. لا اشكو من شيء. بعض الملل مثل كل البشر.

قالت بعصبية:

: صرت تنسين. وكثيرا ما تتوهين. وكثيرا ما تثورين. والله يا دكتور صار التعامل معها امر صعب وردود افعالها لا تطاق.

قالت عليا بهدوء:

: اتركاني. ابتعدا عني. أنا من رعتك وانت في القماط لست بحاجة للرعاية.

: لعلي أحاول رد الجميل.

: أكثر مما فعلت وقلت وأهنت. يكفي. أعرف أنكما تستعدان للضربة القاضية بحجزي في دار المسنين او بالمستشفى او بالحجر علي بالسفه. لن يمكنكما مينا مني سيحميني. أخبرته كل شيء. مينا يثق بقدرتي على تدبير اموري كلها. يعرف تماما أنني لم أفشل الا بتربيتك.

: مينا؟ لقد تطور الأمر أكثر مما توقعنا.

: أنا حرة. لم تفلح تربيتي فيك.

: في شيء من الحقيقة فيما قلت. لم تحسني تربيتي لي لأنك لست أما.

اعتدلت في جلستي بمساعدة عليا وقد تحفزت لرد الأذى عن عليا. طلبت بغضب من سلمى تركها عندي. انحت سلمى قليلا وقالت بهمس:

: لن يوافق جميل على تركها هنا. إذا عرف انها عادت للتعلق بك مرة أخرى وهي في حالة عدم الاتزان. لا تصدق انها تحبك كل ما في الأمر أنك اعتبرتك العوض عن الأب الذي فقدته.

ردت علياء التي لا أعرف كيف سمعت الهمس:

: من هذا الجميل البشع ليتحكم بي. لا لن يستطيع أحد أخذ مكان أبي في قلبي. وإن حصل ماذا يضيركما؟ لماذا تضعان لي خطوط طول وخطوط عرض تقيداتني بهم. أريد أن أعيش كما يحلو لي. اتركاني هانا أشهد الدكتور مينا عل رغبتي بل عن قراراي. اعلما ان شعوري تجاه الدكتور مينا مختلف تماماً. شعور غريب دافئ ممتع. بالمقابل، عندي شعور آخر وجع هائل في أعماقي. سمه خوف أو ندم أو عذاب ضمير. مع ذلك له سحر خاص.

قلت بهدوء:

: انا لا أرى حالتها غريبة او سيئة كما تدعيان. تعاني من شعورها بالوحدة. أنا مثلها أعاني من الشعور ذاته. لكنني سأبقى بجانبها لدرء الأذى عنها. إذا لم يتغير اسلوبكما معها فسأضطر الى اخذ اجراء قانوني ضدكما. فلتدخل المشفى عندي فهي بحاجة للابتعاد قليلا عن التوتر.

: لا. سأعود لزيارتك متى شئت. لن اترك بيتي لهما.

ابتعدت. نادت الخادم. وأمرته بتقديم طعام العشاء الذي احضرته لي معها. ذكرتني بموعد نومي. كررت ما قالته. وصلت الباب ثم اعادت ما قالته. ثم اكدت استعدادها للمجيء في أي وقت أكون بحاجة لها.

لفت نظري تكرارها ما تقول واخذ من تفكيري وقتا طويلا. هل هي مريضة؟ هل تنسى؟

تناولت أحد كتبي لأتلهى عن تفكير عبثي. لن يوصلني لشيء سوى التخمين. اريد ان اعرف أكثر لأساعد أكثر. وجدت على الجانب الآخر من مقعدي فوق دفاتري التي ادون فيها ما يقوله مرضاي رسالة فضضتها كانت من سلمى. سألت الخادم عنها نفى علمه بها.

دكتور مينا.

انا بحاجة لمساعدتك. حالة عليا لا تطمئن. تسوء يوما بعد يوم. تنسى كثيرا. تتوه عن بيتها التي عاشت فيه سنوات. أخبرني جميل بأنها لا تصل الى المشغل الا قبل اغلاقه. وحين سألها عن هذا الغياب صاحت بنزق هل ارتكبت جريمة بتأخري بعض الوقت؟ تسأل من تجده أمامها عن أمها وعن طريق البيت والمشغل بعيني زائغتين وشعر مشعث. سألتني من انت؟ وأين أنا؟

استغربت الرسالة كيف وصلت الي. لماذا رسالة. لماذا لم تأت شخصيا وتحدثني بالأمر وجها لوجه وهو على ما هو من الأهمية. تعرف بأنني لا أغادر البيت الا لماماً. اتناسى الموضوع أهرب منه أجد نفسي في وسط معمعة حيرة وتساؤل من جديد. ماذا قالت عليا بعد خروج سلمى من الغرفة قالت كلمة رسالة. هل وجدتها بين أوراق سلمى وظنت أنها تحيك مؤامرة ضدها أو أن سلمى وجميل فعلا يخططان لشيء ضدها. إذا كانت الرسالة قديمة فثمة شيء هام وجاد تنتظره لتأتي بها الي. اما إذا كانت الرسالة جديدة فثمة شيء تغير فجأة ولم تعد ترغب بمشاركتي بالأمر. الرسالة دون تاريخ. هل عليا من تركتها اليوم؟

الأيام تمر. لم أعد احسبها. كنت أحسبها لأعرف كم يوم مر على غياب ندى. بعد زيارة عليا أتساءل متى ستعود. لم أخرف بعد لكنها الثمانين سأم ولئم

وملل. عدت لتدوين قصص عشتها. أتوقف وأسأل هل انا سوي لأدون روايات تقرأ وتستحق ان يرثها أحفادي أولاد تقي الدين وأولاد عائشة ورشاد. لم أفكر بالأمر طويلاً اعتبرت ما أقوم به شيء يسري عني احزاني ويخفف انتظاري لعودة عليا كما وعدت او انتظار الموت.

بعد انتظار طويل جاءت سلمى وزوجها جميل وعليا لزيارتي. كانت عليا تتفرس بوجهي كأنها اول مرة تراني. استلقت على الكنبة. قالت:

: أكره الأطباء. استنجدت بأحدهم فخذلني.

: أهذا أنا يا عليا؟ انت بزيارة جار وصديق وطبيب العائلة منذ سنوات.

: ماذا. أتقول سنوات طويله؟ هل انا مريضة منذ سنوات طويلة. هم اخبروك بذلك. انا لست مريضة. أريد منك اخبارهم أنني لست مريضة. أخبر هذا الناكر للجميل ليأخذ زوجته ويذهبا بعيدا عني.

فجأة زاغت نظراتها. كأنها شعرت بدوار فألقت برأسها بين كفيها وبكت وصمتت وطال صمتها. كأنها لم تعد موجودة معي هززتها وقلت:

: عليا انا اسمعك. أغلقت الباب بيننا وبينهم لا تصمتي هكذا. لن يؤذيك أحد وانت معي. عليا اقلقتني. كيف اساعدك وانت تخفين عني شيء ما؟ اخبرتني سلمى بحالة النسيان التي تعتريك أحيانا. ابتسامة لئيمة وبخيلة تلوح على شفتيك ما سرها؟

: تذكرتك. أنت الدكتور.. الدكتور.. لا يهم تذكرتك. انت من كنت تدهش من تصرفاتي. من قدراتي في مواقف كثيرة. صبري. وتحملي. يوم وفاة أمي

دهشت من تماسكي وقوتي. صرخت. عليا أبك اصرخي عبري عن حزنك. أخبرتك أنني الأم، هذه الميتة ليست هي الأم. ابتسمت كانت ابتسامتك حزينة. وعيناك تتساءلان كيف اصمد مع فقداني اعز مخلوقات الله على القلب؟ أخبرتك أنا الكبيرة. أنا رفيقة المتوفية وليس ابنتها؟ انجبتني ولم تتجاوز السادسة عشر. طلبت مني ان أذكرك ان نتناقش في هذا الموضوع بعد انتهاء العزاء. ابتعدت وأنت تقول بصوت غليظ لم يكن صوتك. كان يشبه قليلاً صوت أبي. عليا أنك في مرحلة انتقالية. بعدها ستقولين قبل رحيل امي وبعد رحيل أمي.

نقرت سلمى الباب ودخلت وعلى وجهها استغراب واضح. تساءلت همساً:

: دكتور كيف تتذكر شيئا كهذا وتنسى ما حصل قبل قليل؟

: شيء طبيعي تذكرها للماضي. هذا حال مرضها.

واصلت عليا حديثها غير مهتمة لقول سلمى. لعلها لم تدركه:

: أعتقد أن أمي شكت مني كثيرا. كنت تراقبني. كنت تحاول جاهدا فهم ما يعتريني عند أتحدث مع أمي. كنتت أدرك محاولتك وبدوري أحبط توقعاتك. قلت لي موضحاً ي إحدى المرات: المشاكل التي بينك وبين أمك صغيرة لا تستحق، لكنها تهد كيانها. ارحميها. لم تدرك وقتها أنك سلمتني مفتاح قبرها. اجبت على دهشتك: حملتني هم خلفتها وحرمتني أنا من زوج وبيت وأمومة؟

وقتها صمت. أطرقت رأسي مفكرا قلت لها بجفاء واضح:

: عليا صدقيني. أمك رحمها الله. هي الآن في ذمة الله. مضت سنوات كثيرة على رحيلها ولم يعد يجوز عليها سوى الترحم. صدقيني كانت تحبك. كنت

الاثيرة عندها. لا اعرف شيئا عما تقولينه. لا اصدقه. ما أعرفه شدة خوفها عليك وعلى راحتك وسعادتك. أتذكر تماما كيف دخلت في ذلك اليوم بنوبة بكاء هستيرية كما حصل الآن. شددت شعرك، غرزت اظافرك بجلدة رأسك وأخرجتها ورفعتها أمام وجهي. رأيت كيف لصق بهم نتفا من جلد ودماء وشعر. صرخت بصوت حانق لكنه عاتب: لن تصدقني أعرف.

قلت لي بغضب لكنه يحمل الكثير من رقتك وحنانك:

: لعلك أدركت الآن مدى خسارتك لأمك. هذا البكاء تعبيرا رغم أنفك.

جلست بجانبها على سرير الكشف لامست شعرها. مسحت على رأسها كما كنت أفعل وهي صغيرة. قالت:

: تدللني. لم تلحظ خطوط السنين على وجهي. لكني لاحظت شيخوختك.

بصوت مخنوق سألتها:

: متى شعرت بأنك تعانين من النسيان؟

: لا أعرف بالضبط.

: فجأة ام على مراحل؟

: حين أردت له أن يتم.

: كيف؟ هذا ما توقعته.

: لم أعد أحتمل ما أره وما اسمعه. الموت صعب. قراري الأسهل أن أنسى.

: اتعبك غياب أمك؟

: ابداً. سنوات مرت على وفاتها. كنت أكفأ منها في المهمات. معاناتي منها وليس معها. صدق او لا تصدق، لم تكن تلحظ شيئا من معاناتي. يغيظها ان يلفت أي شخص الانتباه لجهودي، والحمل الثقيل الذي ألقته على كاهلي. تزوم بشفتيها المنقلبتان بقرف تتساءل بتعجب: وهل احمل هذا العبء وحدي؟

: ليتك كنت تفضين لها بثقل الحمل عليك. ألم يكن بينكما ود.

: ابداً ابداً.

: ربما استطاعت وقتذاك تخفيف شيء من عبء مسئولياتك.

: لم أكن آمل منها الكثير. اعتدت على التحمل. يعتقد الجميع أنني قوية. لم أكن ممن يتذمرون. لم ارغب بفضفضة في أي وقت. أعترف لك بما قالته سلمى قبل قليل. تهت بضع مرات لكني عدت. ظنوا انها فرصتهم ليجدوا لي نهاية ترضيهم وتريحهم وتخلصهم مني. أتيت معهم اليك لتخبرهم أنني افهم نواياهم ولن اسمح لأي مخلوق ان يأخذ قرارا يخصني وحدي.

: كنت عندي قبل عدة شهور. تحادثنا وتصارحنا وحكيت لي عن سرك الدفين ولم تسمعي تعليقي بعد على ما حصل ذاك اليوم البعيد المشؤوم.

جالت نظراتها بكل انحاء الغرفة ثم استقرت بعيني. لم ترمش ولم تهمس ولم تصرخ لكن دموعا غزيرة فاضت من عينيها الحزينتين. طال الصمت. طرق الباب بعنف وفتح دون انتظار إذني بالدخول، او البقاء خارجا. اندفع جميل نحوها وقبض على ذراعها وشدها بعنف وصاح افيقي يكفيك تمثيلا لم يعد شيئا

كهذا يقنعني. هيا الى البيت انا سأتدبر الأمور ساجد طبيبا آخر يعالجك لا أن يتسلى بتعذيبك ويشغل وقت فراغه بأوجاع الناس.

كنت أقف مشدوها من جرأته على الكلام بمثل هذه اللهجة وانا بمقام ابيه. انقل بصري بينه وبين عليا المرتعشة من الخوف منه. خوف واضح حتى ظننت أنه يضربها حين ينفرد بها. رفعت رأسها بتمهل وقالت لي:

: لماذا تدور حولي؟ لماذا لا تقوم بحمايتي كما وعدتني. هذا الجميل شرير. جبان لا تخف منه. كأنك تنوي تركي وحدي معهم. هذا شيء موجع. لا أحب ان أكون وحدي. لا اريدهم معي. ساعدني ساعدني. ها هي موجة الصقيع تسري بعروقي. اشعر بالبرد أنا خائفة، لا انا فقط بردانة. اشعر بموج بحر غاضب يسحبني لعمقه، لمتاهة لا قرار لها. لن أسمح بهذا الطوفان ان يغرقني. أقاوم، وسأبقى اقاوم. مد يدك وساعدني، لا تتركني أغرق. لا تتركني وحدي أنت حبيبي. عشت عمري كله احبك لكنك للأسف لم تعد قادرا على حمايتي.

دفعت بكل قوتي جميل للخارج وقلت بصوت اردتها ان تسمعه لعلها تهدأ وتطمئن. عليا ستبقى هنا ولن تغادر هذا المكان الا برغبتها وإرادتها. عليا تعنيني كثيرا بل أكثر مما يخطر لكم على بال. سأدافع عنها مهما كلفني الأمر ولو حياتي.

سلمى تنتظر في الخارج بعيون منتفخة من شدة البكاء. من المؤكد لم تكن تبكي من قسوة عليا على نفسها، لعلها تبكي تواطؤها مع جميل على الإضرار بأختها. تلقتني بلهفة متسائلة عما بها. أجبت باقتضاب لأترك فرصة لنفسي كي أسبر غورهما واتفهم نواياهما تجاه عليا:

: لن أستطيع التشخيص والبت بالحالة إلا بعد التصوير المحوري للرأس.
بكت بحرقة. تابعت:

: الحقيقة ان حالة علياء متراجعة عن زيارتها الأخيرة لي. كانت عارفه ما تقول وما تفعل. أما الآن اراها خائفة غير راغبة بالحياة.

تركتني ودخلت غرفة الكشف وهي تشنج ببكاء صامت. صاحت عليا الى اين تسحبينني من يدي؟ هل صرت معوقة يا دكتور. اندفعت نحوي شعرت بارتعاش يديها بل وجسمها كله. المح الدموع المحبوسة.

: ماذا تريدان مني. انت لست اختي انت ابنتي.

ثارت سلمى كبركان صرخت بدورها:

: لا لست أمي وانا لست ابنتك. للأم رائحة يعرفها الأطفال حرمتني منها. نكهة خاصة توطد علاقتها. ربما أحببتك أكثر مما احببت أمي. أو ربما خفت بطشك. أو ربما تقديرا لما تقومين به من أجل الأسرة.

فجأة انفجرت عليا رغما عنها ببكاء موجع وقالت وسط نشيجها.

: الم تشعري بحاجتي لك أكثر الأحيان. كنت ملاذي حين أضعف وانكسر. نعم كنت أضعف وانكسر لكنني كنت أكابر. تعبا غيظا لا أدري نوع المشاعر التي تنتابني. أحيانا احسه تذمرا سخطا ارهاقا. عندها أقوم بتصرفات بشعة. أشعل البيت نارا على الجميع إلا أنت. كنت الوذ بك. انا المدعية انني أحميك كنت اهفو لسماع كلمة أختي منك. ليتك عرفت مدى حاجتي لك. ادعي أنني من يعاقبك ومن يكافئك. ببساطة أنا من يحقق رغباتك وطلباتك. لكن في

حقيقة الأمر كنت ملاذي من وحدتي من فقداني حنان الأم من عجزي من غرابة ايامي الموحشة اجالسك اسمع اخبار الدنيا منك أخبار البشر استمتع بكل ما يمر بك كأنك أنا. ها أنت تتآمرين مع جميل. الرجل الذي زوجتك إياه لأحميك. وافقته على وضعي بمصح.

: نريد علاجك قبل استفحال الأمر. سنستمع الى رأي الدكتور مينا. كان محل ثقتك وما زال. فهو يعرف خفايا حياتنا كأنه واحد منا. عالج كل فرد الأطفال والكبار والشيوخ وحالات الحمل والولادة وحالات الاضطراب السلوكي. مؤكد سيوجهنا لعله يستطيع علاجك والحد من تطورات حالة النسيان التي تتفاقم. كنت اسعى للأفضل.

صمتتا لكن صوت تنفسها المتلاحق كان ينشر بجو الغرفة اضطرابا غير عادي. أربكنا كلنا. اقترحت عرضها على طبيب نفسي. بإمكانه المساعدة أكثر مني. البكاء المتواصل والصداع وتوتر الجهاز العصبي يشير الى موضوع أكبر من فقدان الذاكرة كما اخبرتموني. وصلني إحساس بانها تريد الموت. خفت. هل لك ان تخبرينا يا سلمى متى وصلت لهذه الدرجة من العذاب النفسي. تتأرجح بين رغبة الحياة ورغبة الموت. بين الوعي وفقدانه. كانت عندي قبل فترة تحدثنا بأمور شتى كانت متمالكة وعيها تعرف ما تقول.

أجاب جميل بسخرية ادمت فؤادي:

: ليست شهورا يا دكتور بل أعواما طويلة. نعاملها كطفل مدلل. أقسو قليلا حين ترفض بكل الوسائل تناول أي دواء. إذا اعطيناها الدواء تقول لماذا تريدون قتلي وان أخفيناه في مكان آمن لئلا تأخذه أكثر مما يجب تقول تحرمونني

من الدواء تريدون ان تسوء حالتي. نحن بالكاد استطعنا احضارها لك لمكانتك عندنا وللمعرفة القديمة. أتظن من السهل علينا اقناعها بالذهاب لطبيب غيرك. ما رأيك نقلها الى مصح؟

: لا اياكم. لم تصل الأمور الى هذا الحد. ما زال عندنا حلول أفضل لتبقى هنا فترة ونرى كيف ستجري الأمور.

صرخت عليا وانتابها عويل مخيف واندفعت نحو جميل وصفعته على وجهه بقوة اذهلتني. فتدفق الدم من شفته. دون وعي أيضا اندفعت نحوه. تحتضنه وتمسح الدماء عن ذقنه. ضغطت على الجرح، تهدده كطفل وهو يتملص ويدفعها للبعيد. تحرر من بين ذراعيها واندفع راكضا للخارج.

كانت سلمى تستشيط غضبا، وعيناها تقدحان شرار، خيل الي، انها باي لحظة ممكن ان تهجم على أختها وتخنقها. سمعت عليا تقول بتلعثم وشتات عقل:

: دكتور مينا. يبدو أنك صدقت أني جننت. لا أنكر أنني متعبه ومرهقة. اشعر بالمرض بكل انحاء جسمي. أخبرني أنا. وحدي المسؤولة عن نفسي ليس لأحد حق بالتدخل في شؤوني لا هذه العاقة ولا زوجها الناكر للجميل. هل ترى فيما أقوله أي خلل عقلي.

اقتربت منها محاولا إخفاء الأسى الذي شعرت به تجاهها.

: اسمعيني يا عليا. انت فعلا متعبة. لم أشأ ان أقول منهارة. الأمر ما زال تحت السيطرة. سنبدأ بعلاج لمدة أسبوع سأحضر طبيب صديق أكفأ مني.

ضحكت لأرفه عنها وقلت:

: الدكتور محمود. شاخ. لكنه ما زال وسيما. يمارس مهنته بكفاءة. هل تتذكرين ماذا فعلت به عندما غازلك وحاول اقناعك بأنك المرأة التي يحلم بها.

: تذكرته كان انسانا شديد التهذيب. تحمل رفضي وتعنتي دون ابداء الأسباب. يومها لم يسألني أحد ولا حتى أنت لماذا رفضته. كان عندي سببي الخاص بي ولكنها أمي مرة أخرى وراء رفضي. منذ البداية كانت غير موافقه. كانت تترك اختي نجوى معه عن عمد لعله يستبدلها بي. أبي حبيبي، كان يتعارك معها كلما تقدم لخطبتي شخصً ما. في تلك المرة قالت دون مراعاة لشعور فتاة في مقتبل العمر:

: اعتبرتها سيبقى معي لتساعدني. انا وانت بحاجة ماسه لها.

سألها أبي مستنكرا:

: كيف ظننت أنه بإمكاني نسيان حياتها الخاصة لتساعدنا ؟ عليا ابنتنا.

: من سيقدم على الزواج من عرجاء.

: جاء أكثر من شخص. هناك في غرفة الجلوس أحدهم، ينتظر موافقتي هو انسان ممتاز. استشف حقيقتها. كاملة العقل والشكل ولم ينوه على عيب فيها.

قلبت شفتيها ونظرت طويلا على رجلي المصابة وقالت بفتور:

: لا بأس جرب.

فتدخلت منهية النقاش بموضوع يقتلني:

: امي على حق لن يقبل أي رجل بزوجة عرجاء.

عدت من خيالاتي على صوت علياء تقول بمنهى الهدوء:

: دكتور مينا لا تخفي دموعك. رأيتها وانتهى الأمر. ليتني أستطيع اخبارك كمية النور التي تشرق في رأسي عندما أكون معك. يزاح العتم وتوضح أشياء نسيتها. حين أكون معك أشعر بنفسي وبرغبة العيش وبراحة وسلام.

خطت نحوي ولفت ذراعيها حول جسدي ووضعت رأسها على صدري وهمست. شكرا دكتور لك بقلبي اطيب مودة وحب. تركتني واتجهت نحو الباب. قلت لها:

: علياء ارجوك ابق معي هنا او بالمشفى. سيكون الجميع بخدمتك وتحت أمرك أعطني فرصة لأساعدك فهذا يسعدني.

لم ترد علي ظلت مندفعة للخروج وهي تحكي مع نفسها سأعود وسأكتب لك كل ما أعاني منه او بالأحرى ما عانيته في السابق وتناسيته.

بعد شهور طويلة وصلتني حزمة أوراق مرتبة منمقة ومرقمه. كانت أوراق عليا. لا أعرف من قذفها الى حديقتي احضرها الخادم ليرفعكفت على قراءتها بلهفة وفرح.

هذه أنا عليا. ما زالت قناديل الفرحة التي منحني إياها عزيزي مينا مضاءة بكل جوانب عقلي. حتى ندى عبرت بخاطري ليست كمنافسة لي بحبي بل كإنسانه رائعة فتحت عيناي على الدنيا ونهتني بشدة عن امتهان نفسي وتقديم خدمات للحادي والبادي كما كانت تقول.

سأستبق حدث احتمال فقدان عقلي، بخرف أو بغيره. ذكريات تتلاحق بين شد وشذب. والأحداث التي جرحتني واثرت في حياتي ترد بخاطري بفسوة فترهقني. لعلها أحدثت شرخا في عقلي فتمزق. على الورق سألملم بقاياي، وأضمها الى وجودي المهدد.

تذكرت في لقائنا الأخير كنت ترجوني ان أبقى معك. يا لهذا العرض الجميل انتظرته عمري كله. عمر يقارب الأربعين سنة. منذ كنت في العشرين. علياء ابق معي. أكتبي ما تشائين وسأساعدك. سنعمل معا رواية جميلة. أمن بقاياي المهلهلة يا مينا. تبسمت وأجبتك لأغيظ جميل وسلمى لن أحقق رغبتهما وأترك بيتي. بعد موتي سأهبه لجمعية خيرية.

ضحكت بوجع واستدرت خارجه مع سلمى وجميل. سمعتك تقول بصوت عال عليا دعي هذه الضحكة تنير وجهك دائما مثل أيام زمان. يوم كنت تجتهدين لتتعلمي. حين تفشلي بشيء تظهر تلك الضحكة بحرج وبشقاوة صبية متفتحة للحياة. لا تغيبي عني سأبقى بانتظارك ولن أنسى أنك تعاني ولن أمل الانتظار ولن أشك بعودتك.

ما أجملك يا أحب انسان على قلبي. ها أنا ذا في البيت بيتي. إشراقة حلوة تنير دجى عقلي. حاملة بنفسي الظمأى لمسات حنانك، كلامك، انصاتك لي

حتى النهاية. تسألني أن ابق معك، وأقول ما اريد قوله. أكتب ما أشاء هذا أعز ما اتمناه ولكن..

صرت أكتب وأكتب كما وعدت. طاقة نور شملتني قلبا وعقلا وروحا. اعادت الحياة لأحداث وناس اندثرت بفعل المرض او العجز. لم أكره أحد في حياتي قدر كراهيتي لجميل البشع. لم أعرف لماذا تملكني الشعور بحبه بعد ان تزوج. بداية، فسرت شعوري نحوه بانه تملكاً. ليتزوج لن أخسر شيئا سيبقى معي وحولي. آه يا لوجعي. فالحقيقة لم أحب سواك.

الأوراق البيضاء تبثني الشجاعة لأقول لك ما لم أرد لك ان تعرفه. كلما ادمت النظر فيها اتخيلها بين يدبك تقرأها وقد امتلأت بكل اسراري فابتهج. ستكتشف أنك لم تعرفني بعد. هيا الى البداية قلمي جزلا بين اصابعي ويكتب.

خطر ببالي تدوين عدد المرات التي حاولت فيها الانتحار. محاولة القفز من شرفة المطبخ. أو متلبسة بزجاجة الكاز وقد دلقتها على جسدي وثيابي. اشعلت عود الثقاب ورميته تحت قدمي. وأنقذوني كل مرة تماما كما توقعت.

لكن هل كان في نيتي قتل نفسي حقيقية؟ لا اظن. اعجبني الهلع الذي أصاب أمي في محاولتي الأولى. اعتبرته العقاب الذي تستحقه جراء استغلالها لي. اعتبرته طول عمري عملاً إجرامياً. المرة الأولى كنت فعلا جادة؟ كانت تجربة ناجحة تماماً. كنت مع أمي وحدنا في البيت. حصلت مشادة بيني وبينها اندفعت بغضب الدنيا الى الشرفة لألقي بنفس. لحقت بي، تشبثت بي، راجيه مستعطفه وحزن وخوف حقيقي ملأ قلبها وعينيها. ضمتني الى صدرها مشفقة محبة. وصلني شعورها الصادق انها أمي. صار همها تنبيه اهل البيت الا يثيروا غضبي، والا

يعصوني مهما كان الأمر. والا يغفلوا عني أذا ما تملكني غضب. تقول بهمس أسمعه: قد تقتل نفسها. استغليت هذا الهلع بحذق وذكاء.

توقفت عن الكتابة لاستمع جيدا ما يدور في الغرفة المقابلة لغرفتي من حوار. اشعرني صوت جميل بقشعريرة وغضب؟ كتم الصوت. عدت للكتابة.

شببت عن الطوق ووجدت نفسي ملزمة بمساعدة أمي في كل مهماتها. تحمل وتلد وتعود للحمل مرة أخرى وأنا اعتني بهؤلاء الضيوف الوافدين علينا. عبئا جديداً يضاف إلى مهماتي والى مهمة أبي الموظف الصغير اللاجئ. هكذا كانوا يطلقون عليه في المصلحة الحكومية التي عمل بها بوظيفة لا تليق بمكانة أحد رجال الثورة في بلادنا. بل كان عضوا فعالاً بينهم لأنه كان يعمل في أماكن تواجد الجيش البريطاني. بحكم وظيفته في جيش المحتل كان يعرف تنقلات جنودهم وهم يخلون أماكنهم ليسلموها للمجندين اليهود، جزء بعد جزء. يعلنون لهم موعد انسحابهم من منطقة ما، ينبه ابي الثوار الفلسطينيين فيتحركون باتجاه المكان ويحتلونه قبل عصابات الهاغانا الذين كانوا يفاجئون بمقاومة الثوار بوسائلهم البدائية. يندفعان بقتال شرس غير متكافئ فيقتل منا الكثير.

بعد ان استقر بنا المقام في البلد الجديد. بسقوط البلاد نهائيا لحق بنا أبي. بسرعة اتخذت قراراي بعدم العودة للمدرسة. عليّ التفكير بإيجاد عمل لأساعد أبي في رعاية اسرتنا. الشهور تمر. وأنا وأبي نكدح طوال ثلاثين يوما والحاصل ليرات قليلة نتدبر بهم أمرنا. الأيام العجاف كانت تطحن أبي. يكبر ويشيخ. السنة تمر كأنها سنوات. كنت أعمل في مشغل لصنع الجوارب. كان عملي تنسيقها وتغليفها.

لكن لماذا نحن في منحدر الفقر الشديد هذا؟ لماذا نحن بلا بيت ولا أرض ولا مال ولا وطن. أجيبكم. وقلبي يئن وعقلي يسخر. أحيانا تكون المصيبة أكبر من تحملها فيضحك الإنسان وهو يبكي. هذا ما حصل معي حين تذكرت ليلة هروبنا المأساوية. أقنعنا خالي كريم الثائر مع الثوار بترك بيوتنا وبلدنا بشكل مؤقت. خالي آنذاك. كانت رؤيته للأمور اشمل لذلك كان رأيه محل ثقة. لم يكن رأيه موفقا تلك المرة. الموقف كان أكبر من أي توقع، وأسوأ من كل ما يخطر بخيال. منعنا من حمل أي متاع مهما كان ضروريا. حتى لا يعيق تنقلنا برحلة الشتات مشيا على الأقدام. متجهين صوب بلد عربي نقضي الفترة العصيبة.

توقفت عن الكتابة. وانصت.

عادت المشادة بين سلمى وجميل كل منهم يصرخ وانا من يستمع. وأنا من ينفعل. وأنا من يحتار. ماذا يريدان مني. كأنهم يتناقشان حول البيت الذي أقيم فيه. سمعت سلمى تقول أمي تركته لعليا خوفا عليها من الضياع بعد رحيلها.

: لكن هذا ظلم البيت من حق الجميع.

: امي سألتنا ان كنا نوافق على فكرة ابي. "المأوى أهم شيء في حياة الانسان" هذا البيت لعليا حتى آخر يوم بعمرها. ثم انه ليس لأبي بل لرشاد.

لم يرد لكن اكاد اسمع صوت تهدج أنفاسه. همس لها:

: المال الموجود في البنك من حقنا. كنت أعمل واتعب ان لم يكن مثلها فهو أكثر. لعلها نسيته. لا أحد يعرف شيئا عنه غيري.

اردد وراءه. أموال في البنك. حساب البنك. لا بد من ذلك فقد كان المسئول عن مصروف البيت والمشغل. سمعت سلمى تبكي بانهيار. استرحت فاختلاف اللصوص يفيد أحيانا. لم أتذكر مقدار ذلك المال. لكني تذكرت انه من كان يأتي بالنقود كلما احتجت اليها. نعم كان يأتي بالمال من البنك ونتقاسمه مناصفة. ها أنت عرفت فماذا انت فاعل؟

عدت للكتابة تساءلت بريبة: هل أحببت هذه الأخت؟ اعتقد ان قلبي لم يتعلق بغير ابي. حقيقي لا أعرف ان كنت أحببت غيره او مثله. لكن ما دمت أكتب بصدق لأعترف ان قلبي دق دقات الحب التي لا يخطئها أحد. كان لك انت أيها الغريب الطبيب. لكنه بين عشية وضحاها انقلب فجأة صار وجعا مستحيلاً. لا أعرف كيف؟ موت ابي ترك حياتي فارغة من شخص يهمه امري ويهمني امره. صار قلبي أجوفاً تصفر فيه ريح مقتحمة ومغادرة. سنوات والحب العقيم يزداد عقماً. ذبلت ازاهيره التي تفتحت وتركت ملقاة في العتم. محرومة من النور. محرومة من الانطلاق. يتلوى بسجنه بسرية تامة كأنه كفر.

خفته. السماح له بالعيش والتنقل بربيع عمري الغض خطر كبير. انتزعته، بأصابعي الفنانة. بأسناني الحادة. قمع غير عادي، وبألم لا يمكن لأحد تخيله. عملية استئصال لا هوادة فيها ولا رحمة. لا أنكر ليالي العذاب الطوال. ولا كم الدموع الذي بلل مخدتي. لكنني نجحت. ابتعدت قدر المستطاع. وتناسيت بأمر من عقلي المتصلب، امام كلمة محال. حرمان جديد، إثر حرمان قديم، وآخر ينزفني ببطء شديد. أدهشني الإنجاز. نعم للإنسان قدرات تسكننا، تنجدنا بلحظات ضعفنا. شدت أزري ايدت قراري فاستطعت.

وشيء مثل هذا حصل مع هذه الأخت التي اصطفيتها وقربتها. حميتها من تعثرها مع كل خطوة في حياتها. اتصدى لمشاكلها الشخصية كأنها انا. فأتدبرها وأحلها. أين هي الآن ليست في قلبي؟ سقطت سهوا؟ لا أظن سهواً بل عن عمد وإصرار. ليس سهلا ان اسمعها تقول لصديقتها المقربة أنني خرفت. لم اعد أميز بين الخطأ والصواب. واسمع رد صديقتها. في سن الخمسين، يتعرض الإنسان لمراهقة ثانية. فتحت الباب بيني وبينها أتأملها وهما تفتيان في شأن من شؤوني. فر الدم من شرايينها. قفزت الصديقة لاحتضاني وأنا جامدة. سلمى باهتة ساهمة بانتظار ردة فعلي. تركتها تغلي على نار خوفها وحيرتها. تراجعت تاركة لها نظرة أحد من سيف غرس في وجهها الحزين.

هذه الخواطر تترا بفكري كأنها تفريغ مخزون كيفما اتفق. اتركها تنساب على ورقي الجاثم بين اصابعي باستسلام تام. تمتلئ الصفحات البيضاء بمداد جاف أحمر فتبدو الاحرف المتشابكة كنقوش الحنة على كفيّ عروس. بمقص ثلم استأصلت سلمى من حنايا ضلوعي. لم أعد أراها. لم اسمع صوتها. انفجر الموقف لأول مرة بوصول اختنا نجوى المتزوجة والبعيدة حين أتت لاستقبال امنا العائدة من رحلة العلاج المبتور. وصلت وأمنا تعاني شكوكا حول مرضها لم تبق مجرد شكوك فهذه المرأة تعرف كل ما تريد ان تعرفه عن طريق قلبها. صامتة بلا شكوى بلا خوف. حال وصولها لاحظت الجفاء الذي افرضه على سلمى. التفتت نجوى التي كانت تطعم الام المريضة نحو سلمى وقالت دون مراعاة للجو التعس آمرة سلمى:

: هيا أخبري أمك بما اخبرتني.

لم ترد سلمى. تحركت أمي بالسرير وازاحت الطعام ونزلت قدميها على الأرض وطلبت مساعدتي للذهاب الى الحمام. أمي تعرف. أو ربما الحدس الذي كانت تبهرنا به وغالبا يكون صائباً. لكن هل من المعقول ان تعرف شيئا، انا نفسي لم أكن أعرفه قبل زواج جميل وسلمى؟ مستحيل.

بعد منتصف الليل بقليل قامت امي من نومها وهي تصرخ من صداعها وضيق نفسها اتصلنا بالدكتور مينا الذي جاء على الفور وأجرى لأمي الإسعافات الضرورية. هب واقفا ورد على أسئلة نجوى المتحفزة: بأنها تعرضت لخثرة في شريانها. استقر الحال الآن لكن حذار. أي انفعال يؤذيها. أرجوكم.

ألقيت القلم من يدي وازحت الأوراق جانبا وتمددت في فراشي باسترخاء لم يعرفه جسدي في حياتي. سألت نفسي كيف لم يخطر ببالي فكرة الفضفضة على الورق. ارتياح عجيب سرى في جسدي. تنفست بعمق. كمية كبيرة من الهواء انسابت استقبلتها رئتيّ بانشراح. سأكتب دون خوف ودون حذر؟

لم اسمح لحيرتي بالتدخل. كنت بحاجة للبوح بما يثقل نفسي. لأحظى براحة وانعم بالهدوء. بضعة أسطر وانساب الكلام والألم والغضب. مزاج غريب هادئ، راضية مستسلمة. اقتحمت سلمى الغرفة وسحبت الدفتر بمنتهى القسوة:

: بعدين. لا تزيدي الأمر سوءا. الان مرحلة البحث عن علاج لك.

: اهتمي بشؤونك يا صغيرة ولا تدخلي فيما لا يعنيك.

: الشيء الذي فوجئت به للتو. أننا تبادلنا الأدوار رغم انفنا. لم اعد الصغيرة ولم تعودي الكبرى. الأم الأخرى. انت بحاجة للرعاية. أنت بحاجة لإعادة تأهيل.

: من سيقوم بهذه المهمة انت؟

: لا بل امنا.

: امنا الميتة؟ ام لنا اما أخرى وانا لا أدري.

: امنا ذاتها. تصالحي مع ذكراها. مثلا حين علمنا بخبر مرضها. كم مرة أجلت البحث عن الداء والدواء. رفضت تصديقه. ابتعدت عن الدكتور مينا لأنه كان يذكرنا بان التأخير ليس في صالحها. انفردي بنفسك، عودي للوراء سنوات طويلة خلت. وتذكري الكثير من المواقف التي حصلت بينكما. تذكري كم قسوت عليها. ستعرفين متى بدأ عقلك يهرب منك ومنا جميعاً.

: يبدو أنك انت من أصيب بلوثة في عقلك ولست أنا. لست بحاجة لكثير من العناء للتفكير بأمي، كم كانت حنونة. يكفيني ان أتذكر كم اهملت علاجي حين اصبت بشلل الأطفال. كدت أعيش مقعدة كل حياتي لولا تتدارك ابي الأمر. صارت حالتي هاجس يعذبه. سأل وتقصى بلا كلل. واخذني للعاصمة. عولجت في مستشفى شلل الأطفال. كان يزورني اسبوعيا حتى استعادت ساقي بعض قدراتها. أعادني الى البيت وفرح الدنيا تغمره وتغمرني. جاء صوت أمنا الحنونة. رن في اذني. وما يزال موجعا كما بدأ. بسرعة هناك اعمالا كثيرة تنتظرك. بهت. الا استحق ان تسألني كيف حالك. أو الحمد لله على سلامتك. أو ارني مرة أخرى أنك قادرة على المشي من جديد مثل كل البنات.

: ما هذا الذي تحاولين اثباته. هل تكرهك. لم الحظ شيئا من هذا الادعاء. كانت تحبك او كانت تخشاك او كانت تخاف عليك وظننتها تخاف منك. اصدق أي شيء الا انها كانت بهذا السوء. الحقيقة انني منذ وعيت، انا اسمعك

تتحدثين عنها بطريقة لا تليق بأم. كلنا دون استثناء، أبي وأمي والأخوة. ننفذ اوامرك بتوصية منها طاعتك واجبه كفرض. مكانتك من مكانة الام والأب. كنت الاقسى علينا مثل أي مديرة ملجأ أيتام. من طفولتنا حتى في مرحلة الشباب، لم تتركينا نفكر او نختار. شعورك تجاه افراد الأسرة مريض. توصمينها بانها غير قادرة على الحب سوى لنفسها. لا تهتم إلا بشكلها وجمالها. سمعتك تقولين انها مصابة بالنرجسية. جزعت. سألتك بحذر. اجبتني بفظاظة، وغل في عينيك. "أعني تعشق ذاتها" لم افهم لكن تأكدت انها مصابة بمرض خطير.

تركتني بعد رأت جحوظ عيني وغضب سافر يهددها. أغلقت الباب بصفاقه بدأت أفكر كما طلبت مني. زيارتي لمينا كانت مثمرة. طلب مني الإفضاء بما يعذبني على الورق. حيث يمكنني كتابة ما أحس به دون تزوير او تبرير. أستطيع ان ألغي ما اريد الغائه. واضافة ما اراه يريحني. تلك خير وسيلة للراحة والتخلص من الدمار. سأتكلم مع نفسي او معك بأمانة.

هذه الإشارة الصغيرة من سلمى، عن شعوري تجاه امي، فرض بداية مرحلة جديدة في الكتابة بصدق وبأمانة. لأول مرة خطر على بالي انني من اخترت التضحية. لم يطلب مني أحد. لم يكلفني بمهمة ما أحد. انا قررت، وتفانيت في إداء كل المهام. لم يصل تفكيري لسبب هذا الاندفاع. للفت نظر أبي وأنا الأثيرة عنده، أو لتشعر بقلة حيلتها وتزداد احتياجاً لي.

كان ابي يغدق على حبه وحنانه. خصني بشكواه من متاعبه بالعمل بسبب وجع ظهره. حين رأى دموعي السخية ونظرتي الحزينة نحو ساقه المعطلة وعرجه احتضنني وأخذ يهون الأمور عليّ. يقول وابتسامته الواسعة تشي ببكاءة المكتوم.

ليس مهما كيف امشي، ولا يعنيني ان أتألم، طالما انت تمشين وتلعبين وتقومين بكل ما يطلب منك بتفان وحب. كنت محظوظة، ان عالجك ذلك الطبيب اليهودي. قبل ان يصبح صهيونياً ومصاص للدماء. رأى على وجهي حيرة. ألن تحبيني وأنا أعرج؟ ادفن وجهي بصدره واقول احبك كيفما كنت.

حلت ذكرى مريرة. لحظة مؤلمة كرهتها وكرهت نفسي. صورة ابي وهو ممدد على فراشه بمنتهى الحزن. انا الى جانبه انتحب. قلبي يحدثني بأنه يموت. لكن كونه لم يتعد الخمسين جعل بعض أمل ينبض بقلبي. كنت أظن وقتها أن الموت هو للكبار فقط. نظر إلى عيني الطافحتين بالدموع همس:

: اطلب لك يا ابنتي أن يرضى الله عنك ويشملك برعاته فقد كنت معيني بعد الله. أصبحت عاطلا عن العمل بسبب الآم ظهري. أجبرت اليوم على تقديم استقالتي. نصحني مديري المباشر بالاستقالة حتى اضمن معاش التقاعد الذي سعى جهده لتأمينه لي رغم انني لم أمض المدة الكافية للمعاش.. صرت وحدك تعيلين هذه الأسرة الكبيرة.

: لا تقلق يا أبي. أنت الآن قلت ان الله هو المعين. فأنا أستطيع أن اذهب الى عملي في الصباح وحين اعود مساء اخيط ما قصصته في النهار. سترى.

حين ارتد بصري نحوه وجدته متحجر العين ودمعة واقفة على طرف عينه صرخت ابي، جاءت امي وصاحت بدورها: لقد قتلته بما قلته له.

: كنت اطمئنه فقط.

: ابوك مات.

لم أصدق. هرعت اليك الى بيتك. تلقيتني كالعادة بلهفة واهتمام. صرخت أمي تقول ان ابي مات. قالت قتلته بكلامي. ركضت معي نحو بيتنا القريب وجثيت بجانب ابي على الأرض. جسست نبضه. تسمعت لدقات قلبه. رفعت رأسك وامرتنا بسرعة. الإسعاف. توجست خوفاً. تشبثت برقبة أبي مذعورة من فكرة ذهابه. انتزعوني منه وحملوه ولم يعد. بموت ابي بدأت مأساتي تكبر وتتحدد ملامحها. مات الذي كنت أعيش من اجله. مات الشخص الوحيد الذي كان يشعر بي بحزني وفرحي ويقدر تضحياتي. لمن أعيش؟ كانت نظرة عينيه تشعل حماسي. ما دخلي بهذه العائلة بعد ان ذهب لتعتني أمهم بهم.

رحيل ابي كان بعد مضي سنوات على هجرتنا. صرت في الثالثة والعشرون من عمري. أعمل بجد وفطنة. نميت مواهبي وقدراتي بمساعدة الدكتورة ندى. صممت ونفذت موديلات تخصني. عرفتني ندى على الخياطة الراقية. والناس التي تقدر معنى هذا النوع من الخياطة وتدفع ثمنها بلا اعتراض. ذات مرة سألتني: ما أكبر امانيك؟ أجبتها على الفور أن يكون لي مشغلي الخاص. أقدم ابداعاتي باسمي واشتهر. اجابت وابتسامة كبيرة على وجهها. انا من سيحقق لك هذه الأمنية. سألتها: كيف؟ ضحكت وهي تغادر المشغل.

كنا ثلاث صبايا في البيت. واحدة منا تزوجت قبل رحيل ابي. انشغلت تماما في تجهيز فستان خطبتها وكذلك فستان زفافها. وبفرحة حقيقية ساعدتها في تأثيث بيتها الجديد. اخي رشاد بالمرحلة الثانوية. كان مثلي، هاجسه الاسرة والبيت. تعلم معنى عشق البيت والأسرة. تعلم أن يكون همه وكيف يجعله أكثر دفئا واكتفاء. كان يعدني ويرجوني ان اسمح له بالعمل ليساعدني. كنت أصر ان عليه اكمال تعليمة حتى يتخرج في الجامعة. صار شابا رجلا ومسئولا. بعد

تلك الحادثة التي تعرض لها ارسلته الى لندن عند خالي كريم ليكمل علاجه ودراسته. قال وهو يغادرنا ستبقون شغلي الشاغل اين ما كنت وحيثما حللت واي مهنة امتهنت. لن انساك عليا لن أنسى تضحياتك. ستبقين حبيبتي. رجوته ان يهتم أولا بنفسه وصحته حضنني وقال ممازحا لن أنسى كرمك معي.

نسيت ان اكتب بالصدق الذي قررت ان يكون أساس ما ابوح به. كان عليّ ان أكمل حديثا ابتدأته قبل قليل عن سبب هذا التشرد والعوز. لا بد وانني حكيت عنه كثيرا لكنه ما زال جرحا ينزف وما زلت انا واحدة من ضحاياه. حتى تعوا شراهة البشر. حين تقرر اكل لحم الاخوة نيئا. ولم يكرهوه، استلذوا بطعم الدم وهو يسيل من بين اصابعهم القابضة على اللقمة الحرام كما سال جداول في بعض القرى القريبة والبعيدة عن الأنظار. صرنا بعد المجازر مهاجرين. هذا يعني حزنا ما بعده حزن. يعني أن بلادنا يسرح ويمرح بها من اغتصبها ونحن متروكون على قارعة الطرق. او في المخيمات، أو الوقوف على حدود جيراننا المغلقة بوجوهنا. حتى لا يختل توازنها الديمغرافي فتتوه عقولهم بحل معضلة لا حلّ لها. كيف؟ ولماذا؟ ومن اين؟ يقدموا لهؤلاء المساكين سكن وطعام وشراب وملبس وعمل ومدارس. عشنا النكبة بكافة تفاصيلها. ضحايا احتلال قسري. ضحايا اغتصاب بلاد وبيوت واراض. لسنا وحدنا، أعرف. وليست المرة الأولى التي يهجر بها أحد من ارضه وتغتصب املاكه، أعرف ايضاً. وأعرف انها لن تكون الأخيرة.

تلك الأيام كانت بداية لشراسة البشر. أو بداية وعينا على هكذا بشر. بداية استتباب قوانين الغاب. قوانين اسماك البحار. فاتحة لهجرات تالية ومتعددة. كثيرون هاجروا. وكثيرون سيهاجرون ايضاً. التنازل الأول يتبعه

تنازلات. الرضوخ يعني القبول. اعتراف ضمني بحق القوي ان يقتات لحم البسطاء. قانون ساد. بل لا بد له وان ويسود.

أبي الرجل، الرجل. لم يتركنا نعيش في خيمة أو مسجد أو مدرسة كما كان مهيأً للمهاجرين قبل هجرتهم. حالما لحق بنا بعد سقوط البلاد استأجر لنا بيتا له باب يغلق علينا لنكون بأمان. احتج بعض الأصدقاء والأقرباء. هذا تبذير. لا يعرف أحد كم ستطول مدة الهجرة تلك. فليحرص كل منا على المال القليل الذي يملكه. يرد ابي الحبيب. سأعمل ولو بكنس الشوارع لحفظ اولادي من التشرد والعوز. لا شيء أهم من المأوى.

في ذلك المأوى، والباب مغلق علينا، تعلمنا بمدرسة ابي. كان خير معلم. يحكي عن البلاد. جمالها، املاكنا، نقاء هواءها وصفاء مياهها وخصوبة تربتها. يصمت طويلا ثم يهمس ضاعت. فرضت ظروف تعسة عاشها جيله. ويهز رأسه بأسف وحزن ويقول. ظروفكم أصعب وأتعس حالا. ستعانون وكل الأجيال القادمة. عيناه مثبتتان في عيوننا المستطلعة بقية الحديث. كل عذاب وتشرد وعوز عشناه وسنعيشه أخف وطأة من أن ينشأ جيل من الأجيال القادمة وينسى الحكاية. حكاية المضحك المبكي.

حين يصمت تشرئب الاعناق طالبة بالمزيد. يتضاحك. انا معلم حاذق عرفت كيفية شد انتباهكم. أو لعلكم جيل يتوق للمعرفة. عندكم حق سأحاول ان أوصل لكم بعض الحكاية لعلها تكون حافزا لكم للبحث والمعرفة الأشمل. لن تجدوا ما سأقوله في كتب التاريخ. ربما يقتلون التاريخ قبل ان تكبروا ربما يزور.

أنا خير من يحكي أواخر أيام وطن وشعب. لا تصدقوا أننا بعنا، او هربنا او تخاذلنا هذه فرية. لقد قاومنا بسلاح أبيض. هل تعرفون معنى هذه الكلمة يعني سكاكين المطبخ امواس الحلاقة بقايا بندقيات الصيد او من بقايا أسلحة الحربين الكبيرتين ونوايانا ساذجة وطيبة. بينما العدو يملك طائرات ودبابات ومدافع وغل وحقد دفين.

التقط دمعة هربت من صموده وتجلده وهتف. كونوا شهودا. أنتم. يا من لحق بكم الأذى أكثر منا يوم التسوية التي لا بد آت. أن جيلنا كان يأمل ويقدم التضحيات. شباب مثل الورد، زينة البيوت، وفرحة الآباء والأمهات. فدائيون عزل يعرفون ان كل خطوة للأمام تعني موت محقق. للأسف لم تكن تضحياتنا وخسائرنا الكبيرة سوى مناوشات. فالأعداء شرسون يقاتلوننا بوحشية.

ماذا إذا طال تشردكم؟ ستكونون ضحايا لأشياء مستجدة على قاموس البشرية المعروف. قاموس وضعه شياطين انس وجن. فيه من القسوة والجور، ما لم يعرفه بشر، استيقظ اهل الشر من كهوفهم بعد هجوع طويل. انفجر العالم بظهورهم. مثل تفجر قنابل هيروشيما. ستقتلع جذور. وتطيح بالمعقول واللامعقول. بالقيم الدينية والدنيوية. ويبدأ عهد فوضوي. تختلط الأمور. ليس بخاف. أوله غدر وآخرة فناء.

يتنهد بين فينة وأخرى ويتابع حكاياته. قد لا تكون بجلسة واحدة لكنه كان عازما على اخبارنا بكل كبيرة وصغيرة يتسع لها عقلنا الصغير. عشنا نتائجه فيجب ان نعيش حدوثه. ذكريات تطفح يودعها قلوبنا الصغيرة لأنه يخشى عليها من الضياع، بعد جيل او جيلين، كما افترض ذاك العدو اللئيم. سألته أن يحكي

لنا عن اصابته بظهره وبساقه أبتسم بمرارة وقال. كنا قلة. لكننا ندافع عن حقنا. عن بلادنا كما الابطال. قاتلنا من أجل بيوتنا وأسرنا وأرضنا. ظنا منا انما نقاتل باستماته فرد واحد، ضد لص واحد سطا على بيوتنا. كل منا كان احرص على الموت من أجل البلد. يا لسذاجتنا.

تبين انهم ليسوا لصوصاً عاديين. يسرقون البساتين أو يسرقون شيئا ثمينا ثم يهربون. كانوا عصابات. ينفذون مخططا مدروسا محبوكا. لا بد وان يفوزوا. ولا بد لنا ان نخسر. أي معادلة بائسة قاسية هذه. وأي نفوس شريرة خططت.

كان أبي يرفع يده اليمنى ويفرد أصابعه واحدا تلو الآخر. أولاً الخلاف الكبير بين طوائفنا الإسلامية اموي عباسي مرتد ومتشيع. الأصعب عثمانيون رزحوا على قلوبنا اربعمائة سنة. جهلونا لتسهل هيمنتهم علينا. يسوقوننا كالعبيد. لا تعليم ينير العقول. ولا مطالبة بحريات تعني العزة والكرامة. غيروا الأسماء، غيروا الملل والدين. لم يرفع أي منا أمامهم رأسا. لا تسألون يا اولادي لماذا رضينا. نعم رضينا لأنهم كانوا وقتذاك أولياء أمورنا. قرأوا بعض آيات قرآنية: أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم. لم يتساءل أحد، كيف يأمرنا ربنا بإطاعة حكام يعاملوننا بجور وتعسف كالبهائم. لم يجرؤ أحد على الاعتراض. لم نقرأ أو نتذكر مقولة سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله رجل رفع رأسه وقال كلمة حق عند حاكم جائر. او تساؤل عن شروط طاعة ولي الأمر منا؟ هل هو صالح أو طالح؟ هل يأكل خيراتنا ونبيت جياعاً يسرقنا يغشنا ويتآمر علينا؟ هذا ليس صحيحا يا اولادي. سئل شيخ علامة في الدين شرح معنى طاعة ولاة الأمور. قال لم تأت ابدا بشكل مباشر. اطيعوا اولي الأمر منكم. لكنها أتت بشكل عطف على طاعة الله وطاعة رسوله. هل وعي أي منهم على هذا

التفسير. ها انا ذا اقولها ليفهم الجيل القادم ما له وما عليه. سيأتي يوم يأكلنا أولياء أمورنا عياناً جهاراً. ونحن طائعون خاشعون اذلاء.

في جلسة أخرى نراه يحكي عن الخنوع وعن الاستكانة. الاكتفاء بهز الرؤوس التي لا تحمل موافقة او قبول. في الأعماق تعني الرفض بكافة صوره وأحكامه. لأنها بلا صوت. حتى لا يشهد شهداء زور، اننا كنا ضد او مع. نعم نحن قلة. بالعدد وبالعداد وبالعلم. هم عصابة. يجتمعون بربطة المعلم بجلسة انس. بين غداء وعشاء. وكؤوس مترعة. وسكين ضخمة بيد كبيرهم، في بعض الأحيان يكون واحدا منا. وخريطة عالمنا المسكين مفرودة على وسعها، لتتضح المعالم أكثر امام من أصيب بالعشى الليلي. يغرز سكينه على بركة الغدر والخيانة ويقطع اوصالنا. يحتفلون بتحقيق أحلامهم من التهام كعكتنا الكبيرة، الوفيرة الخير. يروننا لا نستحقها. يدعون انهم يخلصوننا من قبضة تركيا الدولة لتي شاخت وتعاني امراضا صارت مزمنة. قرروا اقتسام تركة الرجل المريض. هم من أقاسي العالم راقبوا وعرفوا أن العثمانيين ضعفوا وهزلوا كرجل مريض، عليهم توزيع التركة بينهم. نحن تحت حكمه، وتضارب أفكاره، وفقدانه أهليته. لم نتجرأ ونسأل لماذا قبلنا حكم من ينازع بالنفس الأخير. هل يكفي ان يكونوا ولاة أمور حتى نذل.

اقتسموا بلادنا صاروا محتلين جدد. كنا من نصيب الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. بعد شبعت منا وزهقت من جهلنا واحباطاتنا. منحتها هدية لليهود. دون شفقة شردوا اهل البلد الأصليين. زودهم حلفاءهم بسلاح كامل العدة والعتاد ونحن عزل. ساعدوهم على تهجيرنا للوفاء بوعد مناف لكل شرف. تشردنا. انتشرنا في البلاد الغريبة والقريبة. هي أصلا لم تكن قد أفاقت من استعمار مشابه. فرنسي، ايطالي كبلوا به حياتنا. ثم فرحنا معهم يوم منحوا

استقلالهم. احتفلنا معهم بالتحرير. ومرة أخرى يا لسذاجتنا. لم ندرك بأنه كان تحررا صوريا. استقلالا مشروطا.

دخلت سلمى ووجدني نائمة فوق الدفتر والقلم لا يزال بين اصابعي. سحبت الدفتر والقلم. القت عليّ حراما صوفيا لفته بحرص حولي، اطفأت النور وخرجت وأغلقت الباب خلفها وتركتني لحيرتي. تذكرت انني ادعيت المرض للتخلص من الظرف الذي وضعتني به تلك الأخت وإذ بي مريضة فعلاً. ممددة بفقدان عقلي. سمعتها تقرأ لزوجها بعض ما دونته في اوراقي. قال متسائلا:

: كتبت هذا وهي لم تكمل تعليمها وعلى وشك فقدان ذاكرتها؟ لعلها تمثل.

قالت سلمى:

: لا أظن هي مريضة فعلا. كانت رغم انشغالها بشؤوننا حريصة على القراءة كما أوصاها خالنا كريم. كان يهتم بتعليمها وترسيخ عادة القراءة عندها. يناقشها فيما قرأت ويستمع لرأيها. يهلل أن أحسنت. يصحح الخطأ أن لم تصب. يحضر لها الكتب والمجلات والجرائد. من شدة ولعه بالعلم كان يعتبر تضحيتها لا تقدر. افهمها ان الحياة لا تكتمل الا بالمعرفة. قبل سفرة سألها وهو يودعها وقد ضمها الى صدره ألن تندمي حين ترين اخواتك تعلموا. بفرصة هيأتها لهم؟

: ابدا. تعليمهم الشيء الذي من أجله قررت ترك الدراسة. لا بد لأن يضحي أحد منا. وهذا الأحد هو انا لأنني الأكبر. لن اترك أبي وحيدا يناضل، لإعالة اسرة كبيرة كاسرتنا.

صمت عميق ساد بينهما في الغرفة المغلقة. تنهدت سلمى وقالت:

: منذ وعينا على الحياة ولها الكلمة الأولى والأخيرة في البيت. حين تجلس بيننا تحاور وتناقش وتسأل وتبدي رأيها والقرار بالنهاية قرارها. تقول القراءة والاضطلاع يؤنسها ويريحها من متاعبها. كبرنا وكبرت صفوفنا وهي لا تني تتابعنا وتسألنا، صحيح بكرامة. تتظاهر بانها تطمئن علينا. فنتظاهر اننا لم نفهم قصدها. نعطيها الإجابة والشرح متبعين اسلوبها ذاته نعلمها ونحن نتعلم.

: خالكم كريم انسان رائع. من سوء حظي انني لم أتعرف عليه. سمعت العائلة كلها تحكي عنه. ما أذكره تماما رسائله الشهرية تأتي بشكل منتظم. تتسلمها عليا مني بلهفة، تفضها وتسحب منها الورقة المالية التي يساعدهم بها شهريا وتلقها بحضن أمها وتعود لما هو اهم بنظرها. تقرأها بصوت مرتفع وأحيانا تبكي حين تقرأ الجزء المخصص لها بسؤاله عن ادق أمورها. بارك احترافها مهنة الخياطة.

: عندك حق. أعطاها هذا السلطة والقوة. صارت تتبع وصاياه ونصائحه. طبقت طريقته علينا بأسلوبه وقناعاته. أكثر شيء أنضجها وجعلها الأقوى متابعتها لقصة الحب التي كانت بين خالنا وبين إحدى قريباته. بدأت قصتها منذ الصغر. ائتمن عليها عليا رغم صغر سنها. كانت تشبه الحكايات التي كانت الجدات تحكيها. الشاطر حسن وعنتر وعبلة. صار لها دور كبير في مساعدة العاشقين. حين تحكي عن تلك الفترة من حياتها تفتخر ان خالها منحها تلك الثقة فأتمنها على اسراره. قصة حبه اسطورية. فيها تضحية من أجل من أحبها ومن أجل اسرته. كانت عليا ترويها بإسهاب تقول ان قصة حب خالي وجميلة من أحلى قصص الحب. وهي مثل كل قصص لها نهايات ولها عواقب وذيول ومن يصطاد في الماء العكر. هناك من كوفئ ومن عوقب. وهناك من أنقلب السحر عليه. من بات يبكي وأصبح يشكي. يغرق بفراغ تركه البعد والهجر والفراق. فروغ

دنياه، توجع من ابتعاد الحبيب عنه. وكالعادة في الشدائد، لا أحد يشارك ولا حتى من نحب.

جميلة كانت تعيش حياة تشبه حياة الأميرات. والدها من أغنياء الدنيا. الآن صار الأغنياء أكثر مما يحصوا وكذلك الفقراء. تعلمت في أمريكا، جابت أصقاع الأرض، قبل ان نقرأ عن تلك البلاد في كتب الجغرافيا. خالي يملك شبابه وطموحه الذي كان قبل الهجرة من بلادنا لا حدود له ثم تقلص بعد الهجرة لكن بقي منه الكثير فمثل خالنا لا يهدأ عن الوصول للأفضل. يملك حبه الكبير وحلم بمستقبل زاهر. والدها كان يعرف مزاياه. فكثيرا ما كان يمدحه بانه شاب عصامي، متفتح واع وواعد. مع ذلك وقف بوجهه رافضا بشكل قطعي زواجهما. نصحه بان استعداده وتكوينه أكبر من كونه زوج لمثل جميلة المدللة. رغباتها أوامرها المجنونة. لكن متى سمع محب غير نبضات قلبه.

: هكذا حكت عليا عن حبك لأحمد. لم يكن جديرا بذلك الحب.

: يعني أرد عليك وأحكي قصة حبك التي تصفها أنها لا تدينك ولا تشينها.

: ربما كنت اساير لغاية ما. ربما كان في نفسي حاجة قضيتها. ربما

: خلص لا أحب فتح ملفات قديمة بالكاد أغلقت يا سيد جميل.

: أرجوك اسمحي لي ان أخبرك ادانتها حبك لأحمد. تحكي فتقول. أختي سلمى أحبت لكنه اتضح انه حب من طرف واحد. تعلقت به كثيرا. استغل احمد اندفاعها ليتلهى بها. كلما نهيتها تقول هو زوجي. ذات يوم كدت أفرغ

غضبي فوق رأسها ولكن كبته حين رفعت نحوي عيناها كانتا تلمعان بفرح غريب تركتها لفرحتها.

: إذن اسمح لي بدورك ان احكي لك رأيها فيك. دخل حياتنا جميل. رشحه الدكتور مينا لنا. شاب صغير، لم يوفق في دراسته. طلبت أمه من الدكتور مينا صديق والده. إيجاد عمل له. فلم يقصر كعادته وأرسله لنا في المشغل قائلا ليتعلم أي شيء. قبلته على مضض. ثم أدركت بعد بضعة شهور كم كنا بحاجة لوجوده. يغلق المشغل مساء ويفتحه صباحاً. ينظفه. يشتري لوازم المشغل. كان شاباً وسيماً انيقاً. نشطاً لبقاً خدوماً متفهما لوضعه. طور نفسه فأحبه الجميع.

: لم تنس أيضا ان تقول إنك استخدمتني كبوسطجي. أحمل الرسائل منك الى أحمد وبالعكس. سألتني: بالله عليك لماذا يتراسلان؟ صعقت. لم أكن اعرف.

: فعلا لم تكن تعرف. طلبت منك خدمة واديتها. لم أطلع أحد على مشكلتي سواك. ذات يوم فاجأتني عليا بنظرة عميقة الى عيني وسألتني أين التوهج؟ تجاهلت.

: لماذا لم تقولي لها أنك وقعت على قم رأسك وانكسر.

: فأتيتني انت، لتقضي عليّ بالضربة القاضية.

: من الخير ان نصمت كلانا.

سمعت كل ما دار بينهما. لا أكذب ان قلت كأنني أرى تعابير وجهيهما وقرأتها لشدة معرفتي بهما. إذا كان جميل استغل موقعه في نفسي وبين افراد العائلة فهو أولا وآخرا غريب. اما سلمى فلا عذر لها. يا لمصيبتي فيها. كانا بكل جرأة

يهزئان مني. كبرت آلامي بشكل لا يحتمل. فكرت ربما استغلني ودفع بالأمور لتصل الى ذلك. مصيبة أخرى. تفسير منطقي لما حدث بيني وبينه.

حقيقة. سنوات طويلة عاملت جميل كأبني. فارق العمر بيننا كان كبيرا وحتما لن يخطر في بالي اننا سنكون ذات يوم رجل وامرأة. ثم انني كنت مولعه بالدكتور مينا فجأة رأيته يملأ حياتي بعد رحيل أبي. مما خلق صراعا بين قلبي ونفسي التي لا تعرف السقوط ابداً. كان جميل يهتم لفرحي ويخشى غضبي. قبوله كفرد من العائلة تدرج خطوة خطوة. لم نشعر كيف ولا متى. صار يفض خلافاتي مع امي. سنوات تقارب العشر صار وجوده أمر عادي. غالبا يتناول معنا الغداء او العشاء. خاصة في شهر رمضان. يقضيه معنا بطقوسه الجميلة وروحانيته. افطار صائم كان يعني لأمي شيء.

الاحترام بينه وبين كل افراد الأسرة كان متأصلا في تربيته. انا وأمي قدرنا تهذيبه الشديد وحسن معاشرته وتفانيه. يقدم كل عون لنا خاصة بعد سفر رشاد وبعد قراري بالابتعاد عن الدكتور مينا وعائلته. متواجد معي بالعمل وبالبيت بشكل دائم. لم يخطر ببالي انه ملكي، انه العوض عن حرماني من مشاعر عاطفية زمنا. جاء حدث غريب وضع الأمور في نصابها. ثم تكرر أكثر من مرة. تنبهت لمشاعر حلوة متبادلة بيننا. لكنها لا تشبه مشاعري نحو مينا.

ذات ليلة عيد تأخرنا بالمشغل لإنجاز ملابس بعض زبائننا المهمين. وهذا كثيرا ما يحصل في كل مواسم الأعياد والأفراح. كنا نغلق باب المشغل، وفرح بقلبينا يطيرنا الى البعيد. بجيوبنا مظاريف محشوة بخير وفير. اقترح جميل ان يوصلني الى البيت خوفا من يكون هناك من يراقبنا وعرف بأننا لا بد ليلة

العيد من وجود كثير من المال بحوزتنا، وقد تجاوز الوقت منتصف الليل. دخلنا المصعد المؤدي الى بيتي سويا. من شدة فرحتنا وتعبيرا عن نجاحنا تعانقنا. اهتزت الأرض تحت قدمي لحظات التقت نظراتنا المندهشة ثم لا شيء.

لكن تلك الليلة لم تكن كأي ليلة من ليالي عمري الطويلة والبائسة. لم أنم. ثمة فرحة غريبة غمرت نفسي وجسدي وشعري وعيوني. انظر الى المرآه أجدني امرأة انثى. تغزل لمعة في عيني كالتي رأيتها بعيني سلمى حين حكت عن حبيبها.

امي التي لا تخفى عليها خافية لاحظت التغيير قبل ان نلحظ نحن. لكنها لم تصل بالتكهن للحالة التي اعترتني. تساءلت متضاحكة عن سبب الراحة والسلاسة التي اتعامل معها ومع افراد الأسرة كل أيام العيد. فلا أجد الجواب أو التفسير. لم أخف ما بي، لم اتلاعب بتجاهلي، كنت فعلا غير مدركه بعد. ثمة شيء طاغ حصل. ليست الفلوس ولا المشغل ولا انجاز بزمن خرافي كل الطلبات. هناك شيء آخر لم اتوصل اليه لتفسير ما أحس به. هل هذا هو الحب او ذاك الحب الأول الكسيح الذي جرح احترامي لنفسي فقتلته.

في بعض المناسبات كنا نخرج للغذاء في مطعم تنتقيه امي. جميل معنا كالعادة. هو من يحجز لنا في المطعم. هو يسوق سيارتنا. هو من يحاسب بعد الانتهاء. كانت أمي تجلس بجانب جميل ونحن في الخلف. لا اعرف سببا لجلوسي بجانبه صباح اليوم الأول من أيام العيد. لم يعلق أحد وكأنه شيء عادي. اقسم انني لم أجد تفسيرا لكل ما يحصل سوى انه صنيعتي وابني.

حصل التماس مرة أخرى في المشغل. صباح عودتنا الى العمل بعد عطلة العيد. لم أجفل كالمرة السابقة. تلامسنا كان أطول، كان أجمل، لم يعلق أحدنا. لكن لا شك أن صفحة جديدة بيني وبين جميل فتحت. سكتنا وتواطأنا عليها.

صرنا نسافر لجلب القماش للمحل. ونسوق بضاعتنا. نقضي وقتا طويلا ممتعا مع بعضنا البعض في اختيار الكلف والأزرار والخيطان. نتلكأ وكأننا نشتري وقتا. لنبق سويا أطول وقت ممكن. امي مندهشة، لا تصدق اننا تركنا المشغل وذهبنا سويا على غير العادة كنت اذهب وحدي لأنتقي ثم يذهب جميل ليدفع الحساب وينقلهم للمحل.

مرت سنة وجاء رمضان آخر لم تتطور علاقتنا الغامضة بل ازدادت غموضاً. صار يجلس على المائدة بجواري وأنا من تقدم له الطعام الذي يحبه، كانت امي تقوم بذلك لم يتساءل أحد كأنه حق لي. لكن لا بد من الاعتراف بان هذا الشخص يخصني. وجوده مهم معنا او معي. كلامنا أخذ صبغة جديدة وطريفة. نظرات أمي لي فيها ريبة. بلهجة آمره فيها شيء من الغضب طلبت مني موافاتها لغرفتها. ظننتها ستفتح موضوع زواج سلمى إذ بي افاجأ بسؤالها الجاد:

: ماذا بينك وبين جميل؟

صعقت. تجمدت الكلمات. تجمدت عيناي في عينيها. قلت بلا حماس:

: أي علاقة ممكن ان تجمعني بولد يعتبر ابني.

: لا هناك شيء تغير بك وبه. صارحيني لنجد حلا لهذه المصيبة.

صرخت:

: لماذا كل شيء يحصل معي يهجني ويسعدني يعتبر مصيبة. جميل ليس غريبا، هو انسان اعتدنا على وجوده بيننا، في البيت وفي العمل. ربما أكثر من ابن لك ولي. أكثر من أخ. انت بنفسك تدليليه وتعتني به. لماذا يصبح فوق رأسي علامات استفهام حين اعامله بالمثل. هربت من وجهها مفتعلة الغضب. لكن قلبي كان يخفق بتلاحق ولهاث بين ضلوعي. قلبي ذاته لم يقتنع بما قلته. اعدت سؤالها على نفسي. بصمت مريب رد خياله الرابض هناك مجيبا: نعم صار أقرب، صار أحب، صار أهم. كابرت هذا لا يستحق شكها والافتراء عليّ.

سنوات مرت وكل شيء على حاله. رضينا بل واكتفينا بمشاعر تمنحنا بهجة وفرحة وسببا للحياة لتصير أجمل وأكمل. فجأة شيء ما تغير في جميل. مهموم متعب حزين. صامت مستسلم دون تذمر. لم المس منه أي تقصير او اهمال في المشغل وفي البيت. صحب أمي الى لندن للعلاج وعاد وحده لكن احواله النفسية أسوأ مما ذهب..

كنت انا كما كان هو يحاول كل منا التخفيف عن الآخر. ظننته مرض أمي ولكن لاحظت أن هناك شيء آخر يشغل فكرة. أسعدتني لهفته حين رآني. أسعدني انه افتقدني. رددت كان أكثر من الافتقاد. كان وجعاً شوقا. حيرة. حين سلم قبل كل الموجودين بشكل عادي. لم تكن قبلة عادية بالنسبة لي. أحسستها تحمل أكثر من معنى. رسالة تحمل لي شوق ووجع وحيرة. عاد يمارس اعماله في البيت وفي المشغل بحب كبير يشع كيفما تحرك.

كان معظم الأحاديث تدور حول أمي تأتينا من لندن. كلمني رشاد وانا في المشغل. لم يطمئنني بل على العكس كان متوجسا خائفا يائسا من شفائها. ما

ان وضعت سماعة التلفون واستدرت لأجلس على مقعدي. تلقتني يد ام جميل التي دخلت المشغل اثناء حديثي مع اخي وفهمت ما اعتراني. ساعدتني للجلوس ومسحت على رأسي وشعري بحنان ثم قالت:

: فوضي الامر لله. هو يتولانا برعايته وحمايته. لن يصيبنا الا ما كتبه الله لنا. انا أيضاً مريضة بقلبي أعيش بمفردي لا أحد يعتني بي.

: امي مرضها خطير وعلاجها طويل. رشاد لم يطمئنني.

: لا تصدقي الأطباء، العلم عند الله وحده يا عليا. ربما اموت قبلها.

انزوى جميل بعيدا بعد خروج امه كان يبكي. مسح دمعة نزلت على خده. الححت عليه ان يخبرني عن هذا القلق والتوتر على غير عادته. قال هل بإمكانك البقاء في المشغل بضعة أيام لأصحب امي الى الطبيب.

غاب عدة أيام واخبار امي تتوالى لا تحمل اخبارا مطمئنة. شعرت بوخز ألم تجاه أمي لكنني فكرت أكثر بنفسي ما سأفعل بعد رحيلها. سلمى ايضا أخبرتني أن ام جميل متعبة. وضعت تحت المراقبة الدائمة بالمستشفى الحكومي. طلبت من سلمى الاعتناء بها ونقلها الى مستشفى خاص غير مشفى الدكتور مينا. تحسنت حالتها وساءت حالة امي. صار جميل أكثر حزنا وشرودا عن ذي قبل. رأيت على وجهه آثار أظافر شرخت الجلد. استوضحته الأمر. قال:

: انا في ورطة، لم اعد أستطيع التفكير. هذه الشروخ من اظافري. لم أجد طريقة أفضل لإسكات أمي عن مجادلتي وهي تتكلم بلهاث متقطع. شهور طويلة وقبل ان تتدهور صحتها تتحدث عن تزويجي. ووجدت لي العروس وتريد مني

اكمال نصف ديني. وانني في الثلاثين من عمري، قد تموت بأي لحظة لذا تريد ان ترى لي ابنا. لم تسكت الا حين آذيت نفسي. لكنني على ثقة انها لن تترك هذا الأمر لا تجد مبررا لتأجيل زواجي. صمت ودمعة تلوح في عينيه يمنعها.

: ما هي رغبتها يا جميل؟

: لا تهتمي حبيبتي أنا قادر على التصرف فهي تخاف جدا من غضبي.

أول مرة اسمع كلمة حبيبتي بهذا الوضوح بهذا الحنان والحب. قالها كثيرا لكن بهمس بخوف بتردد ولكنها الآن معبرة جميلة خانتني أعصابي قلت:

: ما تطلبه أمك حق. ماذا عنك؟

صمت وصمت بدوري. كيف لم يمر شيء مثل هذا بخيالي. الأم عندها حق. وأنا معي حق. هذا الرجل لي. من سيعطيني هذا الحق؟ هل ذنبي اننا تلاقينا في الوقت الخطأ وليس لي في الدنيا كلها سواه؟ هل بإمكاني إعلان هذا الحق على الملأ. من يصدق؟ أنا الآن في الخمسين من عمري وهو في الثلاثين. كيف ننفصل ونحن شخص واحد. تواجدنا سويا أمر حتمي وضروري. كفاحنا في المشغل تطورنا وصولنا للسوق بجدارة وبمنافسة شريفة. حقا انه مجتهد يتفانى يقوم بعمله كأنه عدة اشخاص. لكن ألست من صنع هذا الكيان. من منحته فرصة عمره ليثبت نفسه. صار اليد اليمنى الفعالة لي بكل شيء. هذا الرجل ليس ابنها. الأبن الذي كان ابنها نكرة لا مستقبل له. هذا الرجل أصبح انسانا غير ما كان عليه. لم تكن المرة الأولى. سمعتها تحدث أمي عن حلمها برؤية أولاده. ذات مرة بعد ذهاب أم جميل قلت بحدة لا أفهم ما معنى زواجه ورؤية أولاده. قالت أمي بجدية:

: من يسمعك يظن أنك زوجة سيتزوج زوجها بأخرى. ماذا في الأمر. أنا أيضا اضم صوتي للأم هذا حقها وحقه. يجب ان يتزوج وينشئ عائلته الخاصة. نحن لم نشتريه. هو يعمل واحواله المادية بدأت تستقر. لا أقول تحسنت اعمالكما لكنني أقول ازدهرت. لن تفلحي دونه لذا ليتزوج ويستقر ويلبي رغبة امه.

كان ردي فاجعا لأمي قلت:

: لن استغني عنه لن ادعه لها.

ضحكت امي وهي تقول ببراءة:

: عليا من تتحدثين عنها هي امه.

: أعرف. ليس هي سبب مخاوفي بل جميل. ماذا لو كان يفكر مثلها. سألته تمتم بكلمات غير مفهومة قدرت انه موافق يفكر بالأمر.

: اليس هذا حقه وماذا سيضيرنا. لعله يجتهد أكثر حين يصير رب اسرة.

خرجت وتركتني لهواجسي التي لا تعرفها او لعلها تتجاهلها الأمر سيان. عليّ تدبر هذه المسألة. الأم تريد احفادا وأنا لا أستطيع منحه اولاداً. يجب ان أفكر بطريقة أخرى. يجب ان اتفهم ان الزواج عائلة واولاد، وما بيننا عاطفة لا يضاهيها شيء. لعله يفكر بهذه الطريقة. سألته بهمس: وأنا. رد بثقة. هذا وضع خاص لن أفرط به بسهولة.

توقفت عن القراءة اقلب الأوراق بين يدي كانت مرتبة بشكل متسلسل وان كان ما كتبته عليا متضارب بعض الشيء تكتب عن شيء ثم فجأة تنتقل لموضوع آخر ثم تعود اليه ثم تتركه مرة أخرى.

شككت ان من قذفه لحديقة بيتي هي سلمى كانت تريد مني التأكد من فقدانها للكثير من قدراتها لكنني لم اجده كذلك وجدت فيه الكثير من الحقائق التي عاشتها وحين باشرت بالكتابة بدأت تتدافع في رأسها تريد الخروج لتريحها من هواجسها التي استبدت بها سنوات طويله دون ان تجد لنفسها طريقاً فعليا للخروج بحل ما. هي الكتومة الصابرة المكابرة والمتكبرة لم تجد في حياتها الشخص الذي يستحق فضفضتها بما يرهقها حتى أمها. كذلك لم يكن لها صدقاء غير ندى لكن ندى كانت بمثابة أستاذه تعلمها فلم تستطع اعتبارها صديقة.

وجدت بين الأوراق أوراقا بخط لا يشبه الخط الذي كتبت به الرسائل السابقة. الكتابة بحد ذاتها تلفت النظر بجرأتها وصراحتها مما ادخل الشك على رأسي بأن جميل من كتبها وهو من قذف الأوراق الى حديقتي:

اليوم وجدت نفسي تستحق التصفيق ممنئا لنفسي. فقد استطعت تجاوز الموقف الصعب. انتهت مهمتي. زرعت فكرة وجوب زواجي في رأس عليا. مهما بالغت بإحساسها انني ملكها. مهما تحدت اعتراض كائن من كان وتزوجنا فهي لن تنجب. اذن. عليها البحث بنفسها عن عروس تناسبنا.

كان اختياري قد وقع على سلمى كذلك كان خيار أمي. فهي بعد مرور أكثر من سنتين لم تعد لحالتها الطبيعية المرحة اللطيفة التي تفرح كل من حولها. هذه هي العروس المطلوبة. إذا تزوجتها تبقى علاقتي بالأسرة كلها كما هي بل تزيدني درجة. احصل على صفة رسمية وأنجب وارضي امي وابقي على حبيبتي التي طوقت عنقي بجميلها. ستصل هي أيضا لذلك الخيار.

بدأت ارمي شباكي الناعمة على سلمى. ليس في الأمر خداع او زيف. سلمى بذاتها تتوق لإيجاد حلّ يخلصها من وضع سيئ لا خيار بها فيه. ان لم تحصل على حبيب يكفيها الأمومة. وعلياء ان لم تحصل على زوج ليبقى حبيبها بجانبها. لن يتغير شيء. ستبقى الأمور على ما هي عليه. حركة تنقلات بسيطة وتنحل كل العقد. العائق الوحيد هو كيف الفت نظر عليا الى سلمى بطريقة لطيفة ليبدو القرار قرارها. تحتفظ بي وتزكيني عند الأسرة بأنني الشخص المناسب للزواج من سلمى بعد مأساتها.

يبدو ان سلمى بدأت تتفهم ما اريد تساءلت:

: ماذا تحاول؟ هل ستستأثر بكل نساء عائلة. امي وعليا والان تغزل خيوطك حولي؟

اجبت على الفور:

: بالفعل عندي مشاعر غريبة نمت نحوك، ظننتها تعاطفا، إذ بها تتغير الى اعجاب بقوتك وبسالتك في الدفاع عن نفسك. لعلها منذ البداية تعني شيئا آخر ولم اجرؤ على البوح. التفاوت الثقافي بيننا. انت جامعية.

: احترم مشاعرك القديمة والجديدة واحترم نباهتك وتفهمك. تظن أن خذلاني كسرني. لا ابداً. لا يمكن الغاء الفروق فهي قائمة. لا شيء يجمع بيننا.

: إذا تساهلنا قليلا. نجد اننا متناسبان. متقاربان بالعمر. لم نعد صغارا لنتمهل. سننتهي لوحدة قاسية وعنوسة. ثم انني أعرفك وأفهمك عايشت ظروفك. وهذا شيء لا يستهان به.

: ماذا عن الأسرة؟ لعلك تحاول انتهاز الفرصة. امي ستوافق لأنها تعتبرني مصيبة تتمنى التخلص منها. ماذا عن عليا. انكما تكادان لا تفترقان. اعتقدت ومنذ زمن طويل ان بينكما مشاعر تخفونها مع انها جاهزة للانطلاق متى وجدت طريقها للنور. صح ام غلط؟

: مشاعرها نحوي مشاعر أم تجاه ابنها. عني اعترف انني أكن لها كل معزة ومحبة. اعتقد أنها نمت، بناء لتقديري لجميلها وعطفها الذي تجاوز الحد المعقول. مدت يدها لإنسان غريق في بداية شبابه اسرني. سأبقى طوع امرها دائماً. برأيك مشاعر مثل هذه تكفي للحب الحقيقي الذي أهفو اليه؟

: اعتقد ان مسألة العمر هي العائق الأساسي.

: ها انت قلتها. اختصرت الطريق لأحدد مشاعري نحوها.

: ماذا عن مشاعرها؟

: لا اعتقد ذلك فهي ليست أنانية لدرجة حرماني حقي بأن يكون لي اسرة زوجة واولاد مثل أي شاب بعمري. اريد بيت خاص بي. أريد أطفالاً تفرح بهم امي قبل ان ترحل. إذا اعطيتني بعض الأمل سأتدبر مشكلة العبودية التي قبلتها لكن ليس لدرجة حرماني من تكملة حياتي وديني وحقي.

: انا اعرفها جيدا. الانانية ليست من صفاتها. على العكس، تؤثر الجميع على نفسها. لكنها تملك ماضيك وحاضرك ومستقبلك أيضا. ليس بدافع الانانية بل بدافع التملك. ألم تقرأ قصة بيجماليون. نحتها صانعها ثم عشقها وهي حجر بلا روح بلا قلب بلا حياة.

: لا اعرف مدى الحقيقة فيما قلته. على كل حال فكري بالأمر ثم نتباحث قبل اتخاذ قرارنا.

هكذا كان رد سلمى.

ثمة تصدع بداخلي وضح بعد الحديث الذي دار بيني وبينك يا جميل. جميل أنت مثل اخ وصديق وجدته أقرب لي من رشاد حين مررت بتلك المحنة التي وضعني بها انسان احببته أكثر من نفسي.

لثقتي الكبيرة بالحب، دفعني للتخلي عن الحذر في علاقتنا. كان اشهار زواجنا تحصيل حاصل. يا الله. شيء صغير وتافه كان ينقص حياة مشتركة اخترناها بإرادتنا. وحب كبير بيننا. وعمر رحب يجمعنا. وأطفال تملأ بيتنا وغدنا. حقيقة تشبه الحلم او حلم جميل تحول الى كابوس.

لن تتدفق مشاعري للك بعد مفاتحتك لي بموضوع الزواج. ولا أظن ان مشاعري الميتة منذ زمن ستصحو واندفع بالحب من جديد. لكن ما قلته كان منطقيا الى حد ما. كلانا في الثلاثين، كلانا عانى ضغوطاً قديمة وجديدة. علاقتك بعليا ناقصة كما كانت علاقتي بأحمد. علاقة مكتوب لها ان تموت أكثر من ان تحيا وتثبت وجودها. ربما هذه فرصتي الأخيرة. ربما اكسب رضا أمي ومباركتها. قد تغفر ذلتي، اعرف طريقة تفكير أمي، صعب ان تغفر صعب ان تنسى بانني عاهة، بسبب التشويه الذي وصمت به. اكيد سترحب، ستتنفس الصعداء بتخلصها من تهمة تعيش في بيتها الشريف الطاهر. لا أنكر أن البقاء بلا رفيق طوال حياتي، أو العيش مع عليا، كلاهما شيء مقيت. قد تجد فكرتك صدى بنفسي.

كأن القدر لعب لعبة مخيفة لكي أعرف قيمة عرض جميل. في دوامة حيرتي وقلة حيلتي. أنام وفي نيتي القبول وأصبح وانا متكدرة من تطاحن أفكاري

الموجبة والسلبية. حصل شيء حسم موقفي. رأيته وكأنه تدبير إلهي. كأنه امتحان لصلابتي، بعد هزة وضعتني بلا زيف امام شخصيتي الهشة.

طلب مني وزير دائرتي انجاز عمل ارسله منذ الصباح وحدد موعد الغداء لأسلمه لأنه سيصحبني لغداء عمل. قدرت بنواياي الحسنة. التي أشقتني في حياتي أن لا بأس. كنت من الناس الذين يفترضون حسن النية حتى يثبت العكس. كان يدعوني بين فترة وأخرى منذ تعييني لغداء او عشاء عمل. أعرف تماماً أنه زير نساء من الدرجة الأولى لا يخذل. فلكل امرأة عنده طريقة للوصول اليها. بالنسبة لي كان يلمح عن اعجاب وعلاقة وشيء من هذا القبيل. صددته بلطف منذ البداية وأخبره بأنني مرتبطة وسأتزوج قريبا يمن أحب. بعد ردي الحاسم وللحقيقة أقول، انه تجاهلني سنوات. ثم انني لم أعد تلك الساذجة لقد وعيت الدرس.

ذلك اليوم كنت مستغرقة بعملي المستعجل وقبل لحظات من جمع الأوراق بظرف لائق استدرت لترك مكتبي وجدته امامي دون سلام او كلام سحبني من يدي الى الخارج، فتح باب سيارته وأجلسني وانطلق بسرعة وهو يهمس بفحيح مريب. سنذهب مشوار مهم.

انطلق خارج المدينة وإذ بنا امام مطعم فخم اتضح انه صاحبه. مشهور بأنه لا يقدم الا وجبة العشاء. طبعا لم يكن هناك غيرنا وبعض العاملين فيه. كانت طاولة معدة لشخصين في ركن منعزل. جلسنا صامتين. بدت عيناه الجاحظتين ترسل إشارات اعرفها. بهت، غطست في حيرتي انتظر الخطوة التالية. اشحن نفسي بغضب على نفسي والدنيا السافلة التي نعيش فيها. وهذا السيد الرجل.

أيا كان، بأي مكان، بأي مناسبة او دون مناسبة. يعتقد انه محور الكون. الجواري يتسابقن ويرتمين تنفيذا لأوامره. في بهجة وسرور من سقاها الحظ رضاه. يظن انه بمركزه وسطوته او ماله او وسامته يتجاوز كل عرف وقانون. بدأت علامات الانزعاج على وجهي. صار وجه موظفة ملتزمة امام مديرها.

قال انه كان يقدر نشاطي في عملي وتفاني بكل ما أقوم به. تبسم وقلب شفتيه استغرابا. كيف طلقني أحمد قبل زواجنا، ما ذلك الا لسوء حظه وانه لا يستحق النعمة التي وهبها الله له بينما غيره يتمنى لو كان مكانه لما فرط بذلك الكنز. هي الدنيا هكذا لا تعرف العدل. طبعا يعني انا الكنز ويعني بسوء الطالع نفسه. وبما أني اعرف نفسي تماما رشقته بنظرة تحمل من الاستهزاء به وبمركزه وبكل ما قال وسيقول. اربدّ وجهه. لمّح للعلاوات والترقيات التي حصلت عليها لا لكفاءتي بل بفضل تزكيته بكل اجتماع مجلس الوزراء.

سخط سكن وجهي. صمتي عاصفة على وشك الهبوب بغضب لا أعرف مداه. يؤكد بنظرات وحركات يديه المنفعلة مكانتي عنده. دخل بحنكة ليست غريبة على مثله من الباب الذي تركته قصتي مع احمد محطماً. تلهيت بتفقد المكان. عقلي يدور بسرعة أذهلتني. ارتعش قلبي. قررت ان اسأل وإذ به يسبقني متسائلاً:

: الن تسأليني لماذا نحن هنا. هكذا انت تقبلين تصرف الآخرين بلا تدبر ؟

: انت لست آخرين، انت رئيسي بالعمل. أمرتني بإنجاز عمل وأنهيته. طلبت الذهاب معك لغداء عمل ووافقت فكثيرا ما قمنا بذلك. ألسنا هنا

للسبب ذاته. ما استغربه اختيارك هذا المطعم. ما أعرفه انه لا يقدم سوى وجبه العشاء هل لي ان اعرف ما لا اعرف.

: اريد ان اعرض عليك امراً راجياً ان لا تتأثر علاقتنا بسببه سواء وافقت او رفضت. اعرض عليك زواج عرفي يبقى سرا عن اهلنا.

: سري؟ ماذا يعني زواج سري، واساس الزواج كما تصرّون هو الاشهار. ثم أنك متزوج. وفارق العمر بيننا كبير جدا. هل تظن ان هذا زواج حقيقي، متكافئ؟ هل تجرؤ وتخبر اهلي بهذه النوايا غير الحسنة. يجوز ان امي ستصفق الباب بوجهك حتى تكسر لك انفك المتعالي هذا.

: هل ما زلت تحت سن الرشد بعد كل ما حصل لك؟ أفهم من كلامك ان أمك ما زالت تقرر مصيرك. الم تتعلمي الدرس بعد تخلى احمد عنك.

: فهمت تماماً وتعلمت بما فيه الكفاية. اعتقد ان المشكلة عندك، فقد تفهمت الأمور كما يفهمها رجل من العوام وليس شخص يتبوأ مركز كبيراً في الدولة. هل يعني تخلي خطيبي عني، وفض عقد الزواج دون الأخذ بالاعتبار للحب الكبير الذي بيننا أنني صرت بهذا الرخص؟ هل تصرف رجل أحمق تنقصه الرجولة الحقيقية يجعلني مشاع؟ سلعة سهلة لمثل هذا العرض المشين.

فتحت حقيبة يدي واخرج منها قلما وعلى ورق المائدة التي يستعمل لمسح اليدين والفم كتبت ثلاث كلمات وقذفتها بوجهه صائحة هذه استقالتي يا محترم.

اندفعت خارج المطعم وساقاي تخذلانني من الغضب. تريثت تساءلت لم كل هذا؟ الدنيا فعلاً دنيا. فيها الكثير من امثاله وأمثال أحمد. أكلما صادفت

واحدا منهم سأنهار؟ هذه ليست آخر رقصة على الضحايا؟ شدت قامتي وأخذت نفسا عميقا ومشيت. لا أعرف طريق العودة، مكان كهذا لا يأتيه الا من يمتلك سيارة

لحق بي وهو يرجوني ان اتوقف وأن اقبل اعتذاره أو على الأقل يوصلني الى الطريق العام المأهول وهناك من السهل اتدبر الأمر. مشيت على قدمي مسافة طويلة حتى التقيت بسيارة نقل. توقف واقلني الى الطريق العام شكرته أكثر من مرة ليتأكد ان ما صنعه يستحق الشكر والشكر فقط.

وصلت الى البيت مدمرة. عاد وجعي الذي عشت سنوات ثلاث اتدرب على معايشته. كيف تفكر هؤلاء الناس. لهذه الدرجة ساءت الاخلاق، ورخصت العلاقات. ربما كان يظن ان نبتدئ العلاقة بعد تقيئه بتلك المحاضرة البائسة. لم يبتعد عن تفكير امي. تعتبرني عارها. امرأة خاسرة ربما فاجرة.

تلقتني علياء بصدرها بعد ان فتحت الباب. وجمت من الغضب المرسوم على وجهي. نسيت توبيخها لي كلما نسيت مفتاحي. كنتفها الملاذ من كل المهانات التي تلقيتها في حياتي. سحبتني الى الداخل مسحت وجهي وشعري وسألتني:

: هل من مشكلة؟ هل وصلك أخبار عن أحمد؟ هل صادفت أحد من عائلته؟ جسدك يرتعش وبالكاد تلتقطين انفاسك.

رويت لها ما حصل معي ومع الرئيس السافل الذي عرض عليّ ان يشتريني لبضعة شهور ولم لا طالما انا مطلقة. او زوجة مهجورة.

: هل كان يعرف تفاصيل؟

قاطعتها مع موجة عاصفة من البكاء والعويل:

: انت أيضا؟ احلفكم ان تكفوا عن ادانتي. ما زلت مؤمنه بأنني لم اخطئ. كان زوجي بمعرفة الحكومة والمأذون وورقة ممهورة بتوقيع القاضي والشهود والزوج والزوجة. مع ذلك لم تمنعه من سفك كرامتي واهدار دمي. الورقة ما زالت معي في خزانتي ممزقة تماما مثلي.

كان لجميل موقفاً طريفاً. أخبرته علياء ما حصل معي. ثار بشكل مقيت ليس لها علاقة بإنقاذي كما أوحت عليا لي وله. بدت ثورته طبيعية غير مفتعلة. قال ارجوك دعيني اراه. يجب ان يتصدى له أحد، ليفهمه ان أمواله لا تعني غيره. كان عليه ان يحترم مكانته ومركزه الكبير ويتصرف بمسئولية. سأعلمه كيفية احترام البشر. وجدت نفسي اثور في وجهه وقد اعماني الغضب:

: وانت يا سيد جميل الم تفعل ما فعل. هل تعتقد أن الطريقة التي عرضت عليّ الزواج أحسن من عرضه. كلكم رجال. لا تعترفون بنا. نحن بشر ومن لحم ودم. الرجل المطلق او المهجور أو الهاجر او المزواج لمرة عاشرة بكل ظروفه، حسنة أو سيئة يجد الطريق مفتوحا امامه ليختار من سوق النخاسة من يشتهي. اف لقد كرهت هذه الحياة وكل من فيها.

دموع سلمى وهياجاها قطعا قلبي. انا اختها الكبيرة اخذت على عاتقي حمايتها. لم أنم تلك الليلة أفكر بمشكلة سلمى. فتحت ثغرة كبيرة في عقلي على مشكلتي. حق جميل بتلبية رغبة امه. كيف أنسى نفسي، وعمري، ورجلي العرجاء، وأمي وابي. ما كنت عليه قبل اكتشافي ان جميل مغروز في قلبي دون ان أدري. هاتفت جميل ان يأتي صباحاً ليصحبني الى المشغل.

فتح جميل باب المشغل، وعلى العتم ضمني نحوه بشدة وبحيرة شديدة سألني:

: لماذا قررت المجيء للمشغل وقد اخبرتني بالأمس أنك ستعملين في البيت.

لم اجب. تملصت من بين ذراعيه وصمت. كنت أغالب نفسي. لهفة قلبي. استحالة تحقيق رغباتي ورغبته. سأل وسأل. نظرت اليه بحنو وبخوف وانا اسأل نفسي هل انا قادرة على مثل هذه التضحية. غالبت ترددي وقلت:

: اما زالت أمك تريدك ان تتزوج وتنجب لها احفاداً.

: بل صارت أكثر إصرارا حتى انها وجدت لي العروس.

: عروس! كنت سأعرض عليك ان تتزوج سلمى لعدة أسباب. تلبي رغبة أمك وتساعد سلمى على تجاوز محنتها. ما زال جرحها يدمي، نسمة هواء ويفتح من جديد. قد لا تقبل بك ولكني اعرف كيف أقنعها. انت تعرف ما مر بها من غدر احمد وما جر من مصائب.

: اعتبرت سلمى مثل أختي. لكن ماذا عنك هل توافقين على هذا؟ وسلمى هل توافق.

: وهل تعتقد بأنني سأجلب لك عروسا تعجبك وتحبها وتتركني. سلمى تقبل بأقل القليل. إذا وافقت أمك انا كفيلة بسلمى وامي.

: قد تستغربين إذا قلت لك ان سلمى هي العروس التي رشحتها امي. إذا كان هذا لا يضايقك ولا يحزنك سأفكر بالأمر.

في البيت اختليت بسلمى واخبرتها بأن جميل معجب بها لكنه متردد بالخطبة لئلا يرفض وهو على ما هو عليه. أعترف أنك تستحقين انسانا أفضل منه فهو بسيط وعادي لا يملك أي ميزة. لكني نهرته ووبخته كيف ينظر لنفسه هذه النظرة الدونية فهو يستحق كل خير. ما رأيك؟ موافقة أم لا.

: تسألينني موافقة أم لا بينما في نيتي ألا أتزوج ابداً. تسألينني وكأنه يحق لإنسانة مثلي ان يكون لها خيار كبقية البنات المقبلين على الزواج؟ انا نصف امرأة. ضحية انسان شرير افترسني. عليّ قبول بمن قبل بي. شاكرة حامده له هذا الصنيع. سيرفعني الى مصاف الزوجات المحترمات. انت وجميل وأم جميل اليس هذا شعوركم تجاه هذا الزواج. كل منكم ينظر من مصلحة ما. الفائدة الكبيرة ستعم عليّ بشكل خاص والجميع بشكل عام. تقدمون لي فرصة عمر لن أحظى بمثلها مرة أخرى. انقاذي من العدم. حين تصل امي من رحلة العلاج نقدم لها الخبر السار هدية بعد فترة العلاج القاسية. اليس هذا تفكير كل منكم. أعرف لن يعجبك تفسيري للأمور. وجدتني جاحدة ناكرة للجميل. أرى الدنيا من ثقب ابرة.

فتحت ذراعيها ولمتني بكل حزني ومتاعبي الى حضنها كعادتها قبل أزمتي. مرت شهور لم تفعلها تتركني لعذابي وكأنه يسعدها المي. تكلمت بهدوء ثم فجأة انتقلت لهجوم جارح:

: من تظنين نفسك؟ زواج كهذا هو لمصلحتك قبل أي شخص آخر. ثم لا أرى أي عيب في جميل. شاب جميل ومهذب وكفؤ لكل عمل يقوم به.

رددت بقسوة اشد:

: هل يحبني؟ هل يحترمني؟ هل تفهم ظروفي؟ تقدم لي بعد دراسة وتفهم. هو شاب ذكي لا شك. يعرف من أين تؤكل الكتف. بكل بساطة نهاز للفرص. هذه فرصته ليحظى بمثلي.

استدارت خارجة من الغرفة وبصقت كلمات واهانات محزنة لأختها:

: بالمناسبة انت انسانة متواضعة بكل شيء. شكلك اقل من عادي، جسمك غير متناسق. تتباهين بشهادة اثبتت عدم جدواها. جميل أجمل منك رشيق وقوامه رياضي. شاب انت تبدين أكبر منه بسنوات. لم تتصرفي على مستوى العلم الذي دفعت من أجله كل جهدي ومالي. سقطت كأقل بنت جاهلة لا تعرف الصالح من الطالح.

غابت دقائق ثم عادت لتخبرني بأن موعد وصول أمي من رحلة العلاج الليلة لذا يتوجب علينا تهدئة الأمور. خرجت دون ان تسمع ردي. معاناتي فتحت كل أبواب الوجع على مصاريعها. لا أحد يتفهم وضعي ووجعي وانكساري. اقولها بكل المعاني بكل صدق وعفوية:

: ابتعدوا عني. لا تدفعوني لقتل نفسي بعمل هستيري حقيقي كالذي تمثلينه كلما نفد صبرك. لست وحدك من لحم ودم.

قاطعت الجميع حتى الاحتفال بعودة امي لم أجد له بنفسي صدى. معدتي انقلبت رأسا على عقب. لا اشتهي طعاما ولا أستسيغ شرابا. ساءت حالتي الصحية والنفسية.

عادت امي من رحلة العلاج مرهقة هزيلة وكأنها شاخت فجأة. منطوية على بطنها كأنها تشكو من الم. أنهكها العلاج الذي تلقته. قبل ان تسترد أنفاسها اندفعت تصف شعورها اثناء كل جلسة علاج. سم يسري في عروقي فأتمنى الموت ألف مرة. لكن مع الأسى العاصف الذي يعيشه رشاد من جراء مرضي اصمد حين يطل بوجهه الخائف متسائلاً ما بك حبيبتي؟ ابتسم أهز برأسي وتقول عيناي كل شيء يهون وانت بجانبي. رشاد بذل المستحيل. الغالي والرخيص، والبكاء والعويل. يحاول انقاذي من موت كنت أراه اهون الشرور. أغمض عيني ولا أرد على سؤال المعالج او المساعد. كأني أيسر للموت مهمته لكنه لا يأتي. أصير بعد الحقن حطاما مثل خرقة باليه. يشحب لوني وتهرب مني الحياة. يسكن الخوف كل جارحة من جوارحي أخفيه بكل جهدي. لكنه يراه في نظراتي الهائمة الزاهدة السقيمة. عالم لم أعد أرغب فيه. تلتقي عيوننا غرق بأسف محزن وابتسامة لا معنى لها.

اصمت أبكي ثم أعود اؤكد ان كل شيء يهون حتى الموت بجانب رشاد. لكنه هناك اشكال كيف سيعيدها بنعشها وهو ما زال صغيرا على كل ذلك.

تصمت طويلاً كمن تعب من مشوار طويل مشاه على قدميه الواهنتين. تخصني بنظرة عميقة. تضم عليا متنهدة آه عليا من سيحميك من وحدة قاتمة قادمة.

الدكتور مينا الذي استقبلها بالمطار مع زوجته ندى. أحاطها بكل عناية. ارقدها بسريرها ورجاها ان تنفذ نصائحه بالراحة التامة لحين عودتها لنشاطها وقدراتها. بنظراته المتعاطفة معها ومعنا. يتمنى علينا اراحتها ومسايرتها وإذا أمكن اسعادها. همست له هل تعني عودتها قبل نهاية العلاج انه لا أمل بالشفاء. رفع عينيه الى السماء وقال: معجزة من السماء لا أحد يعرف حكمة الله سواه.

في صباح اليوم التالي جاء جميل وأمه للسلام عليها. بدت أم جميل بهزالها السريع ونقل خطواتها بثقل لم نعهده بها، حالتها محزنة كأمي. لعل الانسان يحس بقرب يومه. فيعزف عن الحياة والناس. النظرة نفسها الساكنة بعين ام جميل هي نفسها التي بعين أمي. انقطاع الحيل وعدم القدرة على الكلام. بهمس وباختصار باشرت بالحديث مع أمي:

: الحمد على سلامة العودة. ان شاء الله الأيام القادمة تكون أحسن. لعلنا جميعا بحاجة لخبر سعيد مفرح يسعد قلوبنا بعد المرض. جئتك اليوم طالبة منك ان توافقي على زواج جميل وسلمى. اعرف قيمة جميل عند كل فرد بالأسرة. لذلك أرجو ان تمنحينا بركتك وموافقتك فخير البر عاجله لعلنا نحظى بحفيد يمسح عن قلوبنا وجعها.

نظرت امي نحو جميل بحب غريب ورضا تام. قال جميل:

: ها انا أطلب يد سلمى للزواج على سنة الله ورسوله. عشت بينكم وتعرفونني حق المعرفة وأعرفكم وأحبكم كأهل لي. إذا وافقت يا امنا باركي لنا

ولنحدد يوم الزفاف فكما قالت امي خير البر عاجلة. إذا لم توافقي فأرجوا ان تنسوا الموضوع لا أريد افساد علاقتي بالعائلة.

صرخت امي بفرح:

: نرفضك! كيف ولماذا؟ انت ابننا وتربيت مع اولادي سنوات طويلة لم نر منك الا كل خير واحترام. أدب وذوق وتفاني. أكيد انا موافقه على بركة الله.

أطلقت ام جميل زغرودة قلدنها الصبايا حولنا. قالت سلمى لجميل:

: وأنا لا أحد ينتظر موافقتي ورأيي. قبولي تحصيل حاصل.

قالت امي متجاهلة ما سمعته:

: حضري نفسك سيتم الزواج بأقرب فرصة. لماذا التأخير والشاب نعرفه كما نعرف خطوط كفوفنا. هيا جهزي ما يلزمك عليا تساعدك.

لم يعلق جميل ولا امه ولا عليا. استمر الفرح يلعلع بضجيج ومرح حتى أمي نسيت أسئلتها المتلاحقة عن سبب عودتها لا أمل هناك وموتي صار حتمياً؟

في منتصف الليل سمعنا انين وتنهدات بكاء مكتوم. كانت سلمى في فراشها تندب حظها وبؤسها وحياتها الماضية والقادمة. كنت واقفة على باب غرفة أمي قبل ان اتحرك رأيت أمي تتحامل على نفسها وتتجه ناحية الصوت الحزين. القت بنفسها على سرير سلمى احتضنتها وقالت بحنان:

: سلمى صدقيني ما كنت لأفرط بك لولا معرفتي بجميل. انه رجل بكل معنى الكلمة. ليس كالسابق الذي سلبك كل شيء. تركك وسافر. سأخبرك ما قالته لي عمتكم على الهاتف حين اتصلت بي لتطمئن عليّ صحتي. اللهم لا شماته.

أحمد فقد عقله. كان يعيش بشخصيتين والعياذ بالله. هو الآن في مشفى للأمراض العقلية في لندن. لا تلومي نفسك ولا تلوميه. الرجل غير سوي وأنت من دفع الثمن. ساعة مباركة ان يصير جميل ابنا لي بحق وحقيق. ام جميل تحبك وفرحة باختيارك عروسا لابنها. الحمد لله وعلى بركته. ربنا يتمم على خير. قد عزمتهم على العشاء غدا مع الدكتور مينا وزوجته.

وهكذا خيم علينا ليل ذلك اليوم. يوم موافقة سلمى على الخطبة. بثقل موجع. فرح لا يخلو من توتر وقلق. ينتظر كل منا موعد ذهابه الى فراشه ليطبب جراحه التي لا يعلمها غير رب العباد. أمي تعرف انها تلقي بسلمى لشخص لا يناسبها. لكنها مكرهه. وسلمى تبكي تاريخها كله. تثرثر بل تهذي بكل ما يخطر على بالها. تداعب أمها بقولها يعني لازم يا ست مريم التعليم. هل تذكرين حين طلبت منك ان اترك المدرسة واقعد بالبيت معك اساعدك بلا مدرسة بلا هم. عليا هل تتذكري معلمة الصف الرابع التي كانت تضرب الطلبة بعصا كبيرة وتخفيها وراء السبورة. وسط دموعها تضحك. هل تعرفين من الذي فضح المعلمة يا أمي، عليا أختي. ذهبنا سويا انا وعليا الى المدرسة. اصطحبت المدير الى الصف. لتقص أصابع العقرب الذي كان يلدغنا كلما اخطأنا. أخرجت العصا من مكمنها. بهت المدير، شحب وجه المدرسة. تورد وجهي وابتسمت بخبث.

عقبت عليا قائلة: هي نفس الابتسامة التي رأيتها في عينيك ذات يوم وأحببتها. الآن هي في عينيك علامة قبول ورضى تلوح على وجهك. هيا قوليها.

هدأ البيت ونام الجميع. اما أنا عليا، سهرت اندب حظي ونفسي، فقد أكرهت نفسي على تضحية لا أعرف ان كان في مقدوري تحملها. ما زلت أعيش بتلك النفسية الزاهدة في كل شيء. ما زلت كما قال ذات مرة طبيب نفسي صديق الدكتور مينا سجادة الباب الرئيسي الذي تمسح بها الأقدام عند دخول المنزل من أوساخ الطريق. هل ما أقوم به يختلف كثيرا عن دور تلك السجادة القابعة ابدا تحت الأقدام لتنقذ البيت من اوساخ الطرق. اليس هذا دوري الذي اخترته بمحض ارادتي لأمنح الفرص لبقية افراد الأسرة.

أتذكر الجميع وأنسى نفسي. هذه حياتي منذ باكورة شبابي. لا شيء أسهل عليّ من ظلم نفسي، والتنازل عن حقي. ثم اندب استغلال الجميع لي. كبلتني ظروف قاهرة زادت من قهري. شلل في طفولتي، انقطاع دراستي، اغراق نفسي بتربية اخوتي. قراري بعدم الزواج وحرماني من ان أكون اماً. اشد ابتلاءاتي، اقولها دون مراوغة، وقوعي بحب مستحيل بداية شبابي. من أحببته كان يكبرني بأكثر من عشرين عاماً. ملك حبه قلبي وعقلي. وبدأ صراع بداخلي لا طاقة لأحد على احتماله. مولود صغير بريء خلق للتو وعليّ خنقه. تقوم قيامة ولا تقعد بين بين قلبي وعقلي. الوم قلبي فقد وقع بحب الرجل الخطأ. أي كائن إلا هذا. زوج وأب وذو مكانة كبيرة. هل وقع اختيارك عليه يا قلبي لاستحالته. مشاعر أتت بوقت غير وقتها وبظروف أقسى من حجر الصوان تكاد تقتلني.

جاهدت جهاد الابطال لأقاومه وأخفية واقتله وهو ما زال في المهد. يغافلني وينمو ويكبر ويتمدد. كلما رأيت حبيبي تضج الدنيا حولي وبداخلي. والأرض حيث أقف تزهر. والهواء يرد الروح النائية عني. رغم الصمت وغض البصر يقام عزاء بقلبي. يطالبني بنصيب ولو بسيط. غير هذه الرعشة الخجولة التي

تعتريني. بمؤانسته، باهتمامه بكل ما يعنيني. بلمسات يده على شعري وعلى وجهي، نظرات شغوفة لهفى عليّ. منذ رحيل ابي سمح لنفسه بمثل هذه الأمور. حاول تعويضي عن فقيدي المحبوب. ضمني بحنو غمرني فأحيا قلبي الذي سقط مني في فراغ قاتل. كان يعرف مدى سعادتي بنظراته وبكلماته وبلمساته. كان يعرف. فيزيد الجرعة. يرفرف قلبي بجوانح متكسرة بصدري.

الله وحده يعلم كم بكيت. وكم تعذبت. وكم تناسيت. انه حبي الأول البريء. صممت اذني عن صراخه. تغافلت عنه وهو يختنق. كنت في الثالثة والعشرين كان هو في الخامسة والأربعين. كنت في الحادية عشر من عمري عند أول لقاء بيننا. كانت لمساته على شعري ووجهي كانت ضمته لي الى صدره منذ صغري استمرت بعد رحيل ابي، بصدق وتفان لتخفيف مصيبتي ودفع ألم نفسي. ظهرت بوادر الحب واشتعل فجأة في قلبي، أحببته بجنون وانبهار.

الدكتور مينا. حبي المستحيل. ينتشر سحره حولي فور تواجده حيث أكون. غالبا ما يكون غاضبا مني. لا يتوانى عن توبيخي كطفلة مشاكسة لأمها. كرهتها أكثر. عرفت انها اثارت اهتمامه خاصة بجمالها، أدبها، وعزة نفسها. تحملها تمردي المستمر عليها وتسامحها بشفقة ورحمة. متفهمه معاناتي وعذري. حاول ان يجعلها امامي أم متفانية. بحنو بالغ حاول إزاحة الغشاوة عن عيني بانها ليست مزاحمة لي. ازددت عداوة، مع ذلك تقبلت قسوتي واحتوتني.

وضحت الأمور بعد انزياح الحزن. رأيت محاولة الدكتور مينا ملء المكان الذي شغر فجأة بحياة اخوتي الصغار. استهولت الأمر. أنكرت على نفسي فرحتها

لوجوده، لصوته، لكلامه، لصرامته، لتدليله. ماذا أقول. رجل المهمات الصعبة. توضحت أكثر صورة جيراننا. العائلة الجميلة التي اسكنتنا ببيتهم وقلوبهم.

كان الأمر يهون إذا زارنا بمفرده، لكن حين تصحبه ندى الجميلة الانيقة الفنانة، زوجته يختلف الأمر. من يضاهيها. من ينتزعها من قلبه. من يأخذ مكانها. ندى هي بذاتها مخلصتي من الهوة التي ألقيت نفسي فتحجم يومي وغدي. تمسكت بيدي الاثنتين وانتشلتني على مهل، بصبر وإخلاص. علمتني أصول المهنة التي تحبها شخصياً. مهنة ليس ميزتها ادرار المال الوفير بشكل لا يصدق وحسب، بل لأنها رممت نواقص كثيرة بداخلي، كبلني وقتلت ثقتي بنفسي. بين سنة وأخرى وإذ بي انسانة منتجة وليست متسلقة.

علمتني الا أقدم خدمة لكائن كان دون ان يطلبها مني، بل ويرجوني. صرت اتريث باندفاعي لأقدم خدماتي للحادي والبادي. لتقديم خلاصة روحي للجميع. انقذت سنوات عمري القادمة من ان تتسرب بتضحيات لم تسعد أحد.

تنبهت. كم خدعت بلعبة الحياة لإرضاء الجميع. بعد تنفيذ وصاياها أحسست بالفرق العظيم. شعرت بامتنانهم، بأهمية ما أبذل من جهد وتضحية. تمنوا لو بإمكانهم تقديم أي شيء يسعدني. احترموا لهفتي وخدماتي التي كانوا يحاسبونني إذا تلكأت بفظاظة. يلومنني باندهاش. لماذا أتأخر حتى يضطر أحدهم للفت نظري. ربما صاح بوجهي ببجاحه. لماذا عليه ان ينتظر لأنجز ما كان عليّ إنجازه من قبل. علمتني أن رضاء الناس غاية لا تدرك.

علمتني من علمها الواسع، وخبرتها بممارستها لمهنتها عليّ تقويم سلوكي الانساني الخاطئ واعادته الى وجهته الصحيحة. لم ابحث عن تلك المرأة الرائعة

بل أرسلها القدر لتخلصني من اعوجاج سلوكياتي، بامتهان نفسي، بشعور بنقص وعجز للقيام بأي شيء لأشتري حب من حولي. والحب ابدا لا يشترى. لم تسمح لي ان اتلفظ بكلمة عن الظلم والحظ والضحية. علمتني ان افخر بعملي، وبنجاحي، واحترامي لنفسي. بصوتي العالي أقول انا عليا مصممة أزياء، فنانة، مبدعة، بارعة.

أرأيتم مدى عذابي؟ هل أوصلت لكم مكانة تلك المرأة الرائعة في نفسي. يا لمصيبتي فهي نفسها منافستي في حب من أحب. كيف لقلبي قدرة على استلاب زوجها منها؟ كيف يمكنني البوح له بمكنون قلبي ولفت نظره على هذا الكم من المشاعر بقلبي تجاهه. مطالبته بإيجاد مكان لحب هو ليس بحاجة له في حياته. تمنيت أن أقوم فجأة من النوم وقد فرغ قلبي منه. كأنه حالة عرضية او مرضية وشفيت. كل يوم أقوم من ليلتي التي قضيتها ساهرة احاكم نفسي والناس والدنيا لأجده ازداد تأججا وغراماً وعذابا لا يطاق. لأبكي ما طاب لي البكاء، ولأنزوي بعيدا كلما اقترب مني. ضريبة جرأة قلب دفع ثمنها أسى وحزن وفراق.

انا وبعد عشرين سنه اكتشف بأنني واقعة بحب فتى، حرك موات قلبي، قبل ان أعي خفقانه من جديد. شاب اكبره بعشرين عاما. أي لعبة عجيبة يتلاعب بي قدري. هل هذا محض صدفه؟ هل هو قدر؟ هل العذاب صار مني. ملازم كلون بشرتي، ولون عيني، وعرج رجلي.

حتى اليوم وكلما اشتد ضعفي وخوفي وتوهاني. يطل عليّ وجهها من وسط الزحام معاتبا ومشجعا. صوتها المحب الواثق المعاتب. أين يا عليا اتفاقنا ألا تقبلي بعد اليوم عمل السخرة التي تكلفي بها. ولا اعتبار نفسك مظلومة ولا محرومة.

رددت بصوت خافت لخيالها الذي يلح عليّ. عزيزتي انقض الاتفاق لعدة أسباب. لن يستطيع كائن من كان سحب البساط من تحت قدمي. ولن أعود للوقوع بشكل موجع على ارض صلبة وباردة كما هي حياتي. لكنها الآن تضحية أخرى لتفض الكثير من المشاكل.

يا لها من حكاية موجعة وجدت نفسي بها.

سنوات طويلة وانا أحاول ان اوفق بيني وبين سلمى وخاصة بعد رحيل امي. نعم امي رحلت بعد زواج سلمى بسنتين تقريبا. كانت سلمى قد انجبت ابنها الأول زياد وافرحت قلب ام زوجها وامي. كلتاهما رحلتا بالعام نفسه. ولادة زياد لم تزعجني بل احببته واتخذت منه ابنا شملته برعايتي واهتمامي ثم جاء عماد أخ له بعد سنتين. استتب الأمر وعشنا كأسرة مع بعض التحفظ.

ترسمت الحدود. على جميل إعطائي ما هو لي وما لسلمى لها. صار يكفيني موعد صباحي ثابت معه. ظل محافظا عليه سنوات طويلة وقبل رحيل امي وبعد رحيلها. نشرب قهوة الصباح سويا وندردش بكل شيء الا الوضع الجديد. نتلامس. لا اعرف إذا كانت عن عمد منه أو مني أو من غير عمد. نتعانق كأي صديقين حين نمر بحادثة تفرحنا معا. مثل مجيء ولدية واحد بعد الآخر. موت أمي ثم امه. حالة مرضية تصيبني او تصيبه. نجاح اصبناه.

نتعارك أحيانا، وسط دهشته. ابتدع أمورا غريبة لتعذيبه. اغضب واعرض دون شرح السبب رغم أني اعرفه جيدا. قد أكون حزينة لهذا الوضع غير السليم. او انزعاجي إذا ابدى أي اهتمام بزوجته. او شراء شيئا خاصاً لها. او منحها

امامي ابتسامه. او امسك يديها. فأكاد اجن. افرح إذا شكت منه او قالت انها غير سعيدة. يشعرني ذلك بطمأنينة تبهج قلبي.

كانت أمي تمتعض من ملاحقتها بالسؤال وكأنني محقق. أرى نظرة عتاب في عينيها. أشرح وجهة نظري التي كثيراً ما تروق لي ولا تروق لأحد ممن حولي. أكمل كلامي وإن أعرض عنه الباقين. زواج كهذا، عقاب أكثر منه حياة.

تسمعني امتدح جميل، وكثيرا ما افعل، تغمزني بأن أكف. فأرد لماذا لا نعترف بالحقيقة انه أجمل وأكثر اناقة منها. أعلق على هندامها وسمنتها. تعجل أمي بملاطفتها قائلة هكذا الأمهات في بداية عهدهن بأمومتهن وانشغالهن بأطفالهن ينسين أنفسهن. فأرد بقسوة تقشر لها الأبدان. حين تكون سلمى برفقة جميل والطفلين تبدو كأنها مديرة منزله، او مكتبه، أو مربية اطفاله.

إذا أبدى جميل أعجابه بشيء لبسته في اليوم التالي ارسله لسلمى وأحيانا لا اتركها تذهب قبل ان تجربه وتعود به الى بيتها. انتظر الغد بلهفة لأسمعه يقول ليس كل ما هو جميل عليك بالضرورة جميل على غيرك. شتان ما بين قوامك وقوامها لا تفعليها. هذا يضايقني. فانشرح.

مثل هذه الأمور كانت تحدث كلما تقابلنا عندي او عندها. او إذا رافقتنا بنزهة. تتحملني بشكل اليم تماما كما كانت امي تفعل. تلهت بعمل مكتبي نصف دوام. حين سألتها امي لماذا العمل وطفلك صغير تجيب ببراءة اتسلى من جهة واكسب شيئا يساعد في البيت ولو بالقليل. اعتبر هذا شكوى من جميل فأشن عليها هجوماً بسؤال قاس. هل كنت تحلمين بشاب مثله انت امامه صفر. تصفعني امي بجملة تحجمني فأتضاءل أمام نفسي. تقول مثلاً. عليا معتبرة نفسها

حماتك يا سلمى عليك التحلي بالصبر، فقد تربى جميل على يديها. اترك سلمى واشتبك مع امي بعراك فتنشرح ان دفعتني عن أذية سلمى والاستهزاء بها.

سلمى مثل جميل تبدو مشدوهة. لا تجد تفسيرا لتصرفاتي غير ايقاظ شكوكها من جديد. وهي لا تريد ذلك. فقد أكد لي جميل. ان هذا الموضوع محرم الخوض فيه في بيتنا. والا تتعرض لغضب يصب على البيت، والزواج، والحب، والناس اجمعين. يقاطعها بالأيام حتى ينفطر قلبها فيوافق على الصلح المشروط. صرت أتمنى من أعماق قلبي الوصول الى هذه المرحلة من الخلاف بينهما وإن كنت أبدي حرصاً على الوفاق. لا أحد يعلم كم مرة في اليوم الواحد ينغرس حد موسى بعمق قلبي القائم والدائم بعذاب روح لا مدى له.

فجأة انقلبت عليّ وكذلك على جميل. صارت هي تقاطعه. صارت تتعمد مراقبتنا حين نكون في جلسة عائلية تحدق بي تارة وبزوجها تارة أخرى. تلوح بابتسامه صفراء باهته على شفتيها المقلوبتين ترشقها بوجهي ووجه أمي التي باتت تلتزم الصمت لأنها تعرف ردة فعلي القاسية. قللت زيارتها لنا رغم متاعب أمي المرضية. رغم عتب الدكتور مينا وتوصيته الا تتركها فهي الآن ضيفة بيننا. تهز رأسها بالموافقة. لكنها لم تبدل طريقتها. تتفادى الحوار معي خوفا من المزيد من الجروح مني ومن صمت أمها. حين تأتي للزيارة أشهد امي عليها وعلى انقطاعها عن زيارتنا بكل تعنت. متى كانت آخر مرة زارتنا سلمى. شهر او عدة أسابيع؟ ماذا ستعمل بي حين اصير وحيدة وبحاجة لمن يساندني. ترد سلمى باستخفاف. سيأتي جميل كعادته كل صباح ويقدم المساعدة والمساندة.

قبل رحيل أمي استفاقت من نومها الطويل الذي تغطس في بحره رغما عنها من شدة المها او من أثر المسكنات التي صارت لا تستغني عنها. كنت اجلس بجانب سريرها انتظر لا أعرف ان كنت انتظر ان تنتهي تلك المصيبة وتقوم من فراشها وتخبرني ان كل ذلك حلم مزعج بل رهيب. او تقضى وينتهي هذا الانتظار المقيت. فتحت عينها ونظرت لي طويلا ثم قالت:

: كل شيء يا ابنتي بأوان. سيأتي يومي. وستلبسين السواد لذلك اريدك ان تغيري هذا الأسود الذي ترتديه الآن حالاً.

قمت من فوري وغيرت ثيابي وعدت اليها ووجهي مشرق بابتسامة لأساعدها على الخروج من ذلك الغم الذي يلوح على وجهها. لامست وجهي ويدي وقالت:

: كما ترين لكل شيء نهاية. والدنيا وما فيها لا تستحق الغضب والمتاجرة بها. اريدك ان تأخذي مكاني الحقيقي وتكوني أما حقيقية لأخوتك. بدلي أسلوب مع الجميع وخاصة سلمى.

بهمس بالكاد يسمع قالت:

: آمل ان تكوني تشعرين بالغيرة على سلمى من جميل لأنها ابنتك كما تقولين. اما إذا كان العكس وهذا هو الأرجح، يجب إعادة النظر في تقديرك للأمور. سيأتي يوم وينقلبا عليك وخاصة جميل. سيرفض الانتهاكات التي تتعرض لها زوجته.

لم أجد ما أرد به عليها سوى دمعة سقطت مني على خدي وعلى يدها. سحبت جسمها من الرقود وامسكت برأسي وضمته بكل قواها الى صدرها. فبكيت بشدة وبكت بدورها وكان فترة السلام الوحيدة بيني وبينها حتى رحيلها.

لم ينقض وقت طويل حتى بدأ الجفاء الحقيقي الذي لم يكن يخطر لي على بال او التفكير فيه. انقطع جميل عن الزيارة الصباحية للبيت والمشغل. صرت مضطرة للذهاب الى المشغل بشكل يومي. عين موظفتين جديدتين دون الرجوع اليّ. الأولى للصندوق وأخرى لمواعيد الزبائن. خياط وخياطة للمساعدة في انجاز طلبات ملابسنا الجاهزة الانيقة. حرك الكثير من الأثاث من مكانه بحيث لا أجد مكاناً انفرد به. عرفت انها خطة سلمى لإحباط محاولتي للاقتراب من جميل. لا لم أعد أراه الا اليوم الذي كان يصحبنا انا وأمي لتلقي العلاج.

ذات يوم رجعنا الى البيت أمي كالعادة في غاية التعب. ساعدها جميل للنزول من السيارة واوصلنا الى المصعد واستدار للذهاب. صرخت به دون وعي:

: الى اين؟ كيف سأوصلها لفراشها وهي منهكة بهذا الشكل؟

همست امي:

: ليس من الضروري مساعدتي دعيه يذهب لبيته وعائلته.

فقدت اعصابي نهائياً صرخت:

: تعال معنا اريدك بأمر هام.

رد بلا اهتمام عندي موعد. قلت بعصبية اهتزت العمارة:

: بل الآن. دخل المصعد واوصلنا الى داخل البيت ساعدني على وضع امي بالسرير وبسرعة خرج من الغرفة. لحقت به عند باب الخروج دون حرص اندفعت اعانقه وأبكي على صدره معاتبة:

: هل انتهى ما كان بيننا؟ نسيتني؟ سأقتل نفسي إذا استمرت هذه المعاملة تجاهي. إذا كانت سلمى تحرضك طلقها انتهت مهمتها لنعد كما كنا.

صوت ارتطام شيء في الأرض جعلنا نجفل ونبتعد فإذا بأمي واقعة على الأرض تندب بلا صوت. ركضنا باتجاهها، ابت المساعدة، زحفت بجسمها حتى السرير وتعلقت به ونهضت والقت بنفسها فوقه وهي تنتحب. لم تعد قادرة على الكلام أصابها شلل بوجهها ولسانها. أسرع جميل الى الهاتف وسأل:

: ماذا أفعل يجب ان نستدعي طبيب.

اخذت التلفون من يده وطلبت الدكتور مينا. لم يرد على الهاتف. لعله نسي هاتفنا. سنوات لم نتصل ولا هو اتصل.

كلما نظرت نحو أمي تدير وجهها الى الجهة الثانية. قلت بعصبية. كنت تعرفين بما بيننا ومع ذلك رحبت بزواجهما. لست وحدي المسئولة. لم ترد سوى دمعات تدحرج على خديها اللذان امتصها المرض والعلاجات الطويلة. تمنيت لو يرد الدكتور مينا ويأخذها بعيدا عني الى مشفاه. استمريت بالرنين له وهو يغلق بوجهي اعتقدت انه يتعمد اغلاق الخط فيجن جنوني.

صحيح انني من قاطع ومن ابتعد ومن بدأ بالجفاء والجحود من زمن طويل. عرفت انه يسأل ويتقصى وأنه قلق علينا لم اهتم ولم أطمئنه. كانت أمي في كل

مرحلة الم جديدة تطلبه مني بإلحاح. فاكذب عليها. مرة أقول لها مسافر، وأخرى أقول سيأتي بعد انتهاء عمله. تنتظره لا يأتي. ابدأ بالسباب وتحجيه وتصغيره فتسكت على مضض. لكن في هذه الحالة وانا وجميل نرتعش من الخجل والخوف. كلما اقترب أحدنا منها تزوم بقسوة وتتملص من بين أيدينا. وتصطك اسنانها وفمها يزداد انحرافا الى جانب وجمها. مغمضة العينين حتى لا ترانا. اصررت على الاتصال به ولو حتى الصباح. أخيرا رد بصوت فزع نعم مين. قلت بصوت مخنوق من الموقف الذي كنت أعانيه. دكتور أمي متعبة.

رد بفتور:

: خيراً ان شاء الله؟

: امي وقعت على الأرض فجأة. هي باردة مثل قطعة الثلج، لا تتكلم.

رد بلهفة:

: احضريها الى المشفى انا هنا. لا لا الأفضل أن أرسل سيارة اسعاف أرسلي عنوان البيت ونحن نحضرها.

حال وصولنا الى المشفى وجدنا كل شيء معداً لاستقبالنا. عدد من الأطباء حولنا يحاولون اسعاف امي. طلبوا منا الانتظار خارجا ريثما يقومون بكل ما يلزم اشعة وتحاليل وفحص سريري. مضى وقت لم يظهر الدكتور مينا. لا أحد يعطينا تفسيرا عن حالتها. وهي مغمضة عيناها تسمع صوتي وعويل سلمى.

سألت مرارا عن الدكتور مينا أخبرونا انه حالما ينتهي من الحالة الطارئة سيأتي. أمي تموت بين يدي أطباء لا أعرف ان كانوا يقومون بإنعاشها او تجزيه

الوقت ريثما يفرغ الدكتور مينا من الحالة الطارئة التي بين يديه. ندور حول بعضنا بلا حول ولا قوة. كلما التقت عيوننا يتراشق منه شرر غضب واتهام. كأننا فريقين. كل فريق يرمي تبعية ما حصل على الآخر. فلو ان جميل ما تركني دون انذار. كأني عقب سيجاره فرغ منها. وداسها بقدمه، لما حصل هذا الموقف الذي نحن فيه. لما وصل حالي لهذه الدرجة المتدنية من الذل. وجميل يعاتبني بهمس. الم نتفق على كل الأمور من قبل؟

ظهر الدكتور مينا بحالة يرثى لها. حزين ممزق بانهيار تام. نظراته زائغة. وجهه هربت منه الحياة. ثيابه مهلهلة وشعره مشعث وعقله مشوش. وقف امام سرير أمي. التفت الى جميل متسائلا بجفاء: هل هو العراك العادي الذي يحصل دائما؟ تصلب جميل من الخوف ومن الحيرة ماذا سيقول له. قالت سلمى:

: كانت ذاهبة الى الحمام وفجأة سمعوا صوت ارتطام شديد على الأرض. حاولوا اسعافها. لم تستجب ولم تفتح عينيها ولا نطقت بحرف بعدها.

رددت مستفهما:

: سمعوا؟ من هم الم تكوني هناك؟

: لا كنت في بيتي اتصل جميل وأخبرني انه سيأخذ امي الى مشفاك فلحقتهم. ظننت الأمر بسيط لكنه يبدو أخطر مما ظننت. نحن هنا من ساعات، امي تتأرجح بين الموت والحياة. لا شيء يربطها بالحياة الا هذا الارتعاش والنفس البطيء. لم يخبرنا أي من الأطباء الذين كانوا معها بشيء سوى انهم بانتظار حضورك. ندور حول أنفسنا يكاد يقتلنا قلقنا. هل بها كسور؟ هل تضرر رأسها من الوقعة فأغمي عليها.

قلت بحزن بالغ:

: السيدة مريم تركت دنيانا ، ذهبت لخالقها فهو أولى بها وأرحم.

: دكتور. قبل قليل فتحت عينيها ورأتني. هزت رأسها بأسف وحزن. هل كانت تعرف انها تموت؟

: أكيد. احضري ذلك المقعد يا سلمى اشعر وكأنني على وشك الانهيار. سأبكيها بحرقة وكثيرا وطويلا. كما لم ابك طوال حياتي بهذا الوجع الا يوم مات نضال والدك. لا أعرف ان كنت ابكيها او ابكي الأخرى التي ما تزال غارقة في بحر التخدير.

لامست سلمى رأسي ثم قبلته واحتضنته وأخذت في بكاء يشبه بكائي وانهياري. تركتني وذهبت لتخبر عليا وجميل. توقعت كل شيء الا هذا الذي فعلته عليا. وقفت بمنتصف البهو تنادي بأعلى صوت ماذا فعلت بأمنا يا دكتور مينا. نعتتني بأقبح الصفات. لم المها. بدت لي منهارة تماما، الميتة أمها. شعرت كأن الحاق الأذى بي يفرج عنها ما بها. بيني وبين نفسي أعرف أنني لم أقصر ابدا كنت انا وندى لهم سنداً وعوناً. حاولت اسكاتها. أو ابعادها لكنها ثبتت قدميها بالأرض كأنها جزء منها. تجمع الأطباء وكذلك عدد من المرضى. تركت المكان بخطوات جنائزية بوجه لا لون له. حاولت الكلام لكن لساني لم يسعفني. بعد جهد خرج صوت ضعيف هامسا. عيب ما تقولينه يا عليا.

: ما أقوله هو الحقيقة يا دكتور. لو اتيت حال وصولنا لأنقذتها. لكن دائما تصل متأخراً. هذا الطبيب أيها الناس يستهتر بمرضاه. قتل في السابق أبي والآن قتل امي. لن اسامحك ابدا ابدا.

حين رجعت الى العناية حيث ترقد ندى كانت قد صحت تماماً حين رأيتني بتلك الحالة المحزنة مدت ذراعها نحوي واحتضنت راسي وقبلتها وهي تبتسم وتؤكد لي انها لن تتركني ابدا. ابتسمت بوهن وأنا أهز رأسي مؤكدا لها انها ستشفى. عيناها الحبيبتان تسألانني اذن ما سبب هذا الحزن القاسي الذي يشي بالموت والفراق دفنت وجهي بصدرها وبكيت ربتت على كتفي وهي تقول ابك حبيبي، فرج عنك الكرب الذي سببته لك، لعل وجودي في غرفة العمليات وقتا طويلا احزنك. أنا بخير وسأشفى.

بعد رحيل امي، بقيت وحدي تماماً. لم أكن أعرف معنى وجودها ولا أهميته ولا مداه. صرت وحيدة غريبة تائهة. تتردد سلمى لزيارتي، لكنها لم تكن تلك الأخت التي كانت روحها متعلقة بهمسة من شفاهي او لمسة من يدي. كانت تبدي عداء سافراً لي ولكل حديث يدور بيننا. نتحدث أحياناً عن امنا. ترد بجفاء. استراحت وأراحت. الموت رحمها من الذل التي عاشته في هذا البيت. يكفيها ما رأته وسمعته. تتجنب النظر في عيني فأتشكك. لعل جميل أخبرها سبب وقوع امي على الأرض، وشللها. اتوجس. واتساءل هل أحبها جميل؟ هل صارت الأقرب فيشتكي مني لها؟ هل؟ وهل؟ وهل؟ فأكاد أجن.

شيئا فشيئا تباعدت زيارتها. وبعد فترة طويلة عاد جميل لزيارتي الصباحية. عابس ضجر. يسألني بعجالة عن الأشياء التي اريدها من السوق للبيت وللمشغل. لم يسمح لي بالاقتراب منه او يسمع شكواي او عتابي. صار يصطحب سلمى حين تأتي لزيارتي بحجة انه يساعدها على الولدين. نتكلم بأشياء عادية كأننا لسنا أختين. اتحفز ويمتلئ صدري حقداً. تملكته ببساطة دون أن تقدر التضحية الكبيرة التي قدمتها لها.

لا أجد متنفسا سوى العودة لتجريحها. بالكلمات ذاتها التي كانت امي تنهاني عن قولها. فعلا كنت اراها قد هرمت بسرعة تبدو أكبر مني وأنا التي تكبرها بأكثر من عشرين سنة. زوجها يزدد شبابا وحيوية واناقة وجمال وهي يوم بعد يوم تزداد سمنة. ترد عليّ بأسى:

: عندك حق. لماذا اتعب وأهرم وأنا في منتهى السعادة. هذا تبطر على النعمة. الحقيقة أنني سعيدة في حياتي. زوجي متفرغ لي. عمله يزداد نجاحا ووفرة.

حين تصمت أعرف انها تكابد دموعها حتى لا أراها تعود لندبها:

: اسفة. من شدة السعادة صرت ملولة مع إني ضحوكة لا أعرف الملل.

وهي تودعني منهية الزيارة تقول:

: لا أعرف لماذا تصرين على معاتبتي وكأنك الأخت المحبة الطيبة القلقة من انقطاعي عن زيارتك. اعتقدت انني بابتعادي اريحك من رؤيتي. ماذا أفعل لتكوني راضية ومرتاحة. ليتك تخبريني. اود من أعماق قلبي ان أعرف وأفهم. تجريح وطعن. لا ترحبين بقدومي ولا تتقبلي ابتعادي. تصبين غضبك عليّ وكأنني سبب مصائب الدنيا كلها. هذا شيء معيب. أنت كبرت وانا كبرت. اعترف بأنك ولي نعمتنا. أنا وجميل والولدين نعترف ونقر. أفكر طلب المعونة من نجوى لتحل الاشكال الذي بيننا صارت القصة مخزية. أنا متعبة.

عدت لمجاهدة نفسي بالتخلي عن جميل. أفكر بمنطق، ما تقوله سلمى صحيح. لكن هل يحب القلب أو يكره بفرمان. لا يزيده التصميم على التخلي عنه إلا رعونة واندفاعاً. اقنعت نفسي ان البعد عن سلمى وجميل سيساعدني على تنفيذ ما انوي القيام به. ألم أجرب الابتعاد ذات مرة ونجحت. عانيت ما عانيت. وتعذبت وبكيت، وأخيراً استطعت لأنني أردت. لا يدوم هذا التعقل سوى دقائق ويفزع قلبي من فكرة الابتعاد وكبح عاطفتي واغفالها او قتلها. بدأت اشعر بالمرض. تتقلب احوالي بين نشاط وخمول، فرح قليل وحزن كبير. ضباب من حقائق وأكاذيب تشوش عقلي لا اعرف التخلص منه.

أتذكر إذ ذاك. حيث التجربة الأولى في الحب والابتعاد. كنت شابة والدنيا لي ومعي. تفتح وعي وقلبي على شيء لم أعرفه. كان الحب شيء بعيد عن تفكيري. ربما كوني عشت قصة خالي وجميله ثم فشل الزواج. هل يعني هذا ان الحب شيء والزواج شيء آخر. هل تقبلت الانهزام كون النهاية ليست لصالحي ولن تكون؟ أو لعل وجود جميل في حياتي ساعدني على تخطي تلك الفترة العصيبة؟ الحب شيء جميل. يمنح الكثير للقلوب العاشقة. فتنهل من عبق سعادة لا تدري انها سعادة مؤقتة سرعان ما تأتي النهاية. تعاسة ودموع وفراق. فهل نقوى عليه ونتجاوزه.

الآن أنا في الستين من عمري. أشياء كثيرة تغيرت في جسمي في صحتي في نفسيتي إلا هذا القلب يأبى التسليم وفض علاقة دامت عشرين سنة. رجل ملتصق بي، قطعة مني، لي وحدي. أريده بجانبي. اريده بكل ما تحمله الكلمة من معنى. صدفة اكتشفت ماذا يعني لي. كأن وجوده في حياتي تحصيل حاصل. وأفاجأ وأنا أزوجه، واعطيه لأخرى، كائن ما كانت تلك الأخرى. يصبح لها وبين يديها، امر فظيع لا يمكنني قبوله او التسليم به.

ذاك الحبيب الأول كان زوج اب، يكبرني بسنوات تقارب العشرين. الوضع الآن مختلف. اناقش نفسي اردعها أقسو عليها. لنفترض جدلا انه جميل كان زوجي للعشرين سنة الماضية ومات. لم اقتنع. هو حي، قدمته بملء ارادتي لامرأة أخرى. باختياري صحيح. لكنني لم أكن أعرف انني سأعاني كل هذه المعاناة. عملية استئصال جزء مني دون تخدير.

هذا الصراع القاسي بين الممكن وغير الممكن. بين الحب والواجب، بين نفسي العارفة وقلبي المتشدد المتعنت أرهقني. أذلني حين اكتشفت بأن مشاعري لم تعد ملكي وسري بل صارت حديث الجميع واستهجانهم. الا تستحي وهي بهذا العمر. من قال إني أفكر بهذه الطريقة المنطقية الحب نفسه لا منطق له. لا أحد يعرف حجم وجعي وألمي. ولا حجم الصراع الدائر بداخلي. ولا كيف يطحنني. عقلي لم يعد يستوعب ما بداخلي ولا نظرات من حولي. حتى صديقة أختي سلمى المقربة ادانتني بأنني أعاني مراهقة أخرى أسمتها أزمة منتصف العمر.

فجأة اتسعت فجوة الضباب سيطرت على وعيي. ادور في البيت ابحث عن بيتي؟ اين أنا؟ أريد العودة لبيتي ولا أعرف الطريق. قلت هذا الكلام لسلمى على الهاتف هزئت مني قائلة أنت تحدثينني من بيتك. يعني انت في بيتك. اصيح دون شعور: كذب. هذا ليس بيتي. تعالي فورا أوصليني الى بيتي. عقلي تائه لن أعرف الطريق انت من يعرف الطريق.

ارسلت حميل. ففتح الباب ونادى عليّ. خرجت من الغرفة لأجده يجلس في مكانه المعتاد في غرفة الجلوس وقال باقتضاب: خير ما المشكلة. انزاحت الضبابة السوداء من رأسي. رأيت البيت بيتي. ماذا أقول. هل أخبره بحقيقتي الموجعة انني لم اعد احتمل البيت دون وجوده. بيتي هو حيث يتواجد فيه. يكتمل بوجوده. أخفيت ما بي. قلت لا مشكلة كنت أمازح سلمى ظننتها ستركض لهفة على المصيبة التي حلت بأختها. أخبرني ان الطفلين يعانون من الحصبة ولم تتمكن من المجيء فأرسلتني لتطمئن عليك. هل بك شيء. قلت باستهزاء صرت يا جميل بانتظار امرا لتزورني. ارتميت على المقعد المجاور له.

دوار خفيف وألم في رأسي. قام من مكانه واحضر جهاز قياس الضغط كان مرتفع جدا. أمر الخادمة ان تحضر لي كوب الكركديه. طلب مني عدم التفكير بما يزيد توتري.

صار هذا حالي. متعبة دائماً خموله لا أرغب القيام بأي عمل. اهملت نفسي وأهملت بيتي وأنا العاشقة للنظافة والأناقة والترتيب. مغرمة ببيتي وبملابسي. صرت انسانة أخرى. الأيام تمر، والمشغل على قدم وساق، اعمالنا في ازدهار مستمر. شهرتنا اتسعت بأننا نقدم الاتقان والجودة. وأنا على ما أنا عليه بل ازداد سواء. لا أريد سواه. من غيره كل شيء سواء.

كان جميل يرسل لي الأوراق التي تتطلب مني الاضطلاع عليها والتوقيع لإقرارها. كان يحز في نفسي كيف هنت عليه الى هذه الدرجة ولكني ابيت ان اعيد الكرة واستجدي زيارته ورؤيته. ذات صباح اتى دون سابق انذار. معه أوراق كثيرة. سألته كل هذا بحاجة للقراءة. قال بصوته الحنون المحب مرفق بابتسامته العذبة التي تأسرني قال بمودة فقط توقيعك. هززت رأسي لأستفهم قال بجدية وقد انحسرت الابتسامة والنظرة الحنونة:

: انه عقد شراكة بيننا. الحقيقة صرت أنا من يقوم بكل الأعمال، أنت مريضة، ربما أستفحل الأمر. تغيرت لهجته تكلم بمفردات تاجر. أريد أن أحفظ حق اولادي أن ساءت الأحوال. هذا جهد خمسة وعشرين سنة.

ذهلت تذكرت كلام أمي عنه. عاودني دوار عدت لفراشي. لحق بي الى غرفة نومي رغم أنه غير معتاد على دخولها. أحضرت له الخادمة الكرسي ليجلس عليه بجانب سريري. بينما كان يشرح لي ما هو المطلوب. يعرض أوراقه مشيرا

الى المكان الذي عليّ التوقيع عليه. وإذ بصوت سلمى ينادي لم اسمع جرس الباب، دخلت حاملة الحلويات والفاكهة. توجهت مباشرة الى غرفتي والخادمة تخبرها انني متعبة قليلا.

وقفت على الباب. فوجئت تماما بوجود جميل وبغرفة نومي. انا في سريري وهو جالس على كرسي بجانبي منحني قليلا للأمام. انتفض جميل واقفا مبتعداً. بينما انا جلست في السرير. بركان غضب شب بسلمى الوديعة وقالت:

: انت هنا؟ لماذا لم تخبرني. لعلك اشتقت لزيارة أماكنك القديمة. وبغرفة النوم. هذا كثير. الى هذا الحد خدعت. وانا التي ظننت أن الأمور وضعت بمكانها الصحيح وانتهى الأمر. وإذ بكما تنتهزان فروغ البيت لكما بعد وفاة أمي. ماذا تفعلان. آسفة قطعت عليكما خلوتكما غير الشرعية. اتقوا الله هذا والله حرام. يعني أخت شرعية وأخرى وغير شرعية. تدخل وتخرج بشريعة زواجك من الغبية.

صرخت بها:

: اخرسي وأخرجي من بيتي.

: سأخرج لكن عليه ان يطلقني الآن وقبل خروجي. الآن فهمت سر لبس القميص الداخلي على الوجه الآخر بحكم السرعة ام النشوة.

حاول ان يهدئها ويقسم انه جاء اليوم يستشيرني في شؤون العمل. التوقيع على صك شراكة بيني وبينها لأحفظ حقك والاولاد تسيئين الظن بي وبها. وان ما تقوله لا يليق بها ولا بي ولا بك. هذه الإنسانة ضحت وما زالت.

صاحت:

: مللت هذه الأمثولة حفظتها حرمت من ومن. طلعت انا الضحية.

قلت بهدوء لا أعرف كيف تمالكت نفسي:

: لك الحق ان تقولي أكثر من ذلك. لك الحق ان تتأكدي. ليس ان تشكي فقط بوجود علاقة آثمة بيننا. لأن كل انسان يرى الناس بعين طبعة. بما إنك استسلمت ذات يوم بسهوله لرجل مخلول ومريض نفسيا، تظنين ان كل امرأة سهل عليها وضع نفسها بهذا الوضع. هذا تجني.

: ولماذا أنت في سريرك. هيا قفي وانزلي من السرير واضربيني كما فعلت ذلك اليوم الذي عرفت بالخطأ الذي ارتكبته. أم أنك محرجة لأنك عارية.

قفزت من السرير وامسكتها من شعرها ورميتها تحت اقدامي وانا أقول:

: ما زلت بملابس نومي، بالبيجاما التي ارتديتها أمس قبل ان انام. جميل حالا خذ زوجتك وتحاكما في بيتكما. اترك الأوراق التي كنت تطلعني عليها واترك مفتاح السيارة والبيت والمشغل ولا أريد ان أرك في أي مكان يخصني.

تركا البيت فوراً استلقيت على السرير لأريح نفسي وأهدئ من ثائرتها فغفوت. لا أعرف كم ساعة، كم يوم، وانا في نوم عميق. حين صحوت اخبرتني الخادمة انني نمت يومين متواصلين.

قمت من نومي فزعة على صوت رنين التلفون الذي كنت أسمعه وأنا ما زلت في بداية النوم. كان يرن فعلا وليس حلما كما اعتقدت. قلت جميل رد على الهاتف فانا لم انم طول الليل اراقب زياد. انتقل الى الجانب الآخر وراح

في نوم عميق كأنه لم يسمع ولم يعي. جاءني صوت خادمة عليا على التلفون تصيح بلهفة وخوف:

: ست سلمى الست عليا نامت ما يقارب الثمانية والأربعين ساعة منذ تركتماها. صحت اليوم صباحا ولبست وخرجت من البيت ولم تعد وها هي الساعة تقارب منتصف الليل. اتصلت بالمشغل الساعة التاسعة أخبروني بأنها لم تذهب ابداً. لا أعرف ماذا افعل.

صحا جميل من نومه، قفز من الفراش يستوضحني الأمر فأخبرته ان عليا غادرت البيت منذ الصباح ولم تعد. جلسنا نفكر. اين يمكن ان تكون. من أين تبدأ البحث عنها. وجدنا الأفضل الذهاب لبيتها ومن هناك نتحرى.

تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير، بدأ الخوف يتسرب الى قلبي. ليس من عادتها التأخر عن الساعة التاسعة. طال انتظارنا المشوب بالقلق. خاصة أن آخر لقاء بيننا كان عاصفاً. رن هاتف بيتها ركضنا اليه انتزعته من يد جميل كان على الخط الآخر أحد جيراننا في بيتنا القديم. يقول انه عاد الآن لبيته فوجد عليا نائمة على احدى درجا بيتنا القديم. قال بغرابة: لم تتذكرني وسألتني مرات متتالية من أنت وماذا تفعل على باب بيتنا. حاولت ان اذكرها، لكنها صرخت أنها لم ترني ابدا كل حياتها. سألتها ماذا تفعلين هنا. قالت انا هنا في بيتي. المفتاح لم يفتح الباب سلمى لم تفتح لي. تريد ان تشردني بقيت جالسه هنا انتظر جميل ليفتح الباب بمفتاحه.

ذهب جميل واحضرها. ولدهشتي كانت تصرخ وتتملص من بين يديه عند باب بيتها لا تريد الدخول. اريد بيتي. نقول هذا بيتك تقول. هذا ليس بيتي.

سلمى لم تفتح. سلمى وجميل يريدان اغتصاب البيت ورمي في الشارع. كانت ترتجف من الغضب والحنق تبكي بلا دموع. نواح يفطر القلب. فكرنا انه من الأفضل الاتصال بالدكتور مينا هو سيتصرف معها. سيقنعها ان هذا بيتها. صرخت مينا، مينا، اين هو منذ زمن طويل لم اره. لم ار امي. أين أمي. اريد أمي. لا اعرف من تخلى عني قبل الآخر مينا أو أمي. التفتت نحوي وقال انت يا بنت يا خائنة. تريدن سرقته مني. الم يكفك ما سرقته مني. اخذت الانسان الوحيد اللي كان لي في الدنيا.

سهرنا طوال الليل انا وجميل في بيتها نحرسها ونفكر ماذا يترتب على وضعها الجديد. لن نأمن على تركها وحدها مرة أخرى. كانت نائمة على الأريكة بانتظار ان نأخذها الى بيتها في الصباح. لم تنم قبل ان تعهدنا لها اننا سنذهب كلنا للبحث عن بيتها. قالت نعم هناك تنتظرني أمي وجميل ومينا وندى ورشاد. احتضنت مخدتها ونامت وعلى وجهها بسمة هدوء.

أحضرت لها قهوتها في الصباح وجلسنا نتحدث بشكل ودي وحب كما كنا لفت نظرها صورة امي التي علقتها على حائط مقابل سريرها. قلت أجس نبضها:

: صورة أمنا. كانت جميلة. هل تذكرين اين ومتى اخذت لها.

: هذه ليست امي وهذا ليس بيتي.

: بل هذه صورة امنا.

: صاحبة هذه الصورة جميلة. امي لم تكن جميلة ابدا. انت تشبهينها.

: تعرفين انني اختك.

: أعرفك أكيد. انت المرأة اللي زوجتها جميل لتأتي لأمه بأحفاد فسرقته مني. والان تريدين سرقة مينا. اين مينا سأذهب للبحث عنه. اريد ان اراه.

لم تنتظر جوابا بل قامت غادرت البيت دون ان تغسل وجهها وتمشط شعرها. ركضت خلفها وجميل خلفنا. دفعتها الى السيارة وأنا أقول بمرح:

: هيا سنذهب بالسيارة الى الدكتور مينا.

استقبلنا الخادم، نظر ناحية عليا وصرخ:

: ست عليا. خير ان شاء الله، في شيء خطير، متغيرة كتير عن آخر مرة شفتك. تفضلوا بالجلوس سأخبر الدكتور بوجودكم. سيفرح الدكتور بعليا. منذ زيارتها الأخيرة يسأل. لماذا تأخرت، الم تتصل بالتلفون. شيء ما منعها.

جاء الدكتور مينا. وقف يحملق بوجوهنا وهو يقول:

: أهلاً أهلا. أخيراً جئتم لزيارتي واشفقتم على وحدتي. عليا أين وعودك بزيارتي. ما بالك؟ فيك شيء؟ خبروني شغلتم بالي.

كانت عليا تتفرج علينا واحدا بعد الآخر قالت بتعجب:

: عرفتك الدكتور مينا. كبرت كتير لم تعد تشبه ابي. إذا تريد ان تستوضح عن مرضي أسأل جميل. كل يوم يقول لي أنا لم اعد أميز أو اتعرف على الأشخاص حتى المقربين مني. الآن عرفتك. صحيح. أريد بيتي، ضاع بيتي ما حدا يعرف أين يجده. قالوا خليك بالمستشفى عند الدكتور مينا حتى يلاقوا البيت. أخبرني إن البنك ما في مصاري لشراء بيت جديد وانا أخبرك انهما سرقا أموالي التي في البنك لعلي نسيتها.

: تعالي عندي بالبيت او بالمستشفى أهلا وسهلا فيك أنت غاليه عليّ كتير. سلمى حالة عليا سيئة لكن كيف ومتى تدهورت هكذا؟

: لا أعرف يا دكتور. أنا انقطعت عنها فترة طويلة بسبب اصابت ولديّ بالحصبة. هي غالبا بين بين. أحيانا لا أصدقها اشعر وكأنها تمثل علينا. منذ أيام زرتها بالبيت صباحا. هكذا طلبت مني نجوى في الليلة الفائتة بعد ان شكوت لها همومي. نصحتني نجوى أن أحاول استرجاع ما كان بيني وبين عليا من تفاهم. عليّ كسب ودها من جديد فأنا الصغرى. اخبرتها بأنني متعبة جداً وضائقة الدنيا بي. أنا على وشك الجنون بعد سنوات طويلة بين شك ويقين. صار اليقين أرجح. عادت تلح عليّ بأن أبادرها بزيارة ودية وأخذ بعض الحلويات التي تحبها. رجتني ان لا أجور عليها يكفي ما هي فيه.

في الصباح غادر جميل قبل ان نتحدث عن مشاريع اليوم كالعادة. لم تتح لي فرصة لأخبره بنيتي بزيارة عليا. هو بالمقابل لم يخبرني بشي عن نواياه بزيارتها ايضاً. بوصولي الى البيت وجدت جميل عندها. وفي غرفة نومها. خرجت عن طوري فقدت السيطرة على نفسي. هجمت على جميل اريد تمزيق وجهه وأنا أصرخ طلقني فورا. الآن. هذه حياة لا تطاق. حاولت النزول من سريرها لكنها عدلت مدت يدها وأمسكتني من شعري كما كانت تفعل أيام زمان. ثم دفعتني بعيدا وهي تأمرنا مغادرة بيتها فورا. ليس هذا فقط بل طردت جميل من العمل وأعفته من كافة مسئولياته وأخذت مفاتيح السيارة والمشغل والبيت.

انهارت ببكاء وعويل ذكرتني بمدى وجعها والمها يوم توفت الست مريم. ربت على كتفها وقلت:

: ما كان لهذا الزواج غير المتكافئ أن يتم. انت أدرى بالظروف ذلك الوقت.

: لست وحدي المسئولة. الكل ساهم بطريقة او بأخرى بزجي بذلك الأتون من النار. أمي وعليا ونجوى جميل. ها هو أمامك أسأله لماذا تزوجني. يعد ولا يفي بوعد. أنا أتعس مخلوقات الله. الرجل الذي أعيش معه في بيت وأحد واسرة واحدة احسه أحيانا عدوي. همه تحطيمي وكسر معنوياتي. ينتقد كل ما أقوم به، تكدرت حياتي وصحتي. سنوات وانا صابرة. أقول لنفسي. تزوجنا بظروف غريبة. أكون كاذبة لو قلت بأني كنت متوقعة زواجا ناجحا بل على الأقل مقبولا. انشغلت بالولدين كبرا وتعلما. اعتقد بأنهما لم يرياني ضاحكة او فرحة حتى بنجاحهما. كنا دائما بحاجة لمعونة عليا ولمشغل عليا. بهتت الحياة بيني وبين جميل. شيء ما يفصلنا كأن همتنا مع بعضنا انتهت.

التفت ناحية عليا وجدتها مثل طفلة صغيرة تلوذ بصدر خادمتها تنظر حولها بشك وريبة وشيء من خوف وخاصة حين تسمع صوت جميل، أو إذا تحرك. تحسبه متجها صوبها. قلت لسلمى:

: لقد قال انه أتى لتوقع له بعض الأوراق. الآن أنا أريده أن يثبت لي صدق نواياه. يريني الأوراق التي طلب منها توقيعها. اشك أنه شيء يخص العمل. لعله يريد تجديد التوكيل الذي بحوزته. أو يريد منها التنازل له عن شيء. أو ينوي القيام به وتعثر، احتاج للذهاب اليها دون ان يخبرك. جميل لم يعد كما عهدناه صادق النية. برأسه مخطط بالاشتراك معك او من وراء ظهرك. لا تظنيني انجم واخترق حجب الغيب بل لأنها عليا أخبرتني بشيء كهذا بآخر مرة زارتني.

صرخ جميل:

: الم تفقد أهليتها بعد لتصدق ما تقوله.

: كذبها وأحضر الأوراق التي عرضتها عليها.

استدار فتح محفظة أوراقه وأخرج منها بعض الأوراق وناولها لي لكن خادمة علياء فطنت وقالت:

: هذه ليست الأوراق نفسها. تلك الأوراق كانت صفراء مكتوب عليها صك ملكية. تمزقت بينما كانت تحاول شدها من بين يديه. حين دخلت مدام سلمى عليهما كان منكفأ عليها يحاول انتزاع الورقة منها فظنت سوء.

: أكيد يا سلمى الأمر محل شك. هل اتفقت معه على سلبها بيتها واختلاس المال المودع باسميهما في البنك.

: هل تظن أنني أوافق على شيء كهذا؟

: أنتما المنتفعان. اتركاها عندي بضعة أيام. سأوكل محام يدافع عن حقوقها المسلوبة او التي ستسلب.

: نجوى وعدت بأن تأتي لتحل تلك المشاكل بيننا وبين عليا.

: ها أنت وضعت نفسك بصف جميل. اذن المشكلة الأساسية ليس ما كان بينك وبينها. لا أظن أن بإمكانها حل خلاف عمره سنوات طويلة. كل منكم تعذب على طريقته. كلما كبرت القصة كلما ازداد اضطراب عليا العقلي. هي تشعر بالذل كونها تكن عاطفة ما لجميل. الحب شيء جميل، وعاطفة سامية، تحتاج لعقل ناضج كعقل عليا. ضحت مرة أخيرة كما فعلت كل حياتها. ظنت ان

بمقدورها فعل ذلك، لكنه لم يكن سهلا. ما فهمته انها لم تكن تعرف مقدار تلك المشاعر الهادئة الساكنة الا بعد انتهاء الأمر.

: كيف فسرت الأمور يا دكتور؟

: كما يجب ان يفسر. بعد زيارة نجوى الأخيرة قبل بضعة شهور. دار بينها وبين علياء لا أعرف اذا كنت تعرفين ام لا مشادة عنيفة. كانت عليا في بداية تراجع عقلها عن الادراك. دافعت عن نفسها بانه صنيعتها، وانه ملكها، حتى امه ليس لها حق عليه أكبر من حق عليا. يبدو أنها بلمحة اشراق ما لم يعد يقنعها هذا التبرير. شعرت بشيء من العار أو الخزي حين واجهتها نجوى بالحقيقة السافرة بقسوة. عادت تفكر بعقلية العيب والحرام اللتان تربت عليهم شق على عقلها الاستيعاب فلم يجد مخرجا من كل الاتهامات سوى الهروب. هل تدركين ما حصل؟ ما كانت علياء تعتبره حق وما فعلته تضحية صارت اتهامات موجهه لها بلا رحمة.

قال جميل:

: هذا تكهن طبيب نفسي شاخ فيحاول اثبات براعته.

: ليس تكهنا يا سيد جميل. كنت اصدق أن للإنسان نصيب من اسمه. لكنك برهنت أن نفسك لا تملك ذرة من جمال وصفاء. هذه الانسانة التي تنعتها بعدم الأهلية. لا بد وأنك لعبت دورا شاقا حتى تستولي على مشاعرها. كنت صغيرا آنذاك لكنك فكرت باستغلال تلك المشاعر لتجيرها لصالحك. دار بيني وبينك حديث عن مزاعمك بقصة لا تصدق. اجبتك هذا محال. لو أخبرتني وقتها لعرفت كيف اوجهه وأساعدها للتوصل لنوع الحب الذي تكنه لي.

لم يكن حب امرأة لرجل، بل كان شعور شابة فقدت والدها حبها الوحيد فحشرتني بالفراغ الذي تركه الراحل.

قالت سلمى:

: كيف عرفت ما حدث بين عليا ونجوى وهي لم تعد لزيارتنا منذ رحيل امنا. عليا منقطعة عن زيارتك. وتهمتك بأنك من قتل أمها وابيها.

: زارتني نجوى وطلبت مني التدخل لفض هذا الشيء المخزي كما سمته. ونصحتها ان تترك بيت العائلة وتبقى بالفندق إذا كانت تريد تدخلي يجب ان افهم ما غاب عني فهمه كل تلك السنوات. أخبرتني أن عليا طردتها من البيت وسافرت دون توضيح ما هو مطلوب مني. بقي الموضوع يقلقني الى ان زارتني علياء وطلبت منها توضيح ما دار بينها وبين نجوى قالت بشكل استنكاري هل تصدق ان نجوى تهمتني بشكل مباشر انني وراء تغيير جميل:

: هل تعرفين سبب اعراض جميل عن سلمى وصمته وهروبه من البيت. يشتكي من زوجته في جلساتكما الصباحية اليومية مع قهوة الصباح. وهي في بيتها يقتلها الشك فيما يحصل بينكما. الم يخبرك انه قال لزوجته ذاك الصباح ما بيننا انتهى بعد إنجاب ولدينا.

: كفى. تلقي عليّ محاضرة فاشلة في شؤون زوجين علاقتهما منتهية قبل ان تبدأ. صحيح كان زواج مصلحة والآن هو لا يريدها.

: واضح أنك تعرفي تفاصيل حياتهما أكثر من صاحبة الشأن. دعينا ننهي هذا الزواج رسميا. ليطلقها ويترك لها وللأولاد البيت. ليقيم في بيتك المفتوح له.

: مهلا ماذا تقولين. أنا المذنبة في زواج كان يحمل فشله قبل ان يولد. زواج خطأ ساهم فيها كل فرد بالأسرة واولها أمنا.

: رحمة الله عليها. انت أدرى الناس بالسبب فلا لزوم لنخوض به من جديد. سؤالي كان عن العلاقة التي تربطكما انت وجميل لقد وضحت الأمور. ترى بعينها القبلات الطائرة في الهواء يرسلها لك ما ان تدير زوجته ظهرها. الكلمات والنظرات واللمسات. ألا تستحي.

: لماذا لا ترين الأمور من الوجهة الأخرى انا كبرت. بحاجة لوجوده اكثر عن ذي قبل. هي لا تهتم لشؤوني وانت لا تراعي عمري. أنا في الحلقة السابعة.

: لكن بأي حق تريدينه بجانبك. باي صفة؟

: بالصفة ذاتها التي كان عليها الثلاثين سنة الماضية. أنا أحق الناس به. انا عملت منه هذا الانسان الذي يسمى زوج سلمى. اسمعي انتهت الزيارة وانتهى الموضوع الذي تكلمنا به للأبد. لا اريدك في بيتي. سكت الجميع وخاصة امنا سنوات طويلة. أمي سعت لإتمام الزواج استغرب كيف لم تتوقعوا النتيجة.

: سأبقى هنا حتى تنتهي هذه المهزلة. سلمى أصبحت على وشك الجنون.

: هل صدقتم مقولة أمكم بأن العرجاء التي لا تستحق الحياة ولا تستحق الحب؟ مكانها خدمة الجميع واولهم انت واولادك. تستكثرين علي قولك انت تحبينه. وتخفين سؤالا معلقا بين عينك والأخرى. تريدين سؤالي لم سعيت بنفسي لإتمام هذا الزواج؟ أنا نفسي لا اعرف الجواب. هو بالنسبة لي ملكية

تنازلت عنها لأنني لا أستطيع الزواج بشاب هو بعمر ابني لو تزوجت كما تزوجت انت. لا أحد يستغني عن الحب. وكل منا يستحقه.

: شكرا على هذه المشاعر العدائية التي لا استحقها. بالوقت نفسه اعذرك وانت اعذريني اذا تجرأت وأخبرتك الحقيقة التي تتجاهلينها انت لم تحبي كل حياتك أحداً ولا حتى نفسك. اصدقك انت لا تحبين جميل لكنك تملكينه وقد تفضلت عليه وعلى سلمى بالسماح لهما بالزواج لينجب ويرضي امه فقط.

التفت أحاول استفزاز عليا. لا أحب رؤيتها بهذا السكون الحزين:

: الم تعلمكم نجوى أنها زارتني قبل سفرها. كانت منهارة تبكي بحرقة وتحكي بثورة عارمة. طلبت منها الهدوء لأتمكن من المساعدة قالت:

: لعلك لا تعلم ما بين سلمى وعليا.

: منذ رحيل الست مريم لم يزوروني أبداً حتى عندما رحلت ندى بعد عناء مرضها الشديد لم يسألوا عنا ولا شاركوني العزاء. جاءت عليا بعد سنوات كانت ما تزال تتذكر وتحكي قصصها التي لا تنساها ابداً. زارتني مرة أخرى وقد احضرت لي معها بعض الاكلات التي كانت تعرفني أحبها. وأحضرت لي مجموعة أوراق كتبتها بيدها وقال لن أكذب عليك بعد اليوم.

بحثت بين الأوراق عن الرسالة التي وجدتها منذ سنة بعد زيارة علياء وجدت ورقة كتبت فيها عليا بخط يدها ما قالته نجوى:

: اختي الكبرى وأختي الصغرى بينهما رجل اسمه جميل. الأمر بينهم تردى الى أسوأ حال. سألت عليا لماذا وصلت الأمور الى هذا الحد. سلمى تهدد

بالانتحار ان لم تجد حل. لم تعط الجواب المفيد قررت ان اذهب الى سلمى لعلها توضح لي بعض الأمور او أحاول وحدي بقدر استطاعتي ان اضع النقاط على الحروف. لعل جميل يخدع الجميع.

وجدتهما يتناولان طعام الغداء. جلست بقربهما رافضة أي عرض لطعام او شراب. منتظرة فروغهما لنتحدث. كان يجب ان اسمع رأيه. هذا الوضع لا يمكن السكوت عنه. فوجئت بهما يأتيان سويا ضاحكين. تعجبت صرخت:

: اعتقد انه لا لزوم لتمثيل دور العاشقين. ليتفجر الموقف ونضع النقاط على الحروف. قل يا جميل: ما الذي تريده؟ رددت سلمى ما هذا تهذين به وانت في بيتنا. عيب كبير صدمتني بما قلت.

: بل انت من صدمتني. تقولين لي ستقتلين نفسك ان لم نتوصل لحل هذا الموقف المخجل. اضطر للمجيء اليكما لنفض الخلاف تنكرين كل شيء وكأنك لا تعانين ابداً. هل تكذبين علي ام تخفين عن زوجك ما يقلقك. قلت بداية شكوك. ثم قلت وهم. ثم قلت ان ما تقولينه حقائق وعندك أدلة هات ما عندك انا استمع.

: صحيح لكن ليس هكذا تؤخذ الأمور.

: اذاً كيف؟ هذه الأمور يجب البت فيها. والحل بيد جميل. أ فهمتك خطأ.

تدخل جميل قائلا بهدوء:

: انا لم اخدع أحد. سلمى تعرف ومنذ البداية ماذا تعني عليا لي. ليست كأمي بل أغلى، أقرب الي من نفسي بكثير. انها انسانة مظلومة مقهورة فاذا كان

وجودي بجانبها يخفف عنها او يسعدها فلم لا أكون. الآن تكلمنا انا وزوجتي على هذا الموضوع الذي يهمنا وحدنا وتوصلنا لحل. لن اذهب الى بيت العائلة وحدي ابدا وتحت أي ظرف.

بعد تلك الزيارة الصدمة كما سمتها عادت الي وأخبرتني بما قالته وما قيل لها. اريد من جميل شرح وجهة نظره الفريدة بوضوح والآن وأمام الجميع؟

: سأقول كل شيء فأنا غير ملام ولا أشعر بالخجل من أي تصرف قمت به. جاءت فرصتي الحقيقية عندما طلب مني رشاد اصطحاب امه الى لندن للعلاج. كنت على علم بحقيقة المرض قبل الجميع. هاتفني رشاد وقال ان الأطباء بعد قراءاتهم للتقارير قالوا كلمتهم بأن الست مريم تعاني من مرض خطير. لا تخبر اخواتي بذلك. انت أيضا أصررتّ على اصطحابها الى لندن كطبيبها ولحضور مؤتمر طبي سيعقد هناك. وضعت يدي على قلبي. كنت سأبرهن لرشاد اهتمامي وتفاني في خدم عائلته بغيابه. سيكتشف بنفسه جمال نفسي التي لم تكن راغبة بالمزيد. اقسم بالله صدقوني ام لا لم أكن اطمح بالمزيد. أمي اختارت سلمى. وجدتها تكن لها مشاعر جميله أدهشني تتغزل بها البنت وردة يا جميل. لا تضيعها من يدك. عاشت مأساة ليس قليله لماذا لا تنتهز هذه الفرصة وتتزوج بها. سلمى انسانه رائعة.

فكرت بكلام أمي. لن أحظى بمثل سلمى مهما كنت ناجحاً. يجب ان أكون شخصا آخر غير الذي كنته. بشرط البقاء على ود عليا او حبها. لاسمي الاشياء بأسمائها. هناك حل لا أعرفه. سأصل اليه وسأجده. الكل يساعدني ويعزز موقفي. الست مريم وعليا ورشاد وسلمى. سأكون غبيا إذا لم استفد منه.

في اثناء هذا الحوار نامت عليا على الكنبة التي جلست عليها في آخر زيارة لي منذ زمن طويل. كانت في بداية المرض الذي يبدو انه استفحل الآن. كان يجب أن تبقى بجانبي وأرعاها. ربما ما كانت لتصل الى هذا الدرك. أذكر أنها أخبرتني وقتها ان جميل وسلمى اتفقا على اخذ البيت الذي أعيش فيه وحساب البنك المشترك بينهما سألت:

: هل تقيمان معها ببيتها؟

: نقيم معها أكيد لم تعد كفء لتهتم بنفسها.

: هل غيرتما نظام البيت. أعني الأثاث والستائر وأشياء أخرى تعنيها.

: أخذنا غرفة نومها لأنها أكبر ونقلناها الى غرفة أمي.

: بعدها ضاعت عن بيتها.

: لا قبل ذلك. لقد تركت بيتها قبل فترة وذهبت لبيتكم القديم. فتح الباب أحد المقيمين هناك. وقفت بذهول وسألته اين أمي من أنت ماذا تعمل في بيتنا. الرجل مشتت لا يعرف ماذا يقول. دخلت بعد دفعته بكل قواها فترنح. تعرف عليها أحدهم حاول ان يستفسر عما بها وما الذي اتى بها لهناك وان كان بمقدوره مساعدتها. توقفت وتسمرت بمكانها. أجلسها في احدى غرف الانتظار وأخبرها ان هذا لم يعد بيتها أصبح مقرا للعجزة بإشراف الدكتور مينا. تمسكت بكلمة مينا لأنها الكلمة الوحيدة التي فهمتها. مينا اريد مينا اين هو اريد رؤيته. سيخبرني اين امي لقد أخذتها الى المستشفى ليعالجها ولكنه لم يعيدها الى البيت. سلمى لا تفتح لي الباب لأدخل على بيتي. أنا متعبه اريد ان أنام.

أتصل في المشغل أعطاه الحارس رقم بيتها فأخبرنا ان عليا هناك وقد نامت على المقعد التي اجلسها عليه ريثما ينادي أحد منا. ذهبت جميل وأحضرتها عنوة وقررنا الانتقال لنعيش معها. ما الحل يا دكتور. ماذا بها؟

: انه الخرف. الزهايمر مرض العصر الحديث. مرض غالبا يصيب الناس الذين لم يتمكنوا مع التأقلم مع تغييرات الحياة ولا تقلبات السلوكيات الجديدة. حياة غير التي نعرفها وتربينا عليها. ولا أستطيع التكهن كيف سيكون حال الانسان الهش او لعلي أعني السوي بعرفنا نحن الجيل القديم في السنوات القادمة. وقد تدهورت كل الاخلاقيات للعدم. لا قيم ولا أخلاق ولا انتماء. صار المتمسك بمثل هذه القناعات انسان قديم ورجعي متخلف أحيانا. لا شيء أصعب من التعامل مع وضاعة النفس البشرية متى فلتت من عقالها.

هذا جميل. زوجك. أنا شخصيا لا أعرفه كما ينبغي لكنني اعرف ابن من. طبيعي ان اعتبره امتدادا لذلك الرجل الطيب الذي رافقني في أحلك ظروف حياتي. بهذه المعرفة رشحته للعمل مع عليا وندى قبل عشرين سنة او أكثر. هل ما زال هو. كم لعبت به الحياة؟ وكم لعب بمن حوله؟ ربما عليا أحد ضحاياه وانت بعدها وأمك قبلكما. من يستطيع الجزم ما صار اليه حاله بدواخل نفسه.

أنت يا سلمى. هل هذه انت التي كنتها يوم تخرجت واشتغلت واندفعت بكل طاقاتك للعمل وللنجاح، جاء رجل نكرة فاشل مريض، ارداك بالضربة القاضية، فمد جميل يده وتلقاك. حماك من السقوط. قدرت ما قام به. لأنك عالية الفهم والتعليم فملكك.

أ هذا أنا الذي اتى لبلده هروبا من صقيع العلاقات في المهجر حيث كنت. لأتمتع بمشاعر أهل بلدي التي توزع مجانا في الطرقات والمحلات والمقاهي والبيوت. وفوجئت ان تلك المشاعر هربت تحت مسميات غريبة لتلحق بركب التطور والتحضر خفية. أعش وحيدا تماما بعد رحيل ندى. اتضح انني كنت اعيش وسط عالم تحركه ندى بمجدافين رائعين قلبها وعقلها. فجعت بذهابها. هل ما زلت انا الانسان المؤمن بالله وبالدين؟ هل ما زلت أردد بثقة الدين أولا الدين آخرا.

هل تقي الدين يتذكرني وسط همومه العامة والخاصة؟ وهل عائشة ما زالت ابنتي. وهل تزوجها رشاد لأنه أحبها ويريد اسعادها بينما بقي على قناعة ان وجودة، هو بالذات بين ملايين البشر، مكلف بإعادة العدالة الحرية والديمقراطية الى الحياة، مع انها بقيت شعارات على الورق لم تمارس اطلاقاً ولا باي مكان ولا أي بلد. بقيت شعارات لتخدير الشعوب. هل ما زالت عائشة تبكي من غياب زوجها عنها وعن بيته. ها ما زالت تتذمر من تحملها مسئولية البيت والأولاد. لا أعرف أحفادي ولا يعرفونني.

رفعت عليا رأسها وقالت:

: خلص. لا اريد سماع صوت، أريد النوم. لا أستطيع ان انام إلا في بيتي وفراشي. ورائحة ملابسي التي غسلتها أمس. وأمي. أين أمي؟ تفرست بوجوهنا وقالت من أنتم. أين أنا.

سلا مست رأسها وكتفها فتكومت تحت ذراعي واستكانت وقلت:

: أنت عندي. أنا مينا. الدكتور الجار والصديق. وقلت ذات مرة أني كنت في وقت ما حبيب. ستبقين معي عندي.

عبست جبينها، قلبت شفتيها. وعادت للنوم.

نظرت سلمى الى زوجها طويلا وسألت بخبث:

: من أنت؟ ومن أنا؟ نحن ليسوا أفضل حال من عليا. صعب التفكير بأسئلة لا أجوبة لها. كل أمور الحياة أصبحت أسئلة بلا أجوبة. أسئلة لها عدة أجوبة وهذا يعني بداية النهاية. أنا ايضا أريد أن أستريح تعبت.

: نعم عودي لسلمى كلنا يفتقدها. نريد ان تعود معك الابتسامة وزرعها على الوجوه. عودي لبيتكم مع عليا.

رفعت عليا رأسها وقالت:

: بيتنا. بيع ما بيع، وسرق ما سرق.

وانا أعرف البقية انا اكبركم عمرا واكثركم تجربة. خرس كل لسان يعرف الحقيقة. والمشغل الشعلة تحول لبيع الجملة لملابس مستعملة. والمال الذي كان يدره يودع في البنك ولا يحرج منه الا بأمر من جميل. جميل هو من قام بالجهد فنجح واستمر. عليا نسيت فكيف أنسى. من يرد عليا. جميل خرج من انسانيته وصار بشعا جشعا بلا ضمير. يمكن انت واحد من الناس الذي تكلمت عنهم قبل قليل. يقولون ان الحماقة اعيت من يداويها.

ما تعني كلمة الأحمق؟ هل هم أولئك الذين تعودنا التندر والاستهزاء والسخرية من ضحالة تفكيرهم وغرابة تصرفاتهم. هل منهم من يلف يده اليسرى ليمسك بها اذنه اليمنى.

هل هم الذين يقولون الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة بكل قسوتها. هل قرانا عنهم في القص الشعبي كجحا مثلا. ام هم اولئك التي تروى عنهم النكات الحمصي والخليلي وغيرهم.

ضحكت رغم المأساة التي امامي. أنواع من الناس لا يمت أحدهم للآخر بصلة بل يذكروني بمقولة سارتر الجحيم هم الآخرون. فقلت معلقاً:

: أتخيل شكل كاريكاتوري لتلك الشخصية. وجه طويل مسحوب *السحنة* الى ما فوق السالفين. عين واحدة بمنتصف الوجه. مثل مميوزا. لا يرون الا ما يكون أمام عينهم الوحيدة التي تنقصها الفطنة وترى بخط مستقيم. عقولهم في جهة واحدة من رؤوسهم. يمين او شمال. تتحكم بتصرفاتهم واحدة من ملكاتهم الموجودة بالفطرة.

لا يرون ما يراه الجميع ولا يفكروا كما يفكرون. ترهقكم صحبتهم. يظنون ان اقوالهم الأفضل والأحسن. لذا يحاولون اقناع محدثهم بها ولو رفعوا بوجههم ساطورا يقطع وجهك شرائح يبيعونها طرية طازجة بدمها. يحتالون بسذاجة. فيكاد يغشى عليك من الضحك. ينحنون لتمرير عاصفة الآراء المخالفة. فهي لا شيء لا تستحق اعلان حرب من أجلها من باب سد باب الريح لتستريح.

عواطفهم تتأرجح. تشبه عينهم الواحدة المرتدة لدواخلهم. لا يحبون لكنهم يمارون. يتخلصون من مواقف لا يعرفون محاكاتها. بابتسامة زيف ومدح أخرق؟

يلعبون وحدهم في مساحاتهم الساذجة. يسلبون كل فكرة. يخلون بأنفسهم يحركونها كأحجار الشطرنج على هواهم. يعيدون توزيع الأدوار والفكرة المسروقة تصبح مشروعا غير شرعي ولا تعليق من أصحاب فكر او إنجاز يستغلون فتات الأقوى وبدوره يغض النظر يرد عليهم بقهقهة انها مجرد محاولة لرفع شأن أنفسهم ولا ضرر من ذلك.

انسحب جميل قابضا على ذراع زوجته يجرها الى الامام كأنها شيء. كأنها بعض متاع يملكه. لحقت لأر ى ان كانت سلمى ستتخاذل وتساق مع جميل حيث يريد. لكن رأيتها تقف وتسحب ذراعها من ذراعه بكل عنف. قالت بهدوء شديد صلبت ظهرها وشدت قامتها حتى انها بدت لي أطول بكثير مما أعرف وبصوت واثق ومصر على المعنى الذي يحمله كلامها:

: كلام الدكتور مينا فيه الكثير من الصحة. كلنا تغيرنا. كل منا جعل حياته خطوطا منكسرة وملتوية ليتكيف مع ظروفه الطارئة فلم نعد نحن. صرنا غيرنا. وواصلنا حياة ليست لنا. لكن ما قمنا به اوصلنا لطريق مسدود. عليا دفعت عقلها ثمن. وانا دفعت حياتي كلها ثمن. وأمي دفعت بقهرها عمرها ثمن. نعم كلنا تعبنا كلنا شقينا إلا إياك يا جميل. ما كان منك إلا ان رفعت قناع بعد قناع عن وجهك. الآن انتهى كل شيء. من أي جهة طريقك أشار للجهة اليسرى قالت مع السلامة واندفعت في الجهة المعاكسة.

عدت مبتهجا لعليا. فهي معي وستبقى معي. تسليني بقصصها التي تشبه طفلة ما زالت في طور النمو. جمل مضحكة غير مترابطة غير مكتملة. كلمات مقلوبه الأحرف تنطقها بصعوبة تريدها ان تكتمل ولكن لا محالة.

مع الأيام الطويلة التي شاء لها القدر ان تطول بعمرينا بدأت تفقد التركيز شاردة معظم الوقت أحاول ان اذكر امامها اسم أفراد عائلتها فلا أرى أي ردة فعل على وجهها. الشيء الجميل الذي ربط بيننا أنها كانت تكتب لي كل يوم رسالة عشق عذب جميل بريء وتتركها أمامي قبل ان تنام ثم صارت تعطيني الرسالة راجية ان أوصلها لمينا الذي لا تعرف طريقه.

صارت فكرة الموت ترعبني كيف ستعيش وحدها. عندها خادمة وعندها الرجل عطية الذي يخدمني ولكن هل يكفي. مسكينة دون عقل تعيش. دون فكر تعيش. دون دراية من هي وأين هي تعيش. يبدو انها كانت بين فترة وأخرى تعي بعض الشيء تتفقدني بالليل تضع اصبعها أمام أنفي لتعرف ان كنت اتنفس أم لا. أحيانا ألاعبها فأكتم نفسي ترتمي فوق صدري باكيه منتحبة لا تتركني حبيبي بعد ان لقيتك. في الصباح أجدها قد نسيت كل شيء.

حالة محيرة حقا. هل توقف كل ما بها عن العمل ما عددا قلبها وشعورها نحوي؟ ما نوع هذا الحب؟ كيف عاش وهو مكتوم؟ كيف كبر ونما وهو محبوس في سجن القلب؟ كل ما تعلمته في حياتي من علم لم يوصلني لمعنى هذا الذي اعيشه مع من أحبتني كل هذا الحب.

كلما شعرت بوعكة او هي شكت من وهن او ضعف. كلما عافت نفسي او نفسها الطعام، أحسب انه الموت. أرقد بجانبها ممسكا بيدها منتظرا ان نموت سويا. وأطلب من ربي خالقي ومحبي في كل صلاة ان يمنحني هذه النعمة لأمت وانا مستريح أننا ذاهبان معا لم يترك أحدنا الآخر ويذهب اللهم أمين.

مينا حبيبي اين انت.

يا الله صوت من هذا صوت ندى ام صوت عليا ام صوت من داخلي. غير مهم رددت بصوت عال خال من التردد انا قادم حبيبتي انتظريني أينما كنت سنعيش الحب والوئام والإخلاص والخلاص يا أعز الناس.

كثيرا ما انسى أيها الحبيب

كوني كيفما تكونين. أحبيني تذكريني انسني انا معك ولك حتى آخر نفس انتزعه من هذه الدنيا وسأحاول ان يكون طويلا وكبيرا وخاصة اذا جاء من جهتك فانا أحببتك وأحبك وسأحبك.